نور الدين الصادق

بعض هذا القهر ثقيل



نورالدين الصادق

بعض هـذا القرنـــفل

المقدمة

أسلوب جديد اتبعه الكاتب يمتاز بالتشويق والغموض، مما جعله قادراً على الاستحواذ الكامل على انتباه القارىء حتى نهاية الرواية، ساعده على ذلك الحبكة الدرامية الممتازة وواقعية الشخصيات وتطورها المنطقى مع الزمن كما أنه استعان بالوقائع التاريخية فى مكانها الصحيح، وأبدع الكاتب فى الربط بين هموم وأحلام أبطال الرواية والاحداث الوطنية العامة، وبذكاء مبهر استطاع أن ينقل القارىء من أحداث شخصية الى هموم وطنية، مستخدماً ايقاعاً سريعاً للأحداث يجعل القارىء يلهث مع بطلة القصة عزة الرشيد فى البحث عن الحقيقة.

تعتبر هذه الرواية من الاضافات المهمة للمكتبة العربية، ولنهج جديد فى أسلوب الرواية بعيداً عن الاغراق فى الوصف أو الابتذال والتطويل ، وأتمنى من المؤلف أن يسعدنا بكتابات مماثلة فى المستقبل.

الكاتب والمؤرخ
على الفكي

تنـــــويه

أحداث هذه الرواية وشخصياتها وأسماء شخصياتها ووقائعها وأماكن وزمان حدوثها والجهات التى تنتمى لها هذه الشخصيات من نسج خيال الكاتب وليس لها علاقة بالواقع إطلاقا.. بتاتا.. البته .. سامعين البته.

المؤلف،،،

شكر

أشكر كل من ساعدنى أوحاول أن يساعدنى فى نشر هذا العمل، ومنهم عبدالرحيم عبدالله، د.لبابه عبدالله، والكاتب على الفكى، ود. يوسف العيدابى، د.الطيب أبوسن، واحسان واميمة محمود، والصديق طارق بن ادريس.

المؤلف،،،،

إهداء

إلى من أعطت أكثر مما يجب، الى الوالدة حفظها الله ..

الى من عانى من الدكتاتورية، الى الوالد رحمه الله عليه..

الى الأخوات نادية ونوال ونازك

إلى من تجيد الإستماع.. إلى إيمان طه ..يجدها بخير

إلى من لم أعتقد أن يصل حتى هذه النقطة ..إلى نورالدين الصادق

العودة لماذا ؟

ماربل آرش، أخيرا وبعد جهد جهيد، ما أجمل الدنيا عند تحقيق حلم، نظرت إلى شارع إكسفورد ثم إلتفت إلى ناحية حديقة الهايد بارك وبدأت أتمشى في ممرراتها، أحسست أن جميع من حولي يحتفلون معي اليوم أصبحت دكتورة عزة الرشيد، دكتوراة في علم الإقتصاد أو بالأصح في رسالتي تأثير العوامل الإقتصادية علي السلوك الإجتماعي ومن أين من جامعة أكسفورد، الجامعة التي عندما دخلتها أول مرة مع والدي كدت أن أهرب خوفا منها، واليوم يسبق حرف الدال إسمي ما أجمله وما أتعبه، إنتابني إحساس بالراحة، لا بل أريد أن أركض، أن أصرخ هل أفعلها؟ وأخذت أتأمل المارة من حولي كأنني أريدهم أن يشجعونني علي ذلك، ولكنني خجلت من نفسي وفضلت أن أنظر حولي، وأتأمل في المارة وأنا أتمشى بهدوء وسط أشجار الهايد بارك، هذا المكان الذي إعتدت أن أتي إليه للتأمل والتفكير، هذا المكان الذي شهد حلم الدكتوراة منذ أن وطأت قدمي أرض لندن، ألا يجب أن يعلم هؤلاء المتنزهين بأنني نجحت، ثم تذكرت أنني لم أخبر أبى وأمي، هل أخبرهم بالهاتف، أم أتوجه مباشرة إلى الخرطوم، يا لها من مفاجأة بعد كل هذه السنين، يرونني أمام البيت، أعود إلى السودان ثانية، عشرة سنوات منذ عام ثلاثة وثمانون، ما أسرع السنين لقد جئت إلى هنا وعمري تسعة عشر عاما، والآن أنا على مشارف الثلاثين، تذكرت كلام أمي بلا دكتوراة بلا كلام فارغ البنت آخرها الزواج، كأنما هذه الجملة أتعبتني، جلست على إحدى الكنبات المتناثرة بجانب الممررات بالقرب من شجرة ضخمة، أسندت رأسي إلى الخلف ونظرت إلي السماء كانت صافية على غير عادتها، أعادتني الذاكرة إلى أول يوم لي في جامعة الخرطوم، أذكره كأنه أمس، كان قد تم قبولي بكلية الإقتصاد، وذهبت وقد إرتديت إسكيرت أسود وبلوزة أقرب إلي البياض منها إلي الرمادي

وجمعت شعري إلى الوراء تعمدت أن أكون في قمة أناقتي وجمالي ولكن بشكل رسمي، وعند مدخل الجامعة بالضبط نزلت من السيارة وأشار أبى مشجعا ومودعا، وإبتعد بسيارته مسرعا، نظرت إلى المدخل كان هنالك الكثير من الطلبة والطالبات متجمهرين أمام المدخل فإذا بهم ينظرون إلى، ورغم أنني ظننت تعودي على نظرات الإعجاب إلا أنني أحسست بالخجل ولكني تداركت الأمر ورفعت رأسي إلى أعلى بكبرياء فهذا هو أسلوبي في إخفاء خجلي وتقدمت بثقة إلى مدخل الجامعة، ثم سمعت صوتا يناديني من الخلف كانت صديقتي منى حسين كنت أعلم قد تم قبولها بكلية القانون، وتهللت أساريري وأخذتها بالأحضان، وبدأت أشعر بأن هذا اليوم سيكون من أجمل أيامي، وسرنا إلى كلية القانون ووجدنا بعض الكراسي المتناثرة في الممررات وجلسنا وكل واحدة تريد أن تسال عن أخبار الأخرى كنا قد درسنا كل المراحل الدراسية معا حتى السنة الثانية من المرحلة الثانوية، وكان والدها يعمل بوزارة الزراعة وقد تم نقله إلى مدينة عطبرة، وإنقطعت أخبارها عنى وخصوصا إننا كنا في إمتحان الشهادة الثانوية، ولكني رأيت إسمها بكشوف القبول لكلية القانون و ما أجمل حظي أن كانت أول من أقابلها، منى إنسانة حالمة وهادئة وجميلة، كان الجميع يحبونها خصوصا المعلمات، وكنت أغير منها أحيانا، تقدمتنى في الترتيب كثيرا، وتقدمت عليها مرتين فقط، كانت تسكن في ضاحية برى في أحد مساكن الحكومة، وكنت أسكن في حي الرياض المجاور، ولكننا كنا نتبادل المبيت في بيتهم وبيتنا، وكانت دائما تصفنى بالمغرورة والعصبية، سألتها: أما زلت مغرورة وعصبية في رأيك. إبتسمت وقالت:مغرورة نعم، ولكنك تبدين أكثر هدوءا، ضحكنا وبدأنا نسترجع أيام الثانوية، فجأة سمعت صوت من خلفي يسأل: يا أستاذ كيف يتم التسجيل لكلية القانون، وإلتفتت مني قبلي لأن هذا السؤال يهمها أكثر منى، كانت الطالبة السائلة بدينة بعض الشيء تبدو أكبر منا قليلا، وكان الشخص الذي تتحدث معه طويل القامة

يلبس بذلة رمادية اللون، تبدو عليه ملامح الجدية في حوالي الثلاثين من العمر ويمسك بيده دفترا، وأخذ يقلب صفحاته بهدوء، ثم قال لها: جميع الطلبة الجدد يجب أن يتواجدوا في الساعة الثانية عشر في القاعة الرئيسية.وعلي الفور سألته بدوري عن طلبة الإقتصاد، إلتفت إلى وقال بسخرية: أفتكر كلامي واضح، على جميع الطلبة الجدد التواجد في القاعة الرئيسية. وذهب مسرعا، أما الطالبة فألقت علينا التحية وذهبت وهي تضحك في الإتجاه الآخر، قلت لمنى: سخيف. إبتسمت بهدوء كعادتها وقالت:العصبية ظهرت، من الواضح أنه أحد الأساتذة بالكلية وطبعا لازم يبدأ يمارس السلطة على الطلبة الجدد. ثم أردفت: مازالت الساعة العاشرة ماذا نفعل ؟.كان هنالك وقت طويل أمامنا فذهبنا إلى كافتريا النشاط وهو المكان الذي تعلق عليه جرائد الحائط، والتي ليس لها موضوع غير إنتقاد الحكومة والمطالبة بالحرية، وعودة الحياة الديمقراطية، ثم أخذنا نستمع إلى أركان النقاش، حيث كان كل متحدث يقف في أحد الكراسي ويبدأ في الحديث في أي موضوع سواء كان في السياسة أو الكرة أو الشعر وكان أظرفهم شاب في الثلاثين من العمر يدعى فيصل كسلا نسبة إلى مسقط رأسه في مدينة كسلا في شرق البلاد وهو من الطلبة المعمرين في الجامعة كما أخبرتنا إحدى الطالبات التي كانت تقف بجوارنا والذي كان يلقى قصائد وطنية ثم ما لبث أن تحول نظره إلى منى، وأخذ يلقى قصيدة مرتجلة يتغزل فيها بمنى التي إحمر وجهها بعد أن بدأ الطلبة يتجمعون فانسحبت وتبعتها وقلت لها مازحه ونحن نبتعد عن الجمع: أعتقد إنك سوف تحتاجين إلى حارس شخصي، إبتسمت ولم تقل شيئا كنت أعلم أنها تضايقت، فهي من النوع الهادىء التي لا تحب أن تلفت الأنظار إليها، وما يثير غيظي إننى عندما أكون معها تستأثر هي بالإعجاب أكثر منى ولكنني أعترف أن أسلوبها وحتى لبسها له نكهة خاصة فهي على النقيض منى تلبس الثوب السوداني والزينة التي ترتبط بالتراث في كل مناسبة كما هي اليوم كانت

تلبس ثوبا أبيض وحذاءا أسود متناغم مع شنطتها، بينما أنا ميالة إلى الأسلوب الغربي والعملي أكثر، قلت لها وأنا أحاول أن أخرجها عن صمتها، لنجلس في الكافتيريا، وافقت بإيماءة بدون أن تتكلم، وطلبنا بعض السندوتشات والعصائر، وسألتها عن أهلها فقالت سيعودون إلى الخرطوم العام القادم وإنها تقيم مع عمها في مدينة بحرى، وتريد أن تقيم في السكن الداخلي للجامعة هذا العام وبدأنا الحديث مجددا عن أيام الثانوية وفجأة إقترب منا شخص رفعت رأسي لكي أراه، فإذا هو فيصل كسلا وكان ينظر إلى ثم قال: أرجو أن تخبري صاحبتك أنني أسف وما أشعر به أقوله على الفور بدون أن أراعى التقاليد. ثم نظر إليها لبرهة ثم إبتعد ظللت أراقبه وهو يتفادى الإصطدام برواد الكافتيريا حتى إختفى، نظرت إلى منى التي بدأت تستعد للنهوض وهى تقول: أعتقد أن الحياة الجامعية ستكون معقدة جدا هيا نزور مكتبة الجامعة فقد سمعت عنها كثيرا. وبدأنا نتمشى بهدوء إلى المكتبة، بعد أن سألنا أحد الطلبة عن موقعها، وما أن دخلنا حتى إنتابتني بعض الخيبة، لا أعلم لماذا، أعتقد أنني كنت أتخيلها شيئا ضخما مع وجود ممررات لا تنتهي، ولكنها كانت أصغر مما تخيلت، أخذت كل واحدة منا كتابا وبدأنا نتصفح في بعض كتب التاريخ، وأدركنا الوقت فقلت لمنى: يجب أن نسرع حتى لا نتأخر على التسجيل. وما هي إلا دقائق حتى كنا قد وصلنا كلية القانون وسألنا عن القاعة الرئيسية وجدنا حوالي العشرون طالبا وطالبة بها يجلسون بهدوء مع بعض الهمهمات بينهم، جلست مع منى في آخر القاعة وسألتها؛ أليس من المفترض أن يكون لكل كلية إجراءاتها الخاصة بدلا من جمع كل الطلبة في مكان واحد، ردت باقتضاب: صاحبك وصل. كان الأستاذ الذي رأيناه صباحا قد حضر وفتح حقيبته وأخرج منها بعض الأوراق، ثم قال بصوت جهوري أمامكم الأستاذ عباس محمد أدم المسئول عن إرشادكم في الفترة الأولى، سيتقدم كل واحد منكم ويعطيني عشرين جنيها وصورتين وأسمه واسم الكلية الملتحق بها

وغدا سيستلم بطاقة الكلية وجدول المحاضرات وبعد ذلك سيحاضركم الدكتور طارق المغربي عن مفهوم الحياة الجامعية، كان حديثه مترفعا أقرب إلى صيغة الأمر، وكان أول الواصلين إليه الطالبة التي كانت تحادثه صباحا، حيث أخرجت نقودها وبدأت تمليه بياناتها، ثم ما لبث أن أتبعها كل الطلبة، وبعد نصف ساعة بالضبط كان الأستاذ عباس قد أغلق حقيبته وأخذ ينظر إلينا ونحن جالسين بهدوء، ثم إلتفت ناحية الباب وكان يبدو أنه ينتظر الدكتور ومرت دقائق ثقيلة حيث أن الأستاذ عباس فرض نوعا من الجدية على الحضور، حتى خيّل إليّ إننى أسمع أفكارهم، ثم ظهر عند الباب رجل أنيق يلبس بذلة سوداء وربطة عنق زرقاء فوق قميص رمادي فاتح اللون طويل القامة يلبس نظارة، يعلو شعره بعض الشيب الذي أضفى إليه مسحة من الوجاهة، يبدو في الأربعينات من العمر له عينان نافذتان زادت من وسامته، كان يحمل شنطة صغيرة، سرعان ما هروّل إليه الأستاذ عباس مسلما عليه، إبتسم وهمس إليه ببعض الكلمات، بعدها جلس الأستاذ عباس مع الطلبة في الصف الأول، وإتجه الدكتور إلى المنصة وأخذ يبتسم وهو يتأمل في الطلبة ثم قال بعد السلام: ملامحكم يبدو عليها الخوف الإمتحان ليس الآن، بدأ الطلبة بالضحك ونزل من المنصة وبدأ يتمشى بين الطلبة وبدأ يتحدث عن الحياة الجامعية وهموم وآمال الطلبة، لم أكن أركز في ما يقوله في البداية الأمر ولكنه بدأ يستأثر بهتمام الطلبة وأسترسل قائلا: أتعرفون من أنتم؟ صمت برهة وهو يتفرس في الوجوه عن قرب: أنتم مجموعة من الأحلام، أحلام بالنسبة إلى إبائكم أو أنفسكم أو أوطانكم، قد يتصور البعض منكم إنه يريد أن يكمل الجامعة ليتأهل إلى الوظيفة المناسبة بدون أي فلسفة للموضوع، وطبعا الغالبية منكم تنحى إلى هذا المنحى، وقد يعود ذلك إلى عوامل اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها، ولكن أليس بالإمكان توسيع نطاق هذا الحلم أليس بالإمكان أن أقول اننى أكبر من مجرد طالب من آلاف الطلبة، أليس بالإمكان

أن أأثر بالمكان قبل أن أتأثر به، ولنأخذ مثلا هذه القاعة يمكننا أن نحضر كل يوم ونتلقى فيها دروسنا ونذهب ونتخرج، وتبقى القاعة كما هي أو ربما أسوأ، تكون حققت هدفك وتركت مكانا أسوأ، حلمك الأدنى لم يترك لك الفرصة لترى أبعد أو أوسع منه، وبالمقابل بمكننى أن أتخرج ولكن عندما أتّى كل يوم أتحسس المكان وأقول لنفسي أن القاعة ليست قبيحة ولكن وجودي فيها يجب أن يترك بصمة، وجودي يجعل الأشياء أجمل، ويمكن أن نعمم ذلك على الجامعة، إنها جميلة وسأتركها أجمل ليس لأنني خارقا بل لأنني لست عاجزا، أتعرفون الآن كيف نضمن للأوطان غدا أفضل، الفرق هو أنت لا تقل لنفسك من أنا لأفعل كل هذا، لا تبخس نفسك قدرها فأنت كل شيء فأنت اليوم وأنت الغد، وكان قد أقترب منا عندما قال: أنت تملك الاختيار أنت تملك الزمن، إذن أنت الأقوى وأنت الأغنى، أصبح الجو حماسيا كان كمن ينفخ فينا ثقة وبدأت أرى أعين الطلبة تلمع، كان له أسلوبه في الخطابة، وأصبحت القاعة كأنها ساحة حرب، وعندما رجع إلى المنصة أختتم محاضرته قائلا الثقة بالنفس تصنع الفرق، الثقة بالنفس تجعلك تفتح الباب لترى أكثر. وصفق له الطلبة تصفيقا مدويا، وكان يبدو كالأسد العائد من رحلة صيد ناجحة، لا أعلم لماذا خطر لي هذا التشبيه ولكني أعتقد نظرته كانت أقرب إلى ذلك، ثم قام الأستاذ عباس وقال أن هنالك حفل عشاء بدار إتحاد الطلبة إحتفالا بالطلبة الجدد عند الثامنة مساء ثم خرجا سويا، ثم لحقت بهم الطالبة التي رأيناها في الصباح كمن تريد أن تسأل عن شيء، إلتفت إلى منى وقلت: هذه الطالبة تثير أعصابي. ولكنها كانت تنظر إلى الباب وهى سارحة، قلت لها: ما رأيك في المحاضرة. ردت وهى تبتسم: المحاضرة أم المحاضر قلت لها إنه متحدث لبق، ووجيه، ثم عندما إقترب منا لاحظت أنه أصغر مما يبدو عليه، ردت: فقط.! كانت تتحدث بطريقة خافتة كأنها تحدث نفسها، كانت كالمسحورة نهضت بتثاقل وقالت: لنذهب حتى نستعد لحفل العشاء،

قلت: ستذهبين معي إلى البيت لا يمكن أن تذهبي إلى بحري وتعودين، هزت رأسها رافضة إقتراحي وقالت: بحرى أقرب إلى الجامعة من الرياض.

قلت لها أمي ستغضب.

ردت: عمى ينتظرني. وأردفت ضاحكة: المبيت يجب أن يتضمن العشاء يا بخلاء الجاحظ. ضحكنا وإنتظرنا عند مدخل الجامعة حتى جاء أبى، الذي رحب بها كثيرا وأصر على أن تأتى معنا وأن نتصل بأهلها، ولكنها رفضت بعناد وإستأذنت، ثم ركبت السيارة مع أبى وبدأت أحكى له عن أول يوم جامعي بفرحة وهو يشق طريقه بصعوبة إلى البيت.

سمعت فجأة أصوات أطفال يركضون خلف كرة، ووجدت نفسي في الهايد بارك ثانية إستغربت من نفسي أن أتذكر كل شيء حتى الأسماء، بدأت أتمشى ثانية كان الجو لطيفا رغم إننا في أواخر شهر مايو، وسقوط أشعة الشمس على الأزهار جعلها تبدو أكثر فرحا كأنما تحتفل بنجاحي، وعدت بالذاكرة ثانية إلى حفل عشاء الطلبة الجدد بدار الإتحاد بشارع النيل، كنت قد جئت متأخرة بعض الشيء، وسألني أحدهم عند المدخل عن إسمي، كان يبدو أنه مسئول عن الدخول فقلت: أليس من المفروض أن تكون الدعوة عامة، قال: إنها للطلبة المسجلين فقط، وعند دخولي إلى الحديقة وجدت تقريبا نفس الوجوه التي كانت في المحاضرة، كانت هنالك حوالي ستة موائد دائرية تتسع كل واحدة حوالي خمسة أشخاص، ثم رأيت منى تلوّح لي بيدها وهى جالسة علي إحدى الموائد وبجانبها شخص أعتقد أنني أعرفه، وما أن سلمت عليه حتى عرفته كان إبن عمها ياسر عبد الحميد وكان طالبا في الكلية الحربية، قلت: كيف أخبارك يا حضرة الضابط، قال: ما شاء الله تبدين أجمل مما كنت، أنا متأكد اليوم ستضمنين عريسين أو ثلاثة. ضحكت وقلت له: اليوم العشاء أهم من العريس فمنذ عودتي من الجامعة وأنا نائمة ولم أستطع أن أكل شيئا. ونظرت إلى منى وهالني ما رأيت فقد كانت

في قمة الجمال، كانت تلبس ثوبا كبدي اللون وتحمل شنطة بنفس اللون وتضع على وجهها ماكياجاً كاملاً لأول مرة أراها بذلك التأنق، وقلت: لم أرك قبل اليوم تضعين شيئاً على وجهك. قالت ضاحكة: للسن أحكام.

قلت لياسر : هل تخرجت؟ .

رد سريعا: نعم السنة الماضية، على العموم لا ألبس الزى الرسمي إلا نهارا. كان ياسر يتعمد أن يخيفنا منذ كنا صغارا يأتينا ممسكا بالحشرات والضفادع، وفى إحدي المرات أتى بثعبان فما كان من منى إلا أن أغمى عليها، ووقتها ضربه والد منى ظهرا ووالده مساءا وكان يضربنا أحيانا، كان مجنونا بالعسكرية ولكن منذ دخول منى الثانوية بدأت معاملته لها تتغير، كان يتعمد في بعض الأيام أن ينتظر منى عند إنتهاء الدوام الدراسي وهو بالبذلة العسكرية للكلية الحربية وكانت الطالبات يعجبن به إلا منى كانت ترفض أن يأتي لإصطحابها، وذات مرة إشتكته إلى أبيها فما كان من ياسر إلا أن أتى بأبيه وطلبها للزواج، ورفضت منى وأصبح أبيها في موقف محرج بين بنته وأخيه فما كان منه إلا أن قال: يجب أن تكملا تعليمكما أولا ثم نعقد الزواج. آملا أن تغير بنته رأيها آن ذاك، وإبتسمت في سرى وأنا أنظر إلى منى فقد جبرتها الظروف أن تسكن معه في نفس البيت، وللحقيقة فأنا متعاطفة مع ياسر، وقد تحدثت معها كثيرا بناءا على طلبه ولكن منى لم تبدى غير الرفض، وأخذت أنظر إليه كان كل من يراه يجلس بجوارها يعلم أنه متيم بها كانت منى تخافه ثم أصبح كالخاتم في يدها وأخذنا نتحدث عن الجامعة وأتى العشاء وكان متكلفا ومتنوعا وأكلت بنهم وقلت: يبدو أن إتحاد الطلبة يريد أن يضمن الأصوات الإنتخابية الجديدة، وكانت منى تتلفت كمن تبحث عن أحد، ثم تلاقت أعيننا فقالت: أبحث عن الأستاذ عباس ودكتور طارق أليس من المفترض تواجد عدد من الأساتذة. تلفت حولي ولمحت الطالبة التي كانت معهما في الصباح وقلت ساخرة: راقبي هذه وستجدينهما.

ردت منى: إسمها سامية، لقد تعرفت إليها قبل حضورك، إنها طالبة بكلية الآداب، بدأت أتأمل في الحضور كان العدد قليلا بالنسبة إلى كل الطلبة الجدد، وأبديت لهم هذه الملاحظة فردت منى: إنه من حسن حظ ياسر فلو كان العدد كبيرا لكان الآن ينتظرنا في السيارة.

فرد ياسر مازحا: لا أعتقد إن دخولي كان مرتبط بالعدد إنما بمن أرافق.

ضحكت وقلت: صراحة اليوم لا أعتقد أن أحدا يمكن أن يرفض لها طلبا. ولكن منى تجاهلت حديثنا وقالت: سامية إقترحت أن أشاركها غرفة السكن الداخلي.

قلت لها: لا أرتاح لها. ثم أردف ياسر بغضب: قلت لك أنسى موضوع السكن الداخلي وإذا كانت المشكلة في المواصلات فأنا مستعد لتوصيلك يومياً.

فردت عليه منى بحدة: إن مواعيد المحاضرات تختلف من يوم إلى أخر بالإضافة إلى الوقت الضائع بالذهاب كل يوم إلى بحرى.

رد بحزم: لست موافقا، ماذا تريدين أن يقول الناس عنا، بيت عمك موجود وتسكنين الداخلية. إلتفتت منى إليه بغضب وهمت أن ترد عليه، فتدخلت بسرعة: يا جماعه أتركوا الموضوع الآن، دعونا نستمتع بالحفل. وبدأ بعض الطلبة بإلقاء كلمات تعارف مرتجلة وقصائد وطنية، كان واضحا أنه ليس هنالك برنامج للحفل، ولم يكن أحد من الأساتذة موجوداً، وكانت منى تشيح بوجهها بعيدا عن ياسر وكان واضحا إن التوتر بينهما لن يزول، فقلت لمنى: ستذهبين معي اليوم كما إتفقنا صباحاً.

فردت منى بسرعة كأنما وجدت طوق النجاة: طبعا..طبعا.

فقلت لياسر: لا يمكن أن تذهب إلى الرياض وتعود إلى بحرى. ولكنه أصر كانت الساعة العاشرة عندما بدأت سامية في إلتقاط صور جماعية للطلبة، ثم بدأ الحضور بالإنصراف وإتصلت بأبي أبلغه بذهابنا إلى البيت حتى لا يعقبنا، وفى

طريق العودة إلى البيت كان الجميع صامتا وكنت أتوقع ذلك، وعند منزلنا ودعنا ياسر الذي قاد سيارته بعنف مبتعدا.

بكت والدتي وهى تحتضن منى بين ذراعيها وكانت تهمهم: يا الجافية أليس هنالك تلفون. قالت منى وعينها تدمع: مشتاقة.. مشتاقة لك كثيرا يا خالة. وأصرت أمي على العشاء رغم أن منى أقسمت بأنها لا تستطيع أن تأكل، وإنتظرنا أبى وأخي خالد، وجلسنا نأكل وتعمدت منى أن تحكى لنا عن عطبرة حتى لا تأكل كثيرا، وصعدنا إلى غرفتي وعندما أوينا إلى الفراش كانت الساعة تجاوزت الثانية عشر ليلا وقلت لمنى: إنتهى أول يوم جامعي لنا أعتقد إنه يوم ممتع، كانت مستلقية على ظهرها وهى تنظر إلى السقف ردت بنعاس: سيعتمد ذلك على الغد. لم أفهم ماذا تعنى ولم أستطع أن أسألها لأن النوم غلبها.

في صباح اليوم التالي رفضت منى الذهاب إلى الجامعة مباشرة لأنها تريد أن تبدل ملابسها، فذهبنا إلى منزل عمها أولا ثم توجهنا إلى الجامعة، كانت الساعة قد قاربت العاشرة، وما أن تخطينا البوابة الرئيسية، حتى قابلنا أحد الطلبة الجدد الذي سجل معنا بالأمس الذي قال لنا محذرا: لاتدخلوا الجامعة اليوم. قلت مستفسرة: ماذا حدث؟.

قال: ما فعلناه أمس من إجراءات تسجيل وحفل إستقبال كان مسرحية من الطلبة القدامى، والآن صورنا معلقة في النشاط، إنهم يسخرون منا، وسألته منى د. طارق أيضاً، رد بغضب: انه طالب في السنة الرابعة هندسة مدنية والأستاذ عباس في السنة الثالثة قانون، والعشاء كان من النقود التي دفعناها للتسجيل، أنصحكم بعدم الذهاب إلى النشاط الآن، سيضحكون عليكم. نظرت إلى منى التي إنفجرت من الضحك، أما أنا فشعرت بنار في داخلي حتى أنني لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة جعلونا أضحوكة في أول يوم لنا في الجامعة، إن هذا اليوم كان يعنى لي الكثير لن أغفر لهم ذلك أبدا، وتقدمت بسرعة إلى النشاط وكانت منى

تهروّل خلفي وهى تحاول تهدأتى قائلة: خلى روحك رياضية، هذه الأشياء تحدث كل عام إنها من عادات الطلبة في الجامعة. عندما وصلت النشاط وجدت تجمعا من الطلبة حول احدى جرائد الحائط، وتخطيتهم ووجدت صورنا معلقة مع أسمائنا وأسماء كليتنا، حتى الصور التي التقطت لنا في حفل العشاء، إنها سامية، إنها معهم كانت تمثل علينا كل هذا الوقت ومتى إستطاعت تحميض هذا الفيلم، لقد تركناها بعد العاشرة مساءا، ورأيت صورة لي وتحتها تعليق: أبناء الأقاليم لهم عذرهم ولكن بنت الرياض ما عذرها. ولم أشعر الا ويدي تمتد وتنزع الجريدة ومزقتها في ثواني، سأريكم ماذا تفعل بنت الرياض هذا ما أضمرته في نفسي، ونظرت حولي كان الجميع يراقبني ورأيت سامية واقفة فهمّمت أن أصفعها ولكن منى أمسكت بي، وقلت متوعدة: هذا الموضوع من إختصاص الشرطة إنها عملية نصب واضحة. وعدت مسرعة من حيث أتيت، كانت منى تتبعني ثم أمسكت بيدي قبل أن أصل إلى بوابة الجامعة وقالت: قولي بسم الله، لنجلس قليلا. ورأيت الطالب الذي حذرنا فأشرت إليه أن يقترب، وما أن أتى قلت: نريد أن نبلغ الشرطة، هل أنت معنا. رد قائلا: هذا ما فكرت فيه ولكن.. ، ثم صمت، إستغلت منى الصمت وقالت: دعونا نجلس في كلية القانون ثم نفكر. كنت أعلم أن منى لا تريد أن تصعد الموضوع، ولكني أذعنت إلى رغبتها، وجلسنا وقال الطالب: أولا إسمي هشام الشيخ مقبول بكلية الإقتصاد، والحقيقة أن إبلاغ الشرطة سيكون له رد فعل سيء من باقي الطلبة، تعلمون إن هذه المقالب تحدث كل عام، إن ما يهمني في الموضوع أن يعيدوا لنا نقودنا، فأنا من قرية صغيرة في الجزيرة بالقرب من مدينة الكاملين، وأبى مزارع والعشرون جنيها ليست بالشيء السهل بالنسبة لنا. أعجبتني صراحته فقلت: إننى أريد أن أبلغ الشرطة لإذلالهم كما فعلوا معنا، ولا يهمني رأى الطلبة.

قالت منى: سأذهب لأحضر لكم عصير ليمون يهدىء من أعصابكم. وذهبت بسرعة وكنت أعلم أنها كانت تتعمد إضاعة الوقت، قال هشام: على العموم يجب أن نكمل إجراءات التسجيل ثم بعد ذلك نقرر وسألني عن أهلي فأخبرته بأن والدي لديه شركة مقاولات وأن لي أخ وحيد في المرحلة الثانوية، ضحك وقال أن له سبع أخوان ثلاثة أولاد وأربع بنات وهو أكبرهم، وأحسست بأن هشام سيكون أول زميل لي في الجامعة خصوصا وأنه مقبول معي في إقتصاد، كما أن هذه المشكلة ستضعنا في معسكر واحد، وأتت منى بعد أكثر من نصف ساعة تحمل كوبين من العصير وقالت :يجب أن أسكن اليوم يا عزة وأنت تعرفين ذلك جيدا، ويمكنك أن تفعلى ما تريدين بعد ذلك. كانت منى حاسمة وهى تقول ذلك، وأيدها هشام وقضينا اليوم بأكمله في استخراج البطاقة والفحص الطبي، وإستطاعت منى أن تحصل على سكن مع سامية، رغم إعتراضي على سامية، وطالبة أخرى مقبولة في كلية القانون مثل منى، عندما حضر والدي عرفته على هشام زميلي في الكلية، وأخبرته منى بما حدث، وبأني أنوى الذهاب إلى الشرطة، ولم يعلق والدي، استأذنت منى بعد ذلك لإحضار حاجياتها من بحرى، وقلت لهشام مودعة أعتمد عليك في جدول المحاضرات، رد قائلا: أول أسبوع ليس منتظما، ركبت السيارة مع أبى وسألته عن رأيه فقال مبتسما: الرأي رأيك، أنت الآن بنت جامعية ويجب أن تتأقلمي مع مجتمعك، وتحلى مشاكلك، ولا تنسى إن إبلاغ الشرطة سيثير عليك زملائك.

في اليوم التالي لم أذهب إلى الجامعة كنت أحس بالهزيمة، فمنى وهشام ووالدي تقبلوا الموضوع بهدوء، وكانوا على حق لا يمكن إبلاغ الشرطة في أمر كهذا، ولكن كانت هنالك مرارة في حلقي، وفى المساء كنت جالسة على مكتبي في غرفتي أرتب دفاتر الجامعة الجديدة، عندما أتت منى كان يبدو عليها التعب والفرح في نفس الوقت وقالت: يمكن أن أبيت مع الجميل الغاضب. وألقت

شنطة صغيرة كانت تحملها على الأرض وإرتمت على السرير المجاور لسريري، قلت لها: يبدو أن زميلتك السمينة لم تترك لك مكانا تنامين فيه ضحكت منى وقالت: أتعرفين ما يعجبني أكثر شيء في شخصيتك، إنك أكثر الناس وضوحاً.

قلت: ماذا تعنين.

قالت: يعنى أنني أستطيع أن أعرف من تكرهين ومن تحبين من جلسة واحدة معك، بعكسي أنا، فأنا أجامل كثيرا وأتمنى أن تكون لي جرأتك في بعض المواقف.

قلت: تقصدين ياسر!

ردت: لو رأيت عمى وزوجته خالة فاطمة وهم يرونني أخذ شنطتى من بيتهم، كانا ينظرون إلى كأنني أقتل إبنهم، تعرفين لو كنت أنت مكاني لحسمت هذا الأمر مبكراً.

قلت: مطرب الحي لا يطرب أهله، لو لم يكن ياسر ابن عمك لوافقت عليه وما يحزنني أنه يتعلق بك يوما بعد يوم وصدك له يعتبره دلع بنات وعقوبة على ما كان يفعله بك عندما كنا صغارا. قالت: قد تكونين محقة، ولكنني دائما أحلم بمن أقترن به قادما من مجتمع آخر يلفه الغموض ومع الأيام يزول الغموض شيئاً فشيئا قد يكون ما ستعرفينه عنه لاحقاً ليس جميلاً ولكن يكون هنالك عنصر التشويق والفضول وهذا هو المهم، أما مع ياسر فأنني أبقى معه منذ ولادتي إلى مماتي وهذا هو الملل، فأنا أعرف ما سيقوله قبل أن يقوله هو، أحفظ شخصيته عن ظهر قلب.

قلت: انك تعيشين في الخيال، يجب أن تحكمى على الرجل من صفاته ومواقفه مثل الكرم، الشجاعة، تحمل المسؤولية وهذه صفات موجودة في إبن عمك.

ردت بعصبية: أنت موكلة للدفاع عنه، حسب الشرع يجب أن يكون هنالك قبول، وهذا ليس موجودا تجاهه. قلت لها: وهل أنت متيقنة إنك ستجدين شخصا يحظى

بهذا القبول السامي قبل أن تصلى سن الستين. ردت بصوت خافت: أجل، عندما ترينه لا تعرفين ماذا حدث لك، وعندما تستمعين إليه لا تحبين أن تتحدثي وعندما ينظر إليك ترتجفين، لماذا هو فقط الذي تحن له روحك، لا تدرى، شيء إلهي لا يعرف كنهه بشر، كأنما شيء مسطور من قبل أن نولد، وكأنما ما كنت تفعلينه في حياتك من أجله هو، وما ستفعلينه من أجله هو، وتشعرين قبل لقاءه لم تكن حياة، وبدونه لا حياة...

قاطعت حديثها: أنت تتحدثين عن شخص بعينه أم..

قاطعتني بدورها: طارق منذ أن دخل القاعة لم أري غيره أتذكرين عندما إقترب منا وقال: أنت تملك الإختيار أنت تملك الزمن، قلت له في سري أنت الإختيار وأنت الزمن ولا زمن إلا معك. قفزت من كرسي مكتبي كمن لدغتني عقرب.

وقلت لها: أنت تريدين أن تقتليني غيظا، تسكنين مع سامية قلت لا بأس إن منى تريد أن ترحل بسرعة من بيت عمها، ثم الآن تقولين أن الشخص الذي أضحك الجامعة علينا هو الذي يعجبك. لم تهتم منى بثورتي وقالت كأنما لم تسمعني: أتعلمين عندما كنت معك هنا أول أمس كان يحيرني فرق السن بيننا، وعندما سمعت هشام يقول لنا أن طارق في سنة رابعة هندسة زغرد قلبي يا عزة، والسؤال الذي يخيفني هل يبادلني نفس الشعور؟ أم أكون مثل ياسر، كان حديثها يقتلني ولكني تمالكت نفسي وجلست وتعجبت أن تكون اللحظة التي شعرت فيها بالنار داخلي، تكون أسعد اللحظات بالنسبة إلى منى ثم نظرت إليها وهي مستلقية في السرير على ظهرها وقلت لها وأنا أحاول جاهدة أن أنزع ما بداخلها: لنفترض إنك أعجبت به، ذلك يعنى إنك معجبة بالدكتور، بالشخصية التي جسدها لك، وليس بشخصية الطالب اللص، إنهم مجموعة نصابين.

إبتسمت منى وقالت: لا أعتقد يا عزة، كل شيء كان مزيفا إلا حديثه كان به قدر من الإيمان كان يحاول جاهدا إيصال شيء لنا ألم ترى كيف صفق الطلبة له، ألم ترى نظرته وقتها كان كمن أوصل الأمانة إلى أهلها.

رددت بسرعة: كانت نظرة صياد أجهز على ضحاياه.

ردت منى: والدليل على ذلك إنهم سافروا إلى غرب السودان لتوصيل معونة للمتضررين من الجفاف كما أخبرتني سامية مما يعنى أنه مؤمن بما قاله لنا في المحاضرة، ألم يقل يجب أن نجعل المكان أجمل، سرت بسرعة إلى السرير المجاور لها وقد أحسست بأن لا فائدة من الجدال معها.

وقلت: نامي أحسن لك.

ردت منى بابتسامة: ولكني لم أتعشى.

قلت: لا يتعشى عندنا الخونة، أذهبي إليه سيعشيك على حسابك هذا النصاب، وفجاءة دخلت والدتي تحمل صينية العشاء وضحكت منى حتى لم تستطع أن تتحكم في أنفاسها نظرت إليها رغم كل شيء كنت سعيدة أن أراها بكل هذا الفرح.

كانت الدراسة في الأسبوع الأول غير منتظمة ولكن في الأسبوع الثاني بدأت في الإنتظام ورغم أنني لست ممن يهتمون بالتفوق إلا أنني بدأت أهتم بالدراسة كثيرا، ولم أعد أرى منى كثيرا، بالإضافة إلى أنني كل ما زرتها في كلية القانون كانت بصحبة سامية والتي حاولت أن تتودد إلى إكراما لمنى ولكنني قابلت محاولاتها بجفاء ولم تحاول منى الضغط عليّ لتحسين العلاقة، وأصبحت منى عندما يكون لديها وقت تأتى لزيارتي في كلية الإقتصاد ولكن في نهاية الأسبوع الثاني وكان يوم الأربعاء علي ما أذكر حوالي الساعة العاشرة والنصف عندما كنت عائدة من المكتبة إلى كلية الإقتصاد وكان معي هشام سمعت صوت منى يناديني إلتفت ووجدتها جالسة على النجيل على بعد مائة متر تقريبا من الممر الذي نسير فيه وكانت جالسة معها سامية وطالبة أخرى وعندما إقتربنا منهم ألقينا

عليهم السلام وتعمدت أن لا يكون باليد قالت منى: أولا أريد أن أعرفك على فدوى زميلتي في السكن والدراسة أومأت إليها برأسي مرحبة، كانت فدوي نحيفة وطويلة وتبدو من النوع الهادىء وأحسست بأنها ستكون مقربة من منى كثيرا، وأكملت منى: ثانيا أريد أن أذهب معك اليوم إلى البيت، إبتسمت وقلت: لماذا هذا الرضا السامي، ردت منى: لا أستطيع أن أراك خلال الدراسة فالأفضل الذهاب إلى البيت، كنت أعلم بأن منى تحاول أن توفق بين علاقاتها الجديدة والقديمة وعندما شعرت بأننا لم نتقابل كثيرا خلال هذا الأسبوع، أرادت أن تقوم بنوع من التعويض عن ذلك، وشعرت بالضيق من ذلك ورأيت سامية تلوّح بيدها إلى أحد ما خلفنا وهي تقول أنظروا لقد عادوا من رحلتهم، إلتفت الجميع حيث تنظر، رأينا ثلاثة طلبة قادمون نحونا.

وسألت فدوى ببراءة: من هم؟.

ردت سامية بحماس وهى تحاول الوقوف: طارق وعباس وجيمس كانوا في رحلة تطوعية إلى نيالا لمساعدة المتأثرين بالجفاف، عندما إقتربوا كان واضحا الفرق بين الأدوار التي مثلوها أمامنا وبين الحقيقة كانوا جميعا يرتدون الجينز وقمصان بيضاء ما عدا عباس كان يلبس قميص أزرق ويحملون حقائب صغيرة على أكتافهم وكان واضحا أنهم يتقدمون علينا في السن ببضع سنوات وما أن سلموا حتى إرتموا على الأرض كان يبدو عليهم الإرهاق الشديد، بدأت سامية تعرفنا على بعض بحكم إنها الوحيدة التي تعرف الجميع ثم قال طارق موجها حديثه إلى سامية نكاد نموت من الجوع لم نأكل شيئا من أمس. قالت سامية وهى تمشى ناحية الكافتيريا: حالاً أحسن فطور يكون عندكم. كان واضحا أن طارق هو قائد هذه المجموعة وبعد أن ذهبت سامية لم يجد أحد شيئا يقوله ولكن طارق إستلم دفة الحديث: أنتم من الطلبة الجدد أليس كذلك، نظر إلى منى وفدوي الجالستين قبالة ثم رفع رأسه ونظر إليّ وهشام.

قال هشام بحدة: واضح أنكم فخورين بما فعلتم.

قال عباس ولأول مرة أراه مبتسما: يجب أن تتقبل الأمر ببساطة كلنا تعرضنا لمقالب عند أول يوم لنا في الجامعة.

وسألت فدوى : ماذا فعلوا بكم؟.

رد عباس وهو ينظر إلى طارق ضاحكاً: عندما ذهبنا إلى السكن الداخلي أعطانا الطلبة القدامى أحسن غرفة لي أنا وطارق، وقالوا لنا يجب أن تخرجوا الأثاث القديم لأن صاحبه تخرج السنة الماضية وسيأتي ليأخذه وأخرجنا الأثاث القديم وإشترينا بكل ما نملك أثاثا جديدا، وبعد ثلاثة أيام جاء صاحب الغرفة وكان هو الحارس على السكن وكان في إجازة في مدينة حلفا في الشمال، وعندما وصل الخرطوم بالقطار بعد الثانية صباحا، أتى إلى غرفته مباشرة وعندما وجد أثاثه ملقى في الخارج، وكنا أنا وطارق نائمين ولم نصحو إلا وهو ينهال بعصاه علينا، وتجمهر الطلبة في لحظات وأمسكوا به لكن طارق أصيب بشرخ في يده وذهبنا به إلى المستشفى ولم أصب إلا ببعض الكدمات.

قالت فدوى: إن هذه المقالب قد تؤدى إلى مشاكل لا يحمد عقباها.

رد هشام: إنه تقليد سخيف وغير مسئول. هم عباس أن يدافع فقد أحس بأن هشام يقصد أن يسيء إليهم ولكني عاجلته بقولي: إنها تصرفات لا تليق بطلبة في ثالثة جامعة.

نظر عباس إليّ في غضب وقال: إنها تقاليد الطلبة في الجامعة ثم نظر إلى طارق مستنجدا به، ولكن طارق كان ينظر إلى منى التي كانت تنظر إلى الأرض في حياء، وكان حضور سامية وهى تحمل الفطور يساعدها صبى من الكافتيريا أنهى الحديث، فما كان منى إلا أن إستأذنت وقد أحسست أن منى أصبحت تبعد منى أكثر مع هذه الشلة، وإبتعدت أنا وهشام، وعباس يرمقنا بغضب، وأحسست أن طارق لم يشارك في هذا الجدل ليس لأنه منشغلا بمنى فقط، ولكنه لا يريد

الإصطدام بي، وقد إرتاحت نفسي لهذا التفسير لأن شيئا داخلي يريد منى أن أرد الصاع صاعين، ولكن كيف!، هذا هو السؤال!.

كنت قد وصلت إلى الطرف الآخر من الهايد بارك، وقررت أن أعود إلى منزل عمى بتاكسي بدلا من مترو الأنفاق احتفالا بمناسبة النجاح رغم غلاء أسعار التاكسي في لندن خصوصا وإن شقة عمى في منطقة ويمبلدون البعيدة عن وسط لندن، وما أن وصلت حتى وجدت عمى وزوجته نوال يباركان لي النجاح، وسألتهم: من أخبركم بنجاحي، ردت نوال: إتصلت زميلتك ميسون لتبارك لك وقالت إنها ستأتي في المساء وسألني عمى: هل إتصلت بأبيك في السودان؟. قلت له: لا. أريد أن أفاجئهم وأذهب إلي الخرطوم مباشرة، ضحك عمى وقال: لن تتركي هذه المقالب حتى وأنت دكتورة، على العموم من حديثي معه بالهاتف الأسبوع الماضي قلت له إنك لن تنتهي قبل شهر حتى تقضى معنا وقت أطول، ولكن يبدو إنك لن تعطينا أكثر من يوم أو يومين بالكثير.

قلت له: هل تصدق إننى أكملت عشرة أعوام بدون أن أرى السودان منذ عام ثلاثة وثمانين.

رد عمى: ولكن إذا كانت أسرتك تأتى إليك كل عامين فما الداعي إلى ذهابك.

قلت: فرصتي الوحيدة للذهاب كانت في عام ثمانية وثمانين ولكن أبى منعني من الحضور وذلك للفيضانات والسيول التي غمرت الخرطوم، ولكنى مشتاقة للسودان بحيث أنني أحس بأنى سأقبل أرض المطار عند وصولي.

رد عمى: ستفاجئين بما أصبح علية الوضع هنالك.

قلت له: لا أعتقد أنه سيكون أسوأ من نظام مايو، الذي إستلم السودان عام تسعة وستين وكان السودان من أغنى الدول في أفريقيا وليس عليه دين خارجي، وسلمها عام خمسة وثمانين وهى مدينة بالمليارات، مع العلم بأنه لم يكن هنالك حرب في الجنوب لينفق عليها.

قال عمى: ولكن ما سترينه سيجعلك تحبين تلك الأيام، قاطعت نوال حديثنا فهي لا تحب مشاجراتنا السياسية. قائلة: ولكنك سوف تعودين للعمل هنا، أليس كذلك، لا يمكن أن تتركينا خصوصا أن البنات متعلقين بك كثيراً. قلت: لم أقرر بعد مسألة العمل ولكن يمكنك أن تعطيني البنات ليذهبن معي. ضحكت مع نوال وعمى، ولكن كان هنالك شيء من الحزن يحيط بنا، كانت نوال أكبر منى بتسعة سنوات ولكن منذ قدومي إلى لندن أصبحنا أكثر من الأخوات خصوصا أيام الجامعة حيث كنت أسكن في السكن الجامعي، كانت تنتظرني أيام السبت والأحد فنذهب للحدائق للنزهة أو التسوق برفقة بناتها سلوى التي بلغت الخامسة عشر ونجوى أصغر من أختها بسنتين، ولكن السبب الرئيسي كانت مشاكلها مع عمى بسبب إدمانه الكحول، حيث كان يأتي بأصحابه في عطلة نهاية الأسبوع إلى المنزل ويسكرون حتى الصباح، وقد إشتكته إلى أبى كثيرا، ونتيجة لهذه المشكلة، أصر أبى عندما أتيت أن أسكن في الجامعة وعندما رفض عمى ذلك وأصر أن أسكن معه، قال له أبى: عندما تصبح رجلا يعتمد عليك سأتركها عندك. وقد أثر هذا الكلام على عمى صلاح، ومنذ ذلك اليوم أصبح يتحاشى أن أراه مخمورا، وأصبحت أقضى معهم عطلة نهاية الأسبوع، وقد كانت نوال تصر أن أحضر يوم الجمعة وأذهب صباح الاثنين وبذلك أصبح لا مكان لشلته في البيت، فكان يقابلهم في الخارج، وعندما يأتي و ينام مباشرة حتى لا أراه مخمورا، والآن لا أعلم ماذا سيحدث لها بعد ذهابي إلى السودان.. دخلت غرفة البنات لأهرب من نوال فقد أحسست بأننا سنبدأ بالبكاء، وإرتميت على السرير، وبدأت أنظر إلى الغرفة نظرة وداع، كان بها ثلاثة أسرة ودولاب حائط وكان بجانب سريري أباجورة صغيرة كنت أقرأ عليها حتى لا أزعج البنات وهن نائمات عندما يكون لدي امتحان يوم الإثنين، وبدأت أحس بالسودان داخلي، الأماكن والأشخاص وبدأت أنفصل عن مجتمع لندن وقررت أن أسافر يوم الأربعاء حتى يكون أبى متفرغا يوم الخميس

والجمعة، ونظرت إلى السقف، ورجعت بذاكرتي إلى السودان ثانية، حيث إندمجت كل واحده منا في دراستها وشلتها، وكانت شلة منى مكونة من طارق وسامية وعباس وجيمس وفدوي ثم بدأت أري معهم عماد وهو بالسنة النهائية بكليتنا الإقتصاد، كنت كل ما أذهب إلى كلية القانون، يكون بعضا منهم جالسا هنالك، وكان أقلهم ظهورا جيمس حيث علمت أنه يعمل في كافتيريا يملكها طارق، ثم علمت من منى أن طارق له نفوذ مالي داخل الجامعة، فبعض ماكينات التصوير في الكليات تعود ملكيتها إليه، كما أن عباس ذكر أنه كثيرا ما يستلف من طارق نقودا لأن أهله يسكنون مدينة الفاشر وكثيرا ما تتأخر مصروفاته التي يرسلونها إليه، وهذا ما فسر لي سطوة طارق على هذه الشلة، أما نحن في اقتصاد فقد اقتصرت شلتنا على هشام وأنا وأديبة وهى زميلتنا في نفس الكلية، ثم بدأ ينضم إلينا في بعض الأوقات فيصل كسلا حيث تربطه علاقة قرابة بأديبة، ثم كان الحدث الأكبر حفل استقبال الطلبة الحقيقي هذه المرة وكان يوم الخميس، وكان بنفس المكان باتحاد الطلبة وكان الطلبة بالآلاف، وقد كانت شلتنا تجلس في المقدمة ثم بعد تقديم الطلبة لبعض الأناشيد الوطنية، تم تقديم فيصل كسلا، الذي كان يجلس معنا وبدأ يحي الجمهور حيث إكتشفت لأول مرة أنه يتمتع بشعبية جارفة داخل الجامعة ثم اعتلى المسرح وهو يبتسم، إلتفت إلى أديبة وقلت لها: يبدو أن قريبك له شعبية كاسحة، وكان الطلبة يهتفون: ضد العسكر.. ضد العسكر. فالتفتت إلىّ أديبة وقالت: هذه القصيدة أدخلته السجن لأكثر من عامين، وقد أفرج عنه هذا العام. ولكن فيصل بدأ بنشد في قصيدة وطنية ثم تبعها بقصيدة غزل ونزل من المسرح وسط تصفيق الجمهور ثم جلس معنا فقالت أديبة: لماذا لم تنشد طلب الجمهور ضد العسكر، ضحك فيصل ولم يعلق، ولمحت في عينيه نظرة حزن، فأضافت أديبة: إنه يريد أن يتخرج هذا العام، فجأة ظهرت منى وبعد السلام قالت: كنت أبحث عنك طوال الحفل، نحن جالسون في الخلف. قلت لها:

أجلسي معنا، ولكنها قالت هامسة في أذني: طارق ينتظرني. وأريدك أن تأتى معي، ياسر سيحضر، قلت لها هامسة أيضا: لا أستطيع أن أترك شلتي وأذهب يجب أن تعالجي مشاكلك لوحدك، نظرت إلى بغضب وذهبت، وقلت لفيصل: لماذا لا تجمع قصائدك في ديوان.

رد فيصل: المفروض كثير، ولكني أريد أن أركز على إكمال الكلية هذا العام.

قال هشام: أن دراسة الأدب أعتقد إنها ممتعة جدا.

رد فيصل: ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع. بعد ذلك قامت فرقة بالغناء من الفلكلور الشعبى وكان الوقت قد قارب العاشرة، عندما قالت أديبة: يجب أن أعود تعرفون أن في الداخلية لا يرحموننا في التأخير، وبدأنا في التحرك كنت أسير في المقدمة وكان خلفي فيصل وهشام ثم أديبة، وتعمدت أن أسبقهم وأنا أشق جموع الحضور، كنت أريد أن أعرف ماذا حدث لمنى، لم أعرف مكانها ولكني رأيت إزدحاماً أمام بوابة دار الإتحاد وعندما إقتربت وجدت الطلبة يتحدثون عن مشاجرة حادثة في الخارج، فجريت إلى الخارج وصدقت توقعاتي فقد كان الطلبة يمسكون بياسر الذي يبدو أنه أوسع طارق ضربا بحيث أن الدماء كانت تسيل منه ولم يكن قادرا على النهوض، بينما كان هنالك مجموعة يمسكون بعباس الذي كان يريد مواصلة القتال بينما الدماء تسيل من عينه، كان ياسر مفتول العضلات، وكنت أعلم بأن أجادته للقتال لا شك فيها، خصوصا مع التدريب العسكري الذي تلقاه في الكلية الحربية، وكان واضحا إنه إذا أفلت من الطلبة الذين يمسكون به، سيفتك بعباس ورأيت منى وهى واقفة على بعد وهى تبكى وسامية تحاول تهدئتها، إقتربت بسرعة من ياسر وهمست في أذنه بصيغة أمره أن يتبعني، وأمسكت بيده واندهشت لإنصياعه، وأدخلته إلى سيارته، وقلت له: أن الطلبة لو علموا بأنك ضابط سيقتلونك هنا، لا يمكن أن يسمحوا لك أن تضرب زميلهم، إنتظرني في السيارة. وأشرت إلى منى أن تحضر ولكنها ظلت واقفة مكانها، فذهبت إليها

وسحبتها من يدها، كنت أعلم إنها تريد البقاء مع طارق، ولكنها لا تريد أن تقاومني أمام الناس، فجاءت معي وركبت في المقعد الخلفي، وقلت لهشام أذهب مع طارق إلى المستشفى وإتصل بنا في البيت لتطمئننا، كنت أعلم أن هذه الجملة ستجعل منى تذهب معي وتحرك ياسر بالسيارة مبتعداً، وكنا أنا ومنى ننظر إلى طارق الذي كان جالساً على الأرض مستندا على إحدى السيارات وقميصه مبلل بالدماء، وكان فيصل يساعده على النهوض بينما عباس يصرخ متوعداً ياسر بلقاء آخر، شق ياسر طريقه وهو يقود بعنف بينما منى تبكى، ولم أنطق بكلمة وعند نزولي من السيارة قلت له: أرجوك لا تحضر إلى الجامعة هذه الأيام، نظر إلىّ ولم بنطق بكلمة ولكن عيناه كانتا تنويان على شيء لم أعرفه، ولكني تأكدت عندها أن ياسر يعتبر ارتباطه بمنى مسالة حياة أو موت. كانت منى تنتظرني عند البوابة كان واضحا إنها لا تريد النظر إلى ياسر، وإنطلق ياسر مبتعدا، بدون أن ينظر إلى منى، تسللنا إلى غرفتي خلسة فقد كانت حالة منى لا تسمح بأي أسئلة، وأحضرت لها جلابية، وأدخلتها الحمام بالقوة لتأخذ دشا، ثم إستلقت على السرير وظلت صامتة، كنت أحس بأنها تتمزق بداخلها من أجل طارق ولكني للحقيقة كنت مسرورة أو بالأحري شامتة في طارق وعباس، وأحسست بأن الله عاقبهم من أجلنا، بما فعلوه بنا، وأين في نفس المكان دار الاتحاد، وشكرت في سرى ياسر لأنه أخذ لي حقى ولو إختلفت الدوافع، وهشام أيضا كنت أعلم بأنه في داخله فرحان، كان يرسم على وجهه منظر الجدية ولكني رأيت بريق عينيه، وعاهدت نفسي أن أرد الجميل لياسر، سأقف معه للنهاية، ونظرت إليها كانت خائرة القوة، كانت كالعصفور المبلول الذي لا يستطيع أن يحمى عشه من حبات المطر، وقلت لنفسي يجب أن أهاجمها وهى في هذه الحالة حتى أستطيع أن أهزمها، لأنها إذا رتبت أفكارها ستغلبني، قلت بحدة: لم أرى إنسان يحب نفسه مثلك، طبعا مبسوطة بأن الرجال يتعاركون بسببك، إنتفضت من رقدتها وجلست

في السرير ونظرت إلى مستغربة وهى تقول: ماذا تقولين. أنت بالذات تعرفين أن ما حدث آخر شيء كنت أتمنى حدوثه، وقد أتيت إليك في الحفل لأني كنت أعلم انك الوحيدة التي يمكنك أن تتعاملى مع ياسر، ألم ترى كيف ذهب معك إلى السيارة، فهو يثق في كلامك.

قلت لها مدافعة: وماذا كنت تريدين منى أن أفعل، أقول له خلى روحك رياضية حبيبة عمرك تحب هذا النصاب، متأسفين.." فوت علينا بكرة"، يا منى أنت لا تقدرين ما يشعر به ابن عمك، لو تزوجت غيره سيخرج مسدسه ويضعه في فمه، أتعتقدين بأنه مبسوط أن يأتي إلى حفل لا يعرف فيه أحد غيرك، ويضرب زملائك، انه يتألم يا منى وأنت تتمادين لدرجة أنني أصبحت أكرهك، أتعلمين إذا لم تأتى معنا اليوم وبقيت مع طارق، ماذا كان سيكون موقف ياسر وهو يري ابنة عمه، لحمه ودمه تذهب مع غريب وتتركه، هنالك أصول وقواعد لكل شيء، ولكنك تتصرفين كطفلة تريد هذه الحلوى وليذهب الجميع إلى الجحيم. كان كلامي مؤثرا عليها ظلت صامتة ودموعها تنهمر وقالت بصوت خافت: مشكلتك إنك لا تعرفين طارق.

قاطعتها سريعا: أنا لا أتحدث عن طارق فلنقل بأنه ملاك، ولكنني أعرف من تربى معي منذ الصغر، ولا أستطيع أن أقول فيه عيبا واحدا، لو لم يكن متيما بك لتزوجته على الفور. إستلقت منى على ظهرها وهى تفكر في كلامي، نظرت إلى وجهها وشعرت بتأنيب الضمير، إننى أسمم أفكارها، إنها صديقتي الوحيدة، يجب أن أتركها تختار حياتها بنفسها، إن حقدي على طارق جعلني أتصرف بغرابة، إستلقيت على السرير وأغمضت عيني وإسترجعت مشهد طارق وهو ملقى على الأرض وعباس يصيح من حلاوة الروح وهو بلا حول ولا قوة، أين العنجهية التي يمشون بها في الجامعة ولا أنكر بأنها أجمل ليلة نمتها منذ أول يوم لنا بالجامعة. إستيقظت في الفجر ورأيت منى جالسة على المصلاة وهى تقرأ القرآن، ونظرت

إلى سريرها وكان مرتبا فأدركت إنها لم تنم، وشعرت بتأنيب الضمير على ما قلته لها بالأمس، فتحت نافذة غرفتي وكان الجو جميلا وكان الظلام قد بدأ بالانسحاب نزلت إلى حديقة المنزل الصغيرة كانت مكوّنة من أربعة أشجار ظليلة ومستطيل صغير من النجيل يحفه شريط من الأزهار كنت أنا من يهتم بسقايتها وكان هنالك أربعة كراسي في منتصف النجيل، وبدأت بسقاية الزرع وعندما أكملت السقاية كانت الشمس قد بدأت تلّوح، ثم سمعت والدتي تناديني، وعندما دخلت وجدها ممسكة بسماعة التلفون وقالت: هشام، وأمسكت بالسماعة وقلت: هشام أين أنت؟. رد: أنا بالداخلية لقد جاء فيصل الآن وقال إن طارق أصيب بكسر في يده وقد قاموا بتجبيس يده، وعباس جرحه بسيط عبارة عن خدش أسفل العين.سألته: لماذا لم تذهب معهم؟.

رد ضاحكاً: عباس رفض وشتمني وقال لي المواقف تحددت اليوم. ضحكت، وسمعت ضحكته وهو يقول: يبدو أن العداء أصبح علنيا، على العموم سأراك غدا في الكلية. وما أن وضعت السماعة، حتى فوجئت بوالدتي خلفي وهى تسألني: ماذا يحدث. حاولت أن أتهرب منها ولكنها قالت: وجه منى يقول إنها كانت تبكى وأنت جالسة في الحديقة منذ الفجر وهذا هشام يتصل الآن، ماذا هنالك.

قلت لها: كانت هنالك مشاجرة في حفلة أمس بين أحد الطلبة وياسر.

قالت لي ولماذا تبكى منى حتى الصباح.

قلت: لان ياسر ضرب زميلها وأنت تعرفين ياسر عندما يغير عليها، لم تبدو إنها مقتنعة وقالت: سأحضر لكم الشاي في الغرفة. وعندما صعدت إلى غرفتي وجدت منى غارقة في النوم، وفضلت أن أتركها تنام، وبدأت أراجع بعض الدروس على مكتبي. ولم تستيقظ منى إلا عند العصر، وأخبرتها بتلفون هشام، وأصرت أن تذهب لزيارة طارق، ولكني أخبرتها إنه خرج من المستشفى ولا نعلم أين هو، وفى المساء جلسنا في الحديقة مع أبى، وجاءت أمي تحمل صينية

الشاي، فشاي وقت المغربية من المقدسات بالنسبة لأبى وجلست، وأخبرت أبى بما حدث لمنى، ونظرت إلى منى نظرة عتاب لأخبارهم هذا الأمر ولكني همست سريعا في أذنها: تلفون هشام ردت عليه الوالدة.

وقال لها أبى: يجب أن تعرفي أن أي مشكلة تواجهك أنا المسئول عنها حتى يعود أبوك إلى الخرطوم وأنا أعلم أن ياسر ابن عمك، ولكن أسلوب العساكر هذا لا يجوز أن يستعمله في الجامعة. وقبل أن ينهى حديثه صاح أخي خالد من داخل البيت مناديا منى للتلفون، نهضت منى مذعورة وقالت: من يتصل بي هنا، وركضت داخل المنزل وما هي إلا دقائق حتى جاءت باكية وقالت لأبى أن أباها يريد أن يتحدث إليك ذهب أبى مسرعا، وجلست منى تبكى وسألتها والدتي: ماذا هناك، ردت منى بصوت متحشرج: ياسر ووالده سافروا إلى عطبرة لخطبتي ووالدي وافق بدون أن يكلمني حتى في الأمر، لأول مرة شعرت أن هذا الأمر لن ينتهي على خير، وصدق حدسي ياسر لن يتنازل عن منى حتى الموت، جاء والدي وجلس بهدوء، وقال لمنى: والدك طلب منى أن تتركي السكن الداخلي وتسكني مع عمك ولكني أصررت أن تبقى مع عزة هنا على العموم هو سيأتي يوم الإثنين، وإذا كنت غير موافقة على ياسر لن يجبرك أحد ولا حتى أباك، وأنا أوعدك بذلك. كانت كلمات أبى كطوق النجاة لمنى التي ردت على الفور: أرجوك يا عمى أن تقف معي أعرف ياسر سيكون أخبر أبى بأشياء لا وجود لها، كما أن أبى لا يستطيع رفض طلب أخيه الأكبر. إبتسمت لها والدتي وقالت إطمئني لن يأتي الا الخير إنشاء الله.

في اليوم التالي رفضت منى الخروج حتى إلى الجامعة، بينما تابعت حضوري إلى الجامعة باهتمام، وقابلت هشام الذي كان منتشيا، وقلت له: عيب تشمت في زملائك.

فرد قائلا: أنا معترف بذلك، ولكن ألم تفرحي فيهم لقد رأيت ذلك في عينيك.

إبتسمت و سألته: لماذا شتمك عباس؟.

قال: كنت أحاول مساعدة فيصل على حمل طارق عندما أتى ودفعني، وإنهال على بالشتائم، ووصفك بأنك برجوازية جاهلة، وأن المواقف تحددت اليوم، وأنني تابع لك فما كان منى الا أن صفعته على وجهه وتعاركنا ونحن ساقطون على الأرض، والحمد الله أتى الطلبة وأمسكوا به لقد كان في حاله هستيرية، في لحظة كاد أن يخنقني وظننت بأني أموت لولا أن أمسكوا به، وظل يقسم بأنه سيجعلنا ندفع الثمن. قلت وقد أحسست بأن هذا الموضوع أصبح يتطور بطريقة درامية: تعرف أن منى تمت خطبتها، ولا أعتقد أن طارق سيتقبل الأمر، على العموم سنحاول أن نتفاداهم خلال الأيام التالية، رد هشام: لا علاقة لنا بهم، إن كل ما يجمعنا بهم هو منى، ولكنه كان واهما حيث رأيت سامية قادمة نحونا وقلت لهشام: دعنى أتحدث معها عليك بالصمت، وما أن ألقت علينا التحية إلتفتت إلى هشام وقالت برقة: أنا أسفة على ما بدر من عباس لقد كان في حالة غضب. أشرت إلى هشام أن يلزم الصمت وقلت: حالات الغضب تخرج ما في النفوس، أرجوك بعد اليوم لا نريد أن يكون لنا علاقة بشلتكم. غيرت من نبرتها وقالت غاضبة: لا شأن لي بكم ولكنني أسأل عن منى. قلت لها بصوت حازم: منى في منزلنا، وإذا أرادت أن تتصل بك فهي تعرف كيف تصل إليك. كان ردي حازما ومحرجا لها فلم تجد ما تقوله نظرت إلى بغضب لدرجة أن عيناها اغرورقت بالدموع وذهبت، وقال لي هشام ضاحكا: عندما تريدين اذلال شخص فانك تجيدين ذلك. قلت له: إذا كانت المواقف تحددت فليكن موقفنا هو الأعلى, وضحكنا، وقلت له: لا تفرح كثيراً، لأننا يجب أن نذهب إلى فدوى لتنقل لمنى كل المحاضرات لأن منى لا أعتقد إنها ستكون في الجامعة هذا الأسبوع، قال: مشوار إلى عرين الأسد، دعينا نذهب غدا حتى تكون النفوس قد هدأت. أكملنا حضور المحاضرات حتى الساعة الخامسة مساء، وعدت إلى البيت حيث كانت منى

تنتظرني لتسألني عن طارق فأخبرتها بما حدث مع سامية، غضبت منى وقالت بحدة: أنت الخاسرة، سامية من أظرف الشخصيات التي قابلتها ولكنك لا تريدين أن تنسى ما حدث في أول يوم، لا يمكن أن تحكمى عليهم من هذا الموقف. رددت مدافعة: لقد قالوا عنى برجوازية جاهلة ماذا تنتظرين بعد ذلك. صمتت ثم قالت سأتصل بفدوى في الداخلية. وفعلا إتفقت منى مع فدوى على الحضور إلى منزلنا حتى تمنع أي إحتكاك بيننا وشلتهم.

ثم كان يوم الإثنين المرتقب وكان الكل يتوقع حضور والد منى، وتعمدت أن أبقى في الجامعة أكثر وقت ممكن فلا أريد أن أكون طرفا في هذا الموضوع. وبعد إنتهاء المحاضرات جلست شلتنا بكاملها على النجيل وكنت أنتظر فدوى لتذهب معي إلى منى، كانت أديبة تحادث فيصل عن أهلهم بكسلا وكان هشام صامتا يكتب على ورقة مصروفاته حيث أرسل له والده نصف ما كان يجب إرساله، وذلك لضعف العائد من الزراعة وقد حاولت أن أساعده ولكنه رفض بشدة كان كل ما أشتد فقرا أشتد عزة بالنفس ولكن حساسيته إتجاه المعاملات المالية أصبحت أكثر من اللازم. وفجأة ظهرت فدوى ومعها طارق، كانت يده اليمنى تحت الجبس، وتسألت في نفسي هل أخيرا سيعتذر، أن مصلحته ووضع منى في بيتنا فرض عليه أن يتنازل من برجه العاجي، وأعجبني ذكاؤه فقد وجد أن عباس وسامية سيزيدان الوضع سوءا فأتى مع فدوى وما أن وصلا بادرتنا فدوى بالسلام وجلست على الأرض مثلنا ولكنه ظل واقفا كان ينظر إلى مباشرة، ولكني تجاهلته ونظرت بعيدا كأنني لا أراه، فقال بصوت ثابت: ماذا قلت لسامية، لقد جاءت لتعتذر منك من تصرف عباس، ولكن غرورك وجهلك جعلك تفكرين كطفلة. تفاجأت بكلامه وقد كنت أعتقد بأنه جاء ليعتذر. قام فيصل وهشام على الفور، وقال فيصل: طارق حاسب على كلامك، فرد عليه طارق بعنف: هذا ما أتوقعه منك، فمستقبلك أن تترك الشعر وتمسح أحذية الأغنياء.

صاح هشام غاضباً: لا ننتظر من نصاب مثلك غير هذا الكلام. وهم بأن يتعارك معه ولكن فيصل أمسك بهشام وأقعده على الأرض. وقامت فدوى وأمسكت بطارق محاولة إبعاده، ولكنه قاومها وقال لي: قولي لصاحبك العسكري أن بيننا ثأر لا يحله إلا الدم.

قلت ساخرة: يوم الجمعة كانت خطبته لمنى يبدو أن الشربات لم يصلك.

نظر إلى كأنه يريد أن يقرأ الكذب في عيوني، ولم يستطع الكلام وكان يأخذ نفسه بصعوبة حيث رأينا صدره يعلو ويهبط كأنه كان يركض وسحبته فدوى ومشت معه مبتعدة عدة خطوات وقالت له بعض الكلمات لم نسمعها، ونظر إلى وأحسست أن كراهية العالم جميعها في هذه النظرة ثم ذهب وعادت فدوى وقالت: يا جماعة أنا آسفة لم أكن أعرف أن العلاقات بينكم سيئة، عندما كنت قادمة إلى عزة قال إنه سيأتي معي، ولم أكن أعرف أنه ينوى الإساءة إلى أحد. إبتسم فيصل وقال: إنه يمر بظروف صعبة. كان فيصل أكبرنا سنا وحتى لو أن لطارق سببا للتهجم على فلا يمكن أن نغفر له تطاوله على فيصل، وهو الذي كان يحمله إلى المستشفى منذ يومين فقط، وكان هنالك إجماع في الشلة على رفض تصرفات طارق، وذهبنا أنا وفدوى إلى الرياض كانت الساعة قد جاوزت الخامسة مساءا، وصعدت مباشرة مع فدوى إلى غرفتي وأخبرنا أخي خالد بأن منى جالسة مع والدها ووالدي في الصالون وذهبت إليهم وسلمت على والدها، ثم سمعت والدها يقول: الخطوبة أو لا جامعة، وافقت منى على مضض، ولكنها أصرت على البقاء في الداخلية وذهب والدها رافضا إنتظار الغداء لأنه يريد العودة إلى عطبرة فورا، وإلتفت والدي لمنى وهو يقول: أرضى بهذا الوضع لأن أباك محرج من أخيه، كما يمكنك القبول بالخطوبة وبعد أن تستلمي الشهادة ولم تغيري رأيك في ياسر من حقك فسخها.

صعدنا إلى غرفتي وجلست فدوى مع منى تشرح لها ما فاتها من دروس بينما ذهبت لأساعد والدتي في عمل الغذاء.

وإستمرت العلاقة بين شلة منى وشلتنا على أسوأ ما يكون، شتائم في كل مناسبة تجمعنا، وقد حاول طارق أن يدفع منى إلى التخلص من خطبة ياسر ولكن منى أصرت أن يبقى الوضع كما هو عليه حتى تستطيع إكمال الجامعة، وأصبح طارق لا يأتي إلى كلية القانون كثيرا، وكان يظهر بصحبة جيمس من حين إلى آخر، وقبل امتحانات نهاية العام قامت شلة من الطلبة بالإعتداء على ياسر وكان معهم طارق وعباس، حيث كان ياسر ينتظر منى أمام الداخلية وأصابوه بكسر في يده ورجله ورقد على أثرها في المستشفى لأكثر من شهرين، مما جعل العلاقة بين طارق ومنى تسوء أكثر، فهي ترفض العنف مهما كانت مبرراته، ولكن طارق لم يكن لينسى ما فعله بهم ياسر، حتى أن عباس أتى إلينا في الكلية ليزف لنا خبر وجود ياسر بالمستشفى، وإنتهت السنة وجاءت النتيجة ولم أتوقعها بالمرة حيث كنت ثالثة الدفعة وكان هشام هو الأول وكان الجميع من شلتنا ناجحا، وتخرج فيصل أخيرا فى آداب، وأصبح طارق وعباس في السنة النهائية، وتخرج جيمس فى الهندسة الكترونات، ونجحت منى ولكن بدون أي تقدير، وعاد والد منى للعمل بالخرطوم، وإلتحق هشام بالعمل في الإجازة حتى يوفر ميزانية العام القادم. ومع بداية العام الدراسي حدث ما يحدث لجامعة الخرطوم في العادة تم إغلاق الجامعة لأجل غير مسمى، حيث كانت هنالك مظاهرات صاخبة في الجامعة ضد الحكومة وتم اعتقال طارق وعباس وعماد، وإستقلت منى الوضع وإتهمت ياسر بتدبير الإعتقال وقد نفى ياسر ذلك، ولكنها إستغلت أن الجامعة مغلقة وإذا منعها والدها من الجامعة فلن تفوتها المحاضرات، وجاهرت برفضها لياسر، للحقيقة إن إعتقال طارق أثر في صحتها بصورة واضحة جدا، حتى إنها إمتلكت الجرأة على الذهاب إلى ياسر في بيته وأمام

والديه، وإتهمت ياسر أمامهما بأنه أدخل زملائها السجن، فرد ياسر: زملائك أم حبيب القلب، فردت عليه: إذا كنت تعرف ذلك فلماذا تريد الزواج بي. فما كان من عمها إلا أن قال لها، إذا ثبت ذلك سأطرده من البيت. وحاولت أن تزور طارق في المعتقل ولكنها فشلت، وما يحزنها أكثر أنه عند إعتقاله كان متخاصما معها بسبب ياسر، وعندما إستمر إغلاق الجامعة، وبدأ طلبة كليتنا إجتماعات سرية يناقشون فيها كيفية التحرك للإفراج عن المعتقلين، وبدأت أحضر هذه الاجتماعات، مما أثار مخاوف والدتي، والتي أصرت على أبى أن يرسلني إلى عمى فقرر أبى أن أذهب لأكمل الدراسة في لندن لأن الوضع في السودان لا ينبىء بالإستقرار، كان هذا آخر عهدي بشلتي وبجامعة الخرطوم، وبدأت منى في مراسلتي لفترة قصيرة حيث وصلتني منها رسالة تخبرني بالإفراج عن جميع الطلبة بعد سفري بشهرين، ثم بعد ذلك أتتني رسالة بأن طارق يرسل لي السلام والاعتذار متمنيا أن يكون قلبي قد نسى ما بيننا من أحقاد، وكنت أعلم أن منى هي من ألف هذا الكلام فليس طارق من شاكلة من يعترفون بأخطائهم، ثم أخبرتني في نفس الرسالة إنها قريبا ستفسخ خطبتها وأن هنالك خبر جميل ستعلمني به لاحقا وطبعا خمنت أنه سيكون خطبتها من طارق، ثم إنقطعت رسائلها لفترة طويلة، حتى جائتنى رسالة تصف لي الإنتفاضة التي أطاحت بنظام نميرى العسكري وكان ذلك في أبريل من عام خمسة وثمانين ومازلت أذكر منى تكتب في مقدمة رسالتها:

عندما يهتف الشعب في الشوارع،
مقهور و مكسور وجائع..
ويتماسك الشيخ الكبير
بأيدي المعلمة وابن المزارع
ويثور السوق..

مشترى وسمسار وبائع
تعلمي أن الشعب مسحوق..
وأن الظلم في الخرطوم شائع
وأن بعد الدم
زمن الحرية.. بالقوة عائد

كان هذا آخر ما وصلني من منى، ولم أكن حريصة على المراسلة لأنني كنت أنوى الذهاب إلى السودان في إجازة كل عام ولكن ظروف الدراسة كانت تعاندني، وعندما أتت امى آخر مرة مع خالد أخي في إجازة إلى لندن في الأيام التي كانت الخرطوم غارقة تحت السيول والأمطار علمت أن أسرتها عادت إلى عطبرة مرة أخرى، ولكن والدتي قابلت فدوى بالصدفة في أحد الأسواق وأخبرتها بأنهم تخرجوا جميعا، وإنقطعت أخبارها بعد ذلك ولم أعرف إن كانت خطبتها من طارق قد تمت أم لا، لأنها يجب أن ترسل لي على الأقل لأبارك لها وان كان سيكون على مضض.

فتحت عيني ووجدت نفسي في غرفة بنات عمى، وأدركت أنني غفوت وأنا أنظر إلى السقف وأحسست أنني كنت متعبة من المشي في الهايد بارك ولكن الفرحة بالنجاح أعطتني نشاط زائف، وكانت الساعة تخطت السابعة مساء، ودخلت سلوى ابنة عمى وتبعتها نجوى وقالت الأولى: ماما منعتنا من الدخول حتى لا نزعجك، ثم هجمتا على وأنا راقدة في السرير وإنهالتا على بالقبلات ومباركة النجاح، وسمعت أمهم نوال الصياح، وجاءت وهى تعنفهما على أيقاظى ولكن سلوى أقسمت لها باني كنت مستيقظة ثم صمتنا جميعا برهة وحدث ما كنت أخافه.. فقد إنفجرنا جميعا بالبكاء، ولم يوقفه إلا صوت جرس الباب وبعد لحظات فتح عمى باب الغرفة وقال: صاحبتك ميسون وصلت، الحمد لله حتى توقفوا هذه

المناحة. ودخلت ميسون بابتسامتها المعهودة الغرفة وما أن رأت البنات يبكون حتى واصلت البكاء معنا، وقال عمى متهكما: حتى أنت يابروتس.

توقف البكاء لحظات كانت كافية لتعطيني ميسون ظرف صغير وقالت: هذا التلغراف وصل على عنوان الكلية يبدو أن المرسل يعتقد أن كلية الاقتصاد دراستها عشرة سنوات أو أنه لا يؤمن بذكائك، وضحكت حتى لم أستطع أن أتمالك أنفاسي، أخرجت نوال بناتها من الغرفة وتبعتهم حتى تتركنا بمفردنا، كانت ميسون خفيفة الدم يمكنها بتعليق صغير أن تحول الهم إلى فرحة، كانت ساخرة دائما، جلست على السرير وأحسست أنه من منى فهي لا تعرف عنواني بعد تخرجي من الكلية وحصولي على البكالوريوس فقد سكنت مع ميسون في مجمع أغلبه من طلبة الدراسات العليا، وفتحته سريعا كانت به جملة واحدة: زواجي الأسبوع القادم إذا كنت لا تستطيعين الحضور فاتصلي بي على هذا الرقم، وكان مسجلا رقم هاتفها، ثم الإمضاء صديقتك أبدا أبدا منى حسين، ونهضت سريعا وسجلت الرقم داخل مفكرتي خوفا من ضياع التلغراف، كيف لا هذه منى صديقة عمري وقررت أن لا أتصل بها بل سأفاجأها في ليلة عرسها حتى لو كان العريس طارق سأحضر هذا اليوم يا منى، وضممت الظرف إلى صدري، وشعرت بأن هنالك خيوط من القدر تجمعنا في هذا التوقيت، وإستغربت أن يكون أول يوم جامعي لي ألتقي منى وأصطدم بطارق وآخر يوم لي في السلم التعليمي يكون خبر زواجهما. ونزلت دمعه على خدي وأنا أتذكر منى، ثم سمعت ميسون تقول: نحن هنا، خلاص وصلت السودان، قلت لها نافية: أنا معك. قالت: أنت وصلت الخرطوم بالأمارة أكلتى صحن الفول دفعة واحدة. ضحكنا معا. ثم قلت لها: سأفتقدك بشدة قالت: بلا كلام فارغ، أبحثي لي عن عريس وسأترك الماجستير فوراً وستجديني في أول طائرة. قلت أكتبى لي المواصفات لفارس الأحلام، قالت: أولاً أن يكون رجلا، ثانياً صمتت برهة ثم قالت: بس لا يوجد ثانيا لأن كل ما

تكثر الشروط يقل المطلوب، وضحكنا، وأخذت أفكر كنت أحلم بيوم العودة منذ أن جئت إلى بلد الضباب والآن أصبح فراق لندن شيء مؤلم وأخذت أفكر في أساتذتي مستر فرانك ودكتور شامبرلين المشرف على رسالتي وصديقاتي وزميلاتي في الدراسة ليزا الإنجليزية ومانويلا الإيطالية وقررت أن أسافر في أسرع وقت فلا أحب لحظات الوداع.

عندما كانت الطائرة تحلق قي سماء الخرطوم ليلا لم يكن هنالك الكثير من الأضواء وإعتقدت أن الكهرباء مقطوعة لسبب ما، ولكنني كنت واهمة فمنذ أن وطأت قدماي المطار وأنا في حالة إندهاش لم يكن ذلك بسبب الخدمات السيئة في المطار فقط، ولكن في البشر أنفسهم كان السودانيون عبارة عن وجوه تعلوها علامات البؤس والشقاء، والضعف السمة الغالبة، إن عمى كان على حق، إن الحرب في الجنوب أتت على الأخضر واليابس، بعد أكثر من ثلاث ساعات، إستطعت أن أخرج حقائبي من المطار، إستقليت تاكسي إلى البيت مباشرة كانت الساعة تجاوزت العاشرة مساءا، سألت السائق عن أوضاع البلد رد بحزن: الحمد لله، في العام الماضي اجتاح الجيش السوداني معاقل المتمردين في عملية ضخمة اسماها صيف العبور، قلت له يعنى إنتهت الحرب، قال ضاحكا: يا بنتي الحروب الأهلية لا تنتهي بالسيف. كان السائق فوق الستين من العمر، كان شعره أبيض وكان يقرب وجهه من زجاج السيارة الأمامى لكي يري بوضوح مع أنه يلبس نظارة طبية، قلت له: عندما كنت هنا لم يكن في مثل عمرك يعمل ليلا، رد بهدوء: كنت موظف في وزارة المالية لكن المعاش بعد غلاء الأسعار لا يساوي شيئاً. ثم سكت كمن لا يريد الحديث، كان يقود التاكسي بهدوء شديد خوفا عليه من المطبات فقد كان موديل السيارة من أيام السبعينات. تخطينا نقاط تفتيش عديدة فقد كانت الحواجز العسكرية في كل مكان، وأنزل معي حقائبي بالقرب من باب المنزل، وقال: الحمد لله على السلامة، هل تحبي أن أنتظر فقد لا يكون أحد

بالمنزل، قلت له لاداعى كل الحى يعرفني. حاسبته بالدولار ومن إبتسامته علمت إننى أعطيته أكثر مما كان يتوقع، ركب سيارته وظللت أراقبه وهو يقود مبتعدا، وأخذت أتأمل في شارعنا، بيوت جيراننا كان كل شي كما هو ولكن أقدم ولكن ليس بعشرة أعوام بل أكثر كأنما البيوت شاخت هي الأخرى، وكان الشارع خاليا مع أنه كان في مثل هذا الوقت منذ عشرة أعوام يعج بالحياة والمارة ونظرت إلى الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف، قرعت جرس الباب، أكثر من أربع سنوات كانت آخر مرة أرى فيها والدتي وخالد وأكثر من ست سنوات عندما جاء أبى إلى لندن لمدة أسبوع، وإنتظرت طويلاً ثم سمعت خطوات أبى وفتح الباب وهو يلبس نظارته في نفس الوقت، نظر إلى وهو مذهول ولكن دمعته خانت الجدية التي يرسمها لنا طوال حياته، وكان جسمه نحيلا كأنما كان مريضاً لفترة طويلة لأول مرة أراه شيخا وليس شابا، لم أستطع أن أتكلم، فارتميت في أحضانه، كانت أول مرة يحضنني فيها أبى منذ أن كنت طفلة، الحقيقة أنه لم يحضنني ولكنني إنتزعت حضنه إنتزاعا مستغلة غربتي الطويلة، وشعرت بحسمه النحيل يرتعش من البكاء، وسألت نفسي هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء، غربة سرقتني يوماً بعد يوم ذهبت إلى لندن للبكالوريوس ولكن الحياة طمعتني في الدكتوراة، ثم تمالك أبى نفسه، كأن إبداء المشاعر عيب مسح دموعه وشعر بالخجل منى فأخذ يصيح لوالدتي وخالد، ودخل سريعا قبلي كنت أعلم أنه يخاف عليها من المفاجأة فأراد أن يخبرها أولا أتى خالد يجرى وسلم على سريعا متهربا من إفلات المشاعر كأبيه وأشغل نفسه بإدخال الحقائب، كنت أنظر إليه غير مصدقة سيتخرج من الهندسة المدنية هذا العام ولكن والدتي أطلقت العنان لحنجرتها من داخل البيت بالزغاريد وما أن رأيتها كانت تجرى باتجاهي وحاولت أن أوقفها فسقطنا معا عل النجيل وكانت تبكى وهى تحضنني حتى إننى خفت عليها، وأحسست بأني كان يجب

إخبارها مسبقا بعودتي، وما هي إلا لحظات كان الجيران معنا مستفسرين عن سبب الزغاريد.

قضيت يوم الخميس كله أجب على أسئلة والدتي بدأت بالدكتوراة، وإنتهت بالسؤال عن صديقاتي ليزا ومانويلا فقد كانتا توصيان والدتي أن تحضر لهم ثمار المانقو، وكانت تأتى محملة بكرتونة لهم فيهدونها العطور الفاخرة لأنهم كانوا يرون أنه من الغريب أن يأتي أحد من السودان إلى لندن بهذه الكمية، ورغم استنكارهم ذلك فقد أصرت والدتي أن تجعلها عادة حتى إنها عندما لا تأتى أصبحت ترسلها مع من يصادف حضوره من المعارف إلى لندن وكانت تقول: بنات الخواجات مسكينات لا أحد يهتم بهن. وسألت والدتي عن منى وقالت إنها كانت تزورنا ثم بعد أن ألغت خطبتها من ابن عمها وإنتقل أهلها إلى عطبرة ثانية إنقطعت أخبارها وقد أوصتني أن أخبرها بعودتك وأعطتني رقم هاتف الداخلية، وسألتها عن ياسر قالت لي منذ فسخ الخطوبة طلب نقله إلى الجنوب، وتخيلت ياسر الوحيد الذي لم يكن يخطط لشيء إلا ومنى معه، وعندما رفضته لم يعرف ماذا يفعل بحياته، وحزنت له جدا، ثم اتصلت بمنى: كان صوتها متغيرا بعض الشيء إن السنين فعلت فعلتها مع الكل وكذبت عليها أخبرتها بأني أتصل من لندن: وباركت لها الزفاف وسألتها أين الزواج لأن والدتي تريد أن تحضر فقالت بأنه بنادي في الخرطوم وأعطتني عنوانه، وسألتها ألستم بعطبرة. قالت أن أباها سوى معاشه وبنى بيتا بالحلفاية ببحري وهو قطعة أرض تخص جدهم كان فيها نزاع ورثة ولكن بعد قسمة الورثة أصبح لهم، وهم يقيمون فيه الآن، ثم صمتت برهة وقالت: أنا افتقدك بشدة ثم سمعت صوت بكائها. أغلقت الخط بسرعة، يجب أن أذهب إليها الآن، ثم تراجعت فقد تخيلتها محاطة بشلة طارق هذه الأيام، لكن هل يفتكرون بعد هذه السنين هذه المسألة، ثم إنني لا أعرف منطقة الحلفايه جيدا، ثم إستقر قراري على الذهاب إلى العرس مباشرة وهو ليس بعيدا، كما أن

والدتي أخبرتني أن لا أخرج من البيت هذه الأيام لأن كل الأهل سيأتون للسلام والتهنئة فهم لم يروني منذ أكثر من عشرة أعوام، حاولت أن أجمع معلومات عبر التلفون عن شلتي لتحضر معي الزواج ولكن يبدو كأنني أسأل عن القرن الماضي تغيرت أرقام ورحل الكل من مكانه، كان يمكن أن أسأل منى ولكنها ستشك في أمر وجودي في السودان، وقررت أن أخذ خالد ووالدتي معي الى العرس.وأدركت لماذا تصر الوالدة على بقائي بالبيت حيث كانت تجهز لي عرسان من أهلها.

كان النادي قرب المطار ليس بعيداً عنا، وعندما جلسنا على إحدى الموائد، كان قد بدأ تقديم العشاء، ولم أتعرف على أحد من الحاضرين لم يكن هنالك أحد من الجامعة، ثم جاءت والدة منى وسلمت علينا وجلست بالقرب من والدتي، ثم رأيت على بعد سامية جالسة وكانت تنظر إلى لم أعلم ماذا أفعل، وقررت أن ألوح لها بيدي وإذا ردت التحية ذهبت إليها ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً، كانت تبدو أكبر بكثير مما تخيلتها ثم جاء طفل في حوالي السابعة من العمر يتكلم معها، قد يكون ابنها، كان الجميع ينتظرون وصول العريسين، ثم بدأ الغناء، كان من يغنى يبدو معروفا لدى الحضور، حيث كان الجميع يغنون معه، وأحسست أنني كالأجنبية لا أعرف شيئا حاولت بل تمنيت أن أرى ياسر ولكن لم تقع عيني عليه بل رأيت والدته كانت جالسة في الخلف مع إحدي النساء كانت عيناها الحزينتان تنبىء عن ثقل الواجب الذي أحضرها إلى هنا، كنت أعلم أنها تنتظر منى لتبارك لها وستذهب على الفور، ثم إستأذنت والدة منى وذهبت إليها، وظللت أراقبهما، كانتا تتبادلان حديثا لم أسمعه ولكني أعلم مضمونه من كلمات مجاملة فارغة المعنى لا تمحى حزنا، ثم جاء موكب العريسين ومن وسط الزحام الذي كان يحيط بهم لمحت وجه منى كانت عروسا ما أجملها، حمدت الله الذي أحضرني هذا اليوم، ورأيت فدوى تمسك لها الطرحة، ولكن كانت المفاجأة كان شكل طارق مختلفا، لا إنه ليس طارق هذا شخص آخر، أقعدتني الصدمة، ولم أستطع أن

أنهض من الكرسي لأبارك لها، وظللت أراقبهما وهما يرقصان على أنغام الموسيقى ثم جلسا في الكوشة، وبدأ الناس ينهالون عليهما بالتهاني وظللت أراقب العريس كان وسيما يلبس بذلة رمادية تبدو غالية الثمن، وما أن خف المهنئين حتى ذهبت ووالدتي وخالد للمباركة كنت أسير خلفهم فقد أثقلت المفاجأة قدمي، وما أن سلمت منى على خالد ووالدتي حتى سألت عنى، وقال لها خالد: سلامة النظر ألا ترين الدكتور الذي يسير خلفنا، نهضت من كرسيها بصمت وهى تتفحصني من أسفل قدمي إلى أعلى رأسي، ثم ظلت صامتة تقدمت منها وحضنتها وأنا أهمس في أذنها: الحمد لله الذي أحضرني هذا اليوم، تبدين غاية في الجمال، أجلستها على الكرسي وباركت للعريس، كانت تنظر إلى صامتة، تلاقت أعيننا كانت هنالك كمية من الأسئلة في عيني وكان في عينيها حزن عميق جارف. ما أن رجعنا إلى مائدتنا، بدأ الغناء ثانية وظللت أراقب فدوى طوال الحفل متمنية أن تراني لأنها الوحيدة من تستطيع أن تفسر لي ولكنها لم تفارق منى كانت تقوم بدور الوصيفة، هذا الدور كان يجب أن يكون لي ولكني مازلت أحس بأنني غريبة لا أفهم شيئا، وأخيرا جاءت فدوى وهى تقول: لم أعرفك لولا أن منى قالت لي هذه عزة الرشيد.

سلمت عليها وأجلستها قربى سريعا، وقلت لها: أنا لا أعرف شيئا ماذا حدث؟.

قالت: في ماذا؟.

قلت لها: أليس من المفترض أن يكون العريس طارق.

نظرت إلى باستغراب: ألم تعلمي بالذي حدث!.

قلت: طارق تخلى عنها.

قالت وعيناها تدمع: طارق توفى.

شلني الخبر ونظرت إليها صامتة ثم أضافت: لم يكن هذا قبل عام أو أثنين، هذه الحادثة كانت أوآخر عام أربع وثمانين. ونظرت إلى منى على البعد، وسألتها ولكن منى لم تخبرني.

قالت: منى حدث لها إنهيار عصبي وكانت تحت العلاج لمدة سنتين لدرجة أن أباها إنتقل إلى عطبرة ليبعدها عن كل ما له علاقة بالخرطوم رغم أن بيتهم في الحلفايا كان جاهزاً، ثم بعد ذلك أكملت الجامعة فقد تخرجت بعدنا بعامين تلاقت عيني بمنى على البعد، كأنما تقول لي أين كنت، قلت لنفسي يا إلهي لقد كنت كل هذا الوقت أكره رجلاً ميتاً، وسألتها: مات قي المعتقل؟، ردت: لا.. إنتحار، أو هذا ما يقال.

قلت لها: ليس هو من ينتحر.

قالت: هذا ماظنناه جميعا، حسب رواية الشهود أشعل النار في المبنى، وإحترق داخله لقد وجدوا جثته وتعرف عليه أهله ومنى أيضاً عندما رأته في المشرحة، وهو ما سبب لها الإنهيار، نظرت إلى منى ثانية وأحسست بأني أريد أن أهرب، لا أعرف لماذا ولكني كنت أحس بالذنب، وبدأت أرى العرس كأنه مأتم كبير، أو إحتفال لقبيلة وثنية وكأن العروس ذاهبة إلى المذبح، وكأن الحضور يقيمون الطقوس لتقديم الضحية ويرقصون رقصة الشيطان حول النار، ونظرت إلى العريس الذي كان يسوق منى إلى السيارة كأنما هو من يسوق الضحية إلى مثواها الأخير، ونظرت إلى منى العروس الجميلة التي يتم ذبحها تكريماً للآلهة، أه من الغربة ما تأخذه منا لا نعرفه إلا لاحقاً.

تحت الرماد

في الأيام التالية ظللت حبيسة الغرفة، وأصبحت لا رغبة لي في معرفة أخبار الشلة، فقد أحسست أنه لن يكون هناك خبر مفرح، وأخذ أبى أوراقي للتقديم في عدة وظائف، وكانت والدتي فرحة لجلوسي في البيت حتى تعرضني في سوق الزواج لأقاربها. دخل خالد الغرفة وقال: بدري على جلوسك هنا.

قلت له مبتسمة: هل تراني أشد في شعري.

رد: هذه مرحلة لاحقة لن أدعك تصلى إليها.

قلت: ليس لديك جامعة اليوم.

قال: أنت نسيت أنني في السنة النهائية، مشروع التخرج هو أساس العمل، هيا نذهب إلى الجامعة ألا تريدين رؤيتها. أحسست به يريد شيئا منى، خرجنا وركبت السيارة وقلت له: لماذا لم يأخذ أبى السيارة.

قال لي: أبوك أصبح من النادر أن يسوق، أنا أوصله يوميا إلى الشركة وأعود به. كان يسوق السيارة بهدوء ثم ذهب إلى شارع النيل متخطيا الجامعة ثم أوقف السيارة نظرت إليه مستفسرة، قال: هنالك بعض الأشياء لم يخبروك بها وأريدك أن تعرفيها. نظرت إلى خالد كنت دائما أنظر إليه كطفل، ضحكت وقلت: ما هذا التشويق، قل ما عندك.

قال: يجب أن تعرفي أن وضعنا المادي في البيت سيء جدا، مكتب أبى لا يأتي بالكثير وأنت تعرفين والدك لا يعرف لغة السوق من عمولة ورشوة وخلافة حتى ينال عقود، بالإضافة إلى إن صحته ليست على ما يرام حيث أن قلبه ضعيف، وقد إتفقوا على إخفاء الأمر عنك، حتى إنه باع الأرض الزراعية ليكمل نفقات علاجه و دراستك. تفاجأت بكلامه ونظرت إليه لقد كبر خالد ثم أردف قائلا: أنا أحتاج إليك هذا العام حتى أتمكن من إدارة المكتب بعد التخرج ثم بعد ذلك،

يمكنك التفكير في الزواج، وأترك أبى في البيت. ضحكت حتى إستلقيت على المقعد وقلت له: من قال لك أنى أبحث عن عريس.

قال: أمى تبحث لك عن واحد، ثم إنى رأيتك في زواج منى حزينة، وتجلسين في الغرفة وحيدة دائما. قلت له: أولا أنا أملك أكثر من عشرين ألف جنيه إسترلينى، لشغلي في مراجعة الحسابات لبعض الشركات أثناء دراسة الدكتوراة وهو بدوام جزئي كما تعرف، ثانيا مسوؤلية البيت لا تهتم بها فأنا المسئولة عن ذلك ثالثا من يوم غد أنا من سأذهب مع أبى إلى المكتب رابعا أنا حزينة لأن منى توفى خطيبها ولم أعلم بذلك إلا يوم العرس، ومتى كانت تعانى من إنهيار عصبي ولم أكن أعرف عنها شيئا. نظر إلى بدهشة: معك عشرين ألف إسترلينى.

قلت له: يعنى لو أخبرتموني بالحقيقة كنت أرسلت لكم من هناك، لكن أعجبني حديثك كبرت يا خالد.

رد قائلا: السودان يشيب الصبي، ضحكنا، وعندما عدت إلى البيت وجدت فدوى في إنتظاري وقالت: منى مسافرة مع زوجها إلى دبي الليلة وتريد أن تراك. كانت فدوى تسوق سيارة قديمة، وكانت تعمل في مكتب محاماة وسألتها عن العمل قالت سيء جدا ولكن بعد أن أكمل ثلاث سنوات القادمة يصبح عندي حق التوثيق وهو يدر علينا دخلا جيدا، ووصلنا إلى حيث كانت منى تسكن شقة مفروشة مع عريسها، وقد إستقبلنا بتهذيب شديد وإستأذن منا للذهاب لوداع أهله وخرج، وأخيرا جلست مع منى وقلت لها مازحة: وأنت أليس لديك أهل تودعيهم.

ردت ضاحكة: كانوا هنا صباحا، ثم نظرنا إلى بعضنا كانت كل واحدة تحاول دراسة وجه الأخرى بعد تغييرات السنين قلت لها: لا أعرف إسم عريسك وكيف تعرفت عليه قولي الحكاية بالتفصيل الممل.

قالت: أحكى لك عشرة سنوات في ساعة، على العموم إسمه حسن عبدالله وكانت أخته متزوجة وتسكن بجوارنا في عطبرة، ويعمل مهندسا في دبي، وأتى من شهرين يبحث عن عروس ورشحوني له، ووافقت هذه كل الحكاية.

سألتها : وماذا حدث لطارق؟ .

قالت: الله يرحمه، لكل أجل كتاب. كانت لا تريد الحديث في الموضوع ولكني أصررت، وقلت: أنا تركته في المعتقل ماذا حدث بعد ذلك؟.

قالت: خرج هو وعباس وعماد، ولكنه كما قال لنا عباس تعرض لتعذيب شديد داخل السجن حتى إنه لم يعد يتحدث كثيرا ولا يأتى إلى الجامعة كثيرا ولكننا إتفقنا على الخطوبة، وذهب إلى أبى ليخطبنى ولكن والدي قال له بعد أن تتخرج منى، ولكننا لبسنا الدبل أمام أبى، ثم أصبحت لا أراه كثيرا وقد كان أغلب الوقت مع جيمس حيث أخبرني إنهما بصدد عملية تجارية ضخمة، ثم جاءنا خبر وفاته، أحسست إنها تتعمد إخفاء شيء، وسألتها: متى كانت أخر مرة رأيته فيها قالت في حفل في الجامعة قبل أسبوع من الحادث.

قلت: وطوال الأسبوع لم تريه.

قالت: كان جيمس في الجنوب حيث لديه زوجة وطفل فكان يذهب لهم كل ستة أشهر وفى هذه الأيام يكون العمل بأكمله على طارق لذلك كان يعتذر عن الحضور للجامعة، وإستمر هذا الوضع حتى أكملنا الامتحانات وكان قد تخرج هو وعباس، ثم إختفى هو وعباس وجيمس في فترة الإجازة حيث قالوا إنهم ذهبوا إلى مصر لإحضار بضائع، ولكني أعتقد إنهم كانوا معتقلين لأن صحتهم كانت سيئة جدا. كما إنه في العادة إذا سافر طارق كان لابد من وجود جيمس.

قلت لها: ما هو المبنى الذي مات فيه.

قالت: كان في المنطقة الصناعية بالخرطوم، وكان جيمس وطارق مستأجرين هذا المكان لتخزين لوازم الكافتيريا حيث كان فيه أنابيب الغاز وجوالات الفحم والبصل والبطاطس بالإضافة إلى بعض البضائع التي يتاجران فيها.

قلت: ربما كان حادث إنفجرت إحدى أنابيب الغاز لماذا يقولون إنتحار.

قالت: إثنين من الشهود شاهدوه عندما وقع الإنفجار وإشتعلت النيران، كان واقفا وسط اللهب وكانوا يصيحون فيه أن يرمى نفسه من النافذة ولكنه ظل واقفا حتى سقط.

قلت: المبنى كان من عدة طوابق؟.

ردت: كان من طابقين الإنفجار كان في الطابق الارضى وهو كان في العلوي.

قلت لها: ولكني لا أصدق أن طارق يمكن أن ينتحر.

قالت: ولا أنا ولكن الشهود ليست لهم مصلحة خصوصا عم إبراهيم كان يعمل على عربة كارو وقد كان يسكن في الفناء الملحق بالمبنى وينام في عرشة صغيرة هناك، ثم أصبح غفيرا للمكان وكان طارق يعطيه راتب شهري نظير حراسته المخازن ليلا والثاني كان عسكري الحراسة لمعرض سيارات مجاور، على العموم أتمنى أن يكون حادث.

قلت لها: أشعر بالذنب لأن علاقتي معه كانت سيئة.

قالت: لذلك تعمدت أن لا أخبرك بوفاته.

قلت: هل فعلا إعتذر منى كما ذكرت في رسالتك، إبتسمت وقالت: كنت ذاهبة إلى البريد وقابلني عند باب الجامعة مع جيمس وأخبرته بأني سأرسل لك رسالة وقلت له: هل تريد أن تشتمها، ضحك وأخرج ورقة وكتب بيت شعر وقال: إعتذري لها، وعندما تعود أريدك أن تعرفينا على بعض من جديد.

قلت: ولكنك لم ترسلي بيت الشعر قالت ضاحكة: ما محبة إلا بعد عداوة، كان بيت شعر يتغزل بك، مزقته على الفور أمامه وضحكنا حتى أن جيمس قال لي بعربية ركيكة: أنت صعب. ضحكت معها وقلت: كانت وفاته صعبة عليك.

صمتت وقالت بصوت حزين: الله يرحمه.

ودعنا منى وعريسها في المطار وطلبت من فدوى أن تبيت معي ولكنها رفضت قائلة: أنت مازلت تفتكرين إننا طلبة أنا عندي محكمة غدا. ولكنها وعدتني بأن تأتى في يوم آخر. منذ الصباح أخذت أبى وذهبنا إلى الشركة وكانت الملفات مكدسة في غرفة المحاسب، وقلت لنفسي لكي أفهم الحاصل لابد لي من شهر، وجلست مع أبى في مكتبه وعاتبته على عدم اخبارى بمرضه وعلى الضائقة المالية التي كان يعيشها وقلت له: ريد منك أن تكمل العقود التي مضيتها فقط، ولكن لن ندخل في عقد جديد، حتى أكشف الوضع المادي للشركة وهذا قد يتطلب شهرا، ضحك أبى وقال كل ما لدى عقد لتكملة فيلا صغيرة، قلت له كم يلزمك لتخليصها، قال: من الوقت أسبوع ومن حيث المال حوالي عشرة ألف دولار، لأني لو أخبرتك بالسوداني، لن تعرفي أن تحسبي شيئا، قلت له: أريدك أن تكمل هذا العقد ثم تقعد في البيت وتترك لي المكتب إلى أن أدعوك بعد شهر، قال غاضبا: تريدين أن تحيليني إلى المعاش، قلت له نافية: أريد أن أنظم العمل، وصدقني أنا أعرف أن صحتك لا تتحسن إلا بالعمل، ولكني أريد أن أدخل كمبيوتر في الحسابات فقط وأعمل نظام للتسويق سيقوم به خالد. رضخ أبى للأمر الواقع وكان سعيدا وهو يرى طفلته المدللة بقربه، وأصبحت أذهب صباحا إلى المكتب وأجلس مع المحاسب والسكرتيرة إلى المساء، ثم غيرت من ديكور المكاتب، وكان هنالك فناء صغير أمام الشركة قمت بزراعته فأصبحت كما الشركات الأوربية، وكنت أحتاج إلى من يراقب الحسابات، ويتعامل بالكمبيوتر لأن المحاسب تخطى الستين وقد رفض والدي التخلي عنه، وأصبح

خالد ملما بشؤون التسويق من إعلان في الصحف إلى الاتصال بجميع سماسرة الأراضى فلهم نسبة من المكتب لأي زبون أشترى قطعة أرض وينوى بناءها، وعندما أعود إلى البيت كنت أري أمي قد رتبت لي موعدا مع أحد أقربائها للزواج، وكنت لا أستطيع أن أرفض لأنها ستبدأ بالبكاء وإعادة الاسطوانة القديمة: زملائك كلهم تزوجوا. وما أن تذهب الوالدة لإعداد الشاي كنت أتعمد أن أتحدث عن الدكتوراة كثيرا فيهربون على الفور.

مضى أكثر من ثلاثة أشهر حتى إستطعت أن أكمل عملي في شركة أبى وليس شهرا كما كنت أعتقد، وزارتني بعد كل هذه المدة يوم الخميس فدوى كما وعدت بالمبيت معي، وكانت الساعة بعد العاشرة ليلاً، وجلسنا في غرفتي نتذكر أيام الكلية وقالت: أعلم انك تريدين أن تعرفي كل شيء عن الشلة ولكنني لا أعرف أماكنهم، قلت لها: أين عباس قالت: عباس نظارة، هذا لقبه منذ وفاة طارق يسكن في بيوت مشبوهة، وأغلب الوقت يكون سكران وحتى يخفى عينيه من إحمرار السكر يلبس نظارة سوداء، ولم يمارس المحاماة، فهو يمارس السمسرة في بيع السيارات المستعملة، قلت: وجيمس قالت: لقد عاد إلى الجنوب، ولا أعلم ماذا يفعل مهندس إلكترونات في هذه الحرب. على العموم هذا بالنسبة إلى شلتنا أما عن شلتكم فأعرف أن هشام يعمل في وزارة العمل، وأن فيصل وأديبة تزوجوا منذ أكثر من أربعة أعوام ويقيمون في سوبا جنوب الخرطوم وفيصل يعمل معلما في إحدى المدارس، وهو يأتى أحيانا إلى الجامعة لحضور بعض الندوات. نظرت إلى فدوى ملياً وقلت لها: في حديث منى أحسست إنها أخفت شيء عنى، وأنت كنت حاضرة، ما هو الشيء الذي كان يجب أن تذكره ولم تقله.

إبتسمت فدوى وقالت: أنت درست إقتصاد أو إسكتلنديارد، ضحكنا ثم صمتت برهة وقالت: لا أعلم لماذا أنت مهتمة بهذا الأمر، الرجل مات، الله يرحمه وإنتهت القصة، ثم إنك كنت عدوة له ولم تكوني صديقة، أحمدى الله على إنك

كنت في لندن وإلا كانوا إتهموك بقتله. ضحكنا ثانية سألتها: من أكثر من تأثر بموته بعد منى.

قالت على الفور: عباس.. فقد تحول على الفور الى معاقرة الخمر وترك كل شيء يذكره بالجامعة حتى الشهادة من القانون لم يعمل بها، وإن كنت سمعت أنه يترافع عن بائعات الهوى اللاتي يعيش معهم. قلت لها: يبدو أن شلتكم الأكثر تحطماً.

قالت وهى تقف: لا تتفائلى إنها ليست قضية شلة إنها تحطم جيل. أخذت أفكر في كلامها بينما قامت هي لتأخذ دشا، وعندما عادت قالت: أين العشاء يا كولومبو.

نظرت إليها بتأمل وقلت لها: هل تعرفين إنك تذكرينى بمنى كثيرا، وما زلت أذكر عندما رأيتك أول مرة وأدركت وقتها بأنك ستكونين صديقتها.

قالت: هو نفس اليوم الذي قابلت فيه باقي الشلة، وكانوا مفعمين بالحياة كأنهم سيغيرون الكون، تعرفين كل ما أتذكر المرحوم طارق، لا أصدق انه يمكن أن يهزم فالإنتحار هزيمة، ثم إنه رجل مؤمن بالله.

قلت لها: هناك شيء مفقود، صمتنا للحظات، فقالت: أعتقد أن عباس أكثر واحد يمكنه معرفة إذا كان إنتحارا أم لا. قلت لها وكيف الوصول إليه. قالت: طبعا ليس حيث يسكن، ولكنه يأتى الى دلالة السيارات يوم الجمعة في الخرطوم، قلت لها أريد أن أزور فيصل وأديبة فعباس لو رآنى لقتلني.

قالت: يمكن أن نذهب غدا.

قلت لها: إذن أحسن عشاء سيأتيك حالا.

في صباح يوم الجمعة، إتصلت فدوى بعماد تستفسر عن منزل فيصل، ثم ركبنا عزيزة سيارة فدوى كما تسميها، وكان خالد يضحك من أن هذه السيارة لن تصل لنهاية الشارع، وكانت فدوى تدافع عنها باستماتة، وظلت تقود بهدوء وأنا

جالسة بقربها، وكنت أسأل نفسي لماذا أهتم بهذا الموضوع وأصحاب طارق تقبلوا الأمر الواقع، هل هو إحساسى بالذنب لأنني أكره شخصا مات وشبع موتا، أم أنني أريد تعويض ما فاتنى في الغربة وأريد أن أعيد تتابع الأحداث، وأعجبني هذا التفسير خصوصا وأنني ليس لي وظيفة حتى الآن، كما أن عملي في شركة أبى إنتهى، وأستلم خالد مع أبى الأمور، عندما وصلنا الى بيت فيصل كان واضحا من الخارج إنه يحتاج صيانة وترميم، وطرقنا الباب، وما هي إلا لحظات، حتى فتحت لنا أديبة الباب وهى تحمل طفلة على جنبها، وما أن رأتنى حتى قذفت بنتها الى فدوى، وانهالت علىّ بالقبلات والأحضان وهى تبكى. كان منزلهم مكون من غرفتين وصالة طويلة تمتد أمام الغرفتين، ومطبخ على جانب إحدي الغرفتين والحمام في نهاية الفناء الذي كان كبيرا، ولكن المنزل رقم فقره وبساطة فرشه كان مزينا بالأشجار والورود، عندما تراه تعرف أن هناك شاعر يسكنه، كانت إحدى الغرفتين تستخدمها لإستقبال الضيوف، فتحت لنا الغرفة التي كانت مرتبة كان بها سريرين وأربعة كراسي جلوس ومكتبة بها كمية كبيرة من الكتب تمتد من أول الحائط الى آخره وقالت: تفضلوا.. فيصل يعطى دروس خصوصية صباح الجمعة في العادة ولكنه يعود قبل الصلاة الجمعة بساعة حتى يجهز لها.

قلت لها: أصبحت ست بيت بمعنى الكلمة.

قالت: البيت ليس مشكلة، المشكلة في الأولاد، غير أميرة عندي طارق ثلاثة سنوات وهو يلعب عند الجيران. ثم ذهبت وأحضرت لنا عصير ليمون، سألتها فدوى: لم تحصلي على عمل. هزت رأسها نافية، قلت لها: رزقك من السماء، أبحث عن محاسب لمكتب والدي، ولكن يجب أن تكوني جيدة في الكمبيوتر.

قالت: منذ أن تخرجنا وأنا في كورسات الكمبيوتر، أحاول أن أعمل لأساعد فيصل، تخيلي أنهم لم يستلموا رواتبهم منذ ثلاثة أشهر، وبعد أن ينتهي من عمل المدرسة يذهب لتدريس الإنجليزى في المعاهد، ثم يوم الجمعة والإثنين للدروس

الخصوصية. حاولت أن أخرجها من شكواها وسألتها: خبر زواجك بفيصل كان مفاجأة لي، كنت تحبينه في السر.

ردت: من جانبي أنا منذ أول يوم ولكن هو كان خارجا من السجن ولم يكن يفكر إلا في التخرج، ثم بعد ذلك إقتنع، باع منزلهم بكسلا والأراضى الزراعية بعد وفاة أبيه وإستلف مبلغا بعد كل هذا ليشترى هذا المنزل، وكما ترين يحتاج صيانة وبناء صالون أمامي.

أعجبتني فدوى وهى تسألها: ألم يتغير بعد الزواج.

قالت وهى تبتسم: عندما تتزوجين شاعرا تكونين ملكة عندما يفرح، ووحيدة عندما يحزن فهو قد لا يتكلم لمدة أسبوع، ولكنه يحترمك في جميع الأحوال، وأخبرتها فدوى بزواج منى، فقالت: أخبرني فيصل فقد علم من عماد ولكنه كان حزينا بسبب المرحوم طارق.

استغربت ذلك وقلت: ولكن علاقته بطارق لم تكن جيدة.

قالت: لا أعلم ولكنه أغلق هذه الغرفة وأخذ يبكى للصباح، وأنا أذكر بأنهما كانا في الجامعة لا يتحدثان مع بعضهما ولا حتى يلقيان السلام، وحتى انه أصر على تسمية ابنه باسم طارق، نظرت الى فدوى التي كانت مستغربة مثلي، ثم إستأذناها وطلبت منها أن تقابلني في الشركة غدا.

أثناء عودتنا قالت لي فدوى يمكننا أن نمر على الدلالة لترى عباس ترددت ثم وافقتها، وأوقفت السيارة وظللنا جالستين فيها فقد كان مجتمع رجالي لا توجد فيه إمرأة واحدة، وكنا نراقب الناس يتفحصون السيارات المستعملة، وتحاول فدوى أن ترى عباس، ولكننا ظللنا أكثر من نصف ساعة منتظرين ولم يظهر عباس، وجاء أحد السماسرة وعرض على فدوى مقايضة سيارتها بأخرى على أن تدفع الفرق، قلنا له من باب التسلية أن يحضر السيارة الأخرى، وما هي إلا لحظات كان قد أحضرها، كانت سيارة بيضاء أحدث من سيارة فدوى ببضع

سنوات ولكن كان منظرها أجمل أعجبت فدوى بالسيارة، وما أن جربتها حتى أخذت تفاوض في المبلغ الواجب دفعه، وقد رفض السمسار إقتراحها بتأجيل الدفع بشيك مؤجل، فسألته عن عباس فأرسل أحد الصبية يبحث عنه، أتى عباس من بعيد وكان منظره مخالفا عن ما كنت أذكره عنه، إختفت الأناقة في ملبسه، كان يلبس بنطلونا أسودا وقميصا بنا فضفاضا يكاد يصل الى ركبتيه، ويرتدى نظارة سوداء وكان يحمل سيجارة، ثم رأى فدوى ورحب بها، ثم أخذ يقنع السمسار بقبول الدفع خلال فترة شهر وهو ضامن للدفع، وأصرت فدوى على أخذ السيارة الآن حتى لا يأخذون منها شيئا على أن يأتيها السمسار في مكتبهم غدا لكتابة عقد المبايعة، نزلت من السيارة لأركب السيارة الجديدة فوقع نظر عباس على لأول مرة تقدمت إليه وسلمت علية بابتسامة، ظل صامتا ولم يرد التحية، قلت له برقة: أحسن الله عزائكم في المرحوم طارق، لم أكن أعلم بوفاته إلى أن حضرت إلى السودان منذ أكثر من ثلاثة أشهر. لم يرد على بل إلتفت مودعا فدوى وذهب، فصاحت فدوى: عباس.. فوقف على بعد أمتار منّا.

قالت فدوى: أريد أن أسألك سؤال واحد. نظر إليها صامتا. قالت: طارق هل إنتحر؟. هز رأسه بالإيجاب، قالت: كيف تأكدت.

قال: هو أخبرني ذلك. ثم أضاف: عندما يكون الناس على شاكلة من أتت معك، يكون الموت هو الحل. عرف عباس كيف يجرحني في الصميم، قالت فدوى معنفة ومحاولة رد الإهانة: هذا كلام جارح، وليس مفترض أن يصدر منك، ولكن يبدو أن البيئة التي تعيش فيها أثرت عليك. كان كلامها هجوما مباشرا على عباس، الذي بدوره نزع النظارة بغضب وقال صارخا: أتعرفين ما هو الجارح، بعد الإعتقال والتعذيب والدم والموت وكل ما فعلناه لهذا البلد، أكون أنا المهزوم، وهذه هي المنتصرة، صدقيني طارق إرتاح وأراح، كانت عينه تلمع بالدمع، فلبس نظارته وذهب سريعا. نظرت إلي فدوى كانت كمن تعتذر عنه، قلت لها: كنت

أتوقع أكثر من ذلك، ما يغيظ عباس كلما إجتمعنا في مكان يكون موقفي أعلى منه. ويكون هو في أسوأ وضع. ركبنا سيارة فدوى الجديدة ونحن عائدون الى البيت، قالت فدوى: لا أصدق أن يقول طارق لعباس أنى سأنتحر لا أحد ينوى الإنتحار يقول ذلك.

قلت لها: هنالك شيء حدث جعل عباس يؤمن بفكرة الإنتحار، وهو نفس إحساسى عندما تحدثت مع منى، لا يمكن لعباس أن يهدم حياته لأن صديقه مات، هناك شيء مفقود، ولنقل إنه إنتحر فلماذا ينتحر مهندس مدني حاصل على شهادته للتو، أنا أرى أن الحقيقة ليست مع عباس بل مع جيمس، وصلنا إلى البيت وقبل أن تغادر فدوى قالت لي هناك شيء لا أعرف دلالته ولا أعرف إن كان يصح أن أقوله، قلت لها متحفزة: ما هو. قالت في يوم الحفلة التي قالت لك عنها منى كان طارق معه بنت عمياء كانت تمسك زراعه، وكانت الحفلة بمناسبة ثورة واحد وعشرين أكتوبر التي يحتفل بها الطلبة لسقوط أول نظام عسكري بالسودان عام أربعة وستون وكانت الحفلة بالميدان الشرقي للجامعة، وكان الميدان مزدحما بالحضور، ولكني كنت واقفة مع عباس ومنى وسامية وعندما أتى طارق مع هذه البنت، ذهب عباس قبل أن يصلا إلينا وترك الحفلة، وقد شعرت أن هناك مشكلة بينه وبين طارق، ثم بعد ذلك كانت منى تتناقش مع طارق بصوت منخفض غاضب، وترك طارق الشلة بصحبة هذه البنت، وكانت منى صامتة بقية الحفل.

قلت: إذن طارق فعل شيئاً أغضب منى وعباس. ثم سألتها: ولم تري هذه البنت ثانية.

قالت: هو عرفنا بها ولكني نسيت إسمها ولكن أظن أن سامية تعرفها من قبل لأنها كانت تتحدث معها. قلت لها ضاحكة: مقابلة عباس أسهل بكثير من سامية، قالت لي معاتبة: سامية ظريفة جداً، وأنت متحاملة عليها. وسنذهب لبيتها

لأثبت لك ذلك يوما ما. وقبل أن تكمل جملتها جاء أخي خالد وهو يضحك وقال: أين عزيزة وردت عليه فدوى ضاحكة وكاذبة: أعطوني هذه السيارة ومعها نقود مقابلها. قال خالد: لابد أن يكون من إشتراها خبير آثار، ضحكنا وذهبت فدوى مبتعدة.

في اليوم التالي قابلت أديبة في شركة الوالد، وجلست معها لأعلمها إستخدام البرنامج الخاص بالحسابات، وكان المحاسب سعيدا بإحضار من يساعده في العمل، وكان خالد سعيدا بإحضار عملاء للمكتب ولكنه كان غاضباً لأن أبى رفض طلبه بالإشراف على المواقع، حيث كان رأى أبى أنه سيبدأ تدريجيا بتركه يشرف عليها، ومضت الأيام التالية بطيئة ومملة، كنت أهرب من البيت بسبب الوالدة وحديثها عن الزواج، وكان الوالد يسعى لإلحاقى بالجامعة بدوام جزئي بعد أن تعزر التعيين بدوام كامل، وكان شرط الخدمة الإلزامية أو الولاء للنظام هو الفيصل في كل شيء، وكان التدريس في الجامعات هو الأمل الوحيد أمامي بعد أن رفضت الشركات طلبي لعدم الحاجة الى درجة الدكتوراة لهذه الوظائف، وأحسست أن هذه الدكتوراة أخذت منى أكثر مما أعطت، فهي قللت فرصي في الزواج والعمل كما تقول الوالدة.

في يوم من أيام الجمع جاء لزيارتنا فيصل كسلا وأديبة مع أبنائهم طارق وأميرة وجلسنا في الحديقة وأتت والدتي حيث كان خالد ووالدي قد خرجوا للعزاء في أحد المعارف، وقدأحضر فيصل معه كمية من الهدايا الملفوفة والحلويات، وبدأ حديثه معي بالإعتذار عن تأخير هذه الزيارة ولكن زحمة العمل لم تترك له فرصة، ثم شكرني على تعيين أديبة فهم كانوا في حاجة ماسة الى الوظيفة كثيرا، وما أن بدأت أديبة والوالدة في إدخال الحلويات لإعداد الشاي، حتى بادرت فيصل بتعزيته في وفاة طارق كنت أريد أن أستغل وجودنا بمفردنا لأخذ أي سر منه،

ولكنه ظل صامتا، تأكد لي أن فيصل يعلم شيئا، ولكنه لن يبوح به، فسألته: لماذا ينتحر.

قال: طارق لم ينتحر.

قلت: كان حادث.

قال: جائز، ثم بدأ بسؤالي عن لندن متهربا من الموضوع. وأثناء تناولنا الشاي أخذت أنظر الى فيصل متفحصة، كان الشيب والإرهاق قد بدا على وجهه وتذكرت إهانة طارق له: مصيرك أن تترك الشعر، وتمسح أحذية الأغنياء، ثم فيصل يقول: أن ظروف طارق صعبه. إن طارق تعمد أن يهين فيصل ليس لأنه دافع عنى ولكن لشيء بينهما، وفيصل يعذره رغم شدة الاهانه ولمن لشاعر قاوم وإعتقل رفضا للإهانة، ولكن لماذا يسمى فيصل إبنه باسم طارق، ذلك إن دل فيدل عن حب وليس حبا عاديا، لدرجة عندما سمع بزواج منى أخذ يبكيه، أو ربما هو ليس حبا ربما ندم، فيصل فعل شيئا وندم عليه وطارق ظل يهينه عليه، هذا الأمر محير فعلا، وطوال وقت الزيارة كان فيصل يبعد نظراته منى، ولكنني وأنا أودعهم في الباب عزمت أن أعرف أكثر.

ولكنني خلال الأشهر التالية بدأت العودة الى العمل مع والدي وذلك لأن حملات التجنيد الإجباري كانت قد بدأت باصطياد الشباب من الشوارع وحافلات المواصلات، فان الحرب تريد وقودا، فكان لابد من أن يأتوا بالمدنيين للقتال، مما دعي الوالدة الى حبس خالد في المنزل، وأعجبني حجم علاقات خالد في العمل في مدة قصيرة حتى إن أبى أصبح يوزع العملاء على مكاتب معارفه، وأصبح خالد يخرج الى المواقع عند الفجر ويبدأ بصب الخرسانة للأساسات والأعمدة ثم يأتى أبى نهاراً للمراجعة واستكمال التشطيبات، ودخل علينا عام أربعة وتسعين، ونحن في قمة الانشغال بالإعمال وكنت طوال اليوم حتى المساء أكون جالسة بالمكتب أستقبل المغتربين فهم وحدهم من كل السودان لهم قدرة على البناء،

ووالدي وخالد يتناوبان على المواقع، وما أن أكملنا شهر فبراير حتى إشترى أبى لخالد سيارة، ولكنه لم يكن يستعملها نهارا، مما مكنني من تملكها نهاراً، وأصبحت أزور بها فدوى وأديبة، حتى جاء اليوم الذي أقنعتني فدوى بالذهاب معها الى سامية، كنت مترددة وخائفة من ردة فعلها، ولكن فضولي للمعرفة كان أقوى من خوفي منها، كانت سامية تسكن بحي المهندسين بأم درمان وأوقفت السيارة بهدوء أمام منزلهم الذي كان يبدو عليه الفخامة، وقرعنا الجرس وماهى إلا لحظات حتى فتحت لنا سامية الباب، فسلمت على فدوى ثم نظرت الى لحظات ثم تذكرتني، فما كان منها الا أن أخذتني بالأحضان كأنني كنت صديقتها، وإحمر وجهي خجلا من إستقبالها، وجلسنا في الصالون الذي كان فخما، وجاء زوجها دكتور عبد القادر وسلم علينا وخرج على الفور، وقد تذكرته فقد درسنا إحدى مواد الكلية، ولكنه لم يتذكرني فقلت لها: لم أكن أعرف إنك تزوجت من الدكتور عبد القادر، قالت: لقد كان يعرفه عماد وعندما مرضت منى توسط لدى دكاترة كلية القانون محاولين تأجيل الامتحانات لها وعندما فشلنا في ذلك ساعدنا في طلب تجميد الدراسة لها، ثم بعد ذلك بدأت الأمور تتطور وما أن تخرجت حتى تزوجنا على الفور. قلت لها: لديك إبن في السادسة أو السابعة من العمر. قالت: وائل ثم بنتين أسماء أربع سنوات ودلال ثلاثة. قلت: رأيته معك في زواج منى، قالت: لم أرك في الحفل. لماذا لم تسلمي على. صمت لحظات وقالت فدوى: كانت خائفة منك.

ضحكت سامية وقالت: هذا الموضوع بسيط جدا لكن أنت صعبة جدا، والغريب أن المرحوم طارق قال: بنت الرياض لن تغفر لنا هذا المقلب إلا بعد سنين.

قلت لها: أحسن الله عزائكم.

قالت: هذا حال الدنيا.

قلت لها: هل تصدقين أنه إنتحر.

قالت: عندما سمعت الخبر لم أصدق ولكن عندما قابلت أهله صدقت، فقد كنت أول من علم بالأمر حيث جاء عسكري الى كلية الهندسة يسأل عن معارفه فدلوه الطلبة الى عباس، وكنت أجلس في كلية القانون، وعندما كان يبحث في الكلية عن عباس أعتقد الطلبة بأنه أتى ليعتقله، فأخبروني أن أذهب الى عباس لأحذره، ولكني كنت أعلم إن الإعتقالات تتم في الليل حيث يداهمون الناس في مساكنهم، ولكني أحسست بالخوف لأن عباس أخبرني قبلها بيومين أنهم تحت رقابة صارمة من الأمن وطلب منى أن أبتعد عنهم في هذه الأيام، وذهبت الى العسكري، الذي أخبرني بأنه يريد أن يخبر عباس أن صديقه توفى ويريد من عباس أن يدله على أهله، فقلت له ما إسم صديقه، فقال لي: طارق المغربي، فسقطت على الأرض. توقفت سامية عن الحديث وأخذت تبكى كأن طارق مات اليوم، ثم ما لبثت أن جارتها فدوى في البكاء، حاولت أن أنهى هذا الموقف سريعا فقلت لسامية وأنا أحاول الإبتسام: لم تقدمي لنا شيئا ولا حتى ماء بارد. فذهبت وهى تبكى، نظرت الى فدوى التي كانت مواصلة البكاء، وأحسست أن الفاجعة بموت طارق وما سببه من ألم كان هو السبب في أن لا أحد يريد أن يعرف أكثر، لقد مات وتألموا وحتى لا يزيد الألم أغلقوا هذا الملف سريعا، ولكن لم يأتى أحد ليستفسر من الأخر عن الأسباب، وعادت سامية بأكواب العصير وصمتت لحظات ثم قالت: أخذت العسكري الى بيت طارق وكان في منطقة الصحافة بالخرطوم، ثم دخلت بعد أن تركت العسكري خارجا، كانت لهم صالة واسعة عند مدخل البيت، وكانت تجلس في السرير أخته هالة، تم أبيه جالسا علي الكرسي، وأخيه حامد كان واقفا، وعندما رأوني صمتوا كأنهم يتوقعون شيئا لم أستطع أن أخبرهم فقلت لهم أن أحد العساكر يريد أن يقابلكم، فصمتوا فذهبت وأدخلته فمد العسكري يده مصافحا والد طارق وقال: أنت والد طارق. فهز رأسه بالإيجاب. فقال العسكري: البركة فيكم، الدوام لله. فصرخت هالة، وخبأ والده وجهه بين يديه وهو يستغفر،

وظل حامد صامتا، قال العسكري: الجثمان بالمشرحة في مستشفى الخرطوم. ثم خرج، صمتت سامية لحظات، فراودني نفس الإحساس عندما أحسست أن منى تخفى شيئا، فقلت لها بصيغة حادة: ثم.. نظرت الى كأنما لم تكن قادرة على الكذب: صرخت هالة في وجه أبيها وأخيها: أنتم السبب، أنتم السبب، فأمسك بها حامد وأدخلها الغرفة بالقوة، فما كان منى الا أن خرجت، ولم أعد اليهم إلا مساءا حيث قابلت والدته التي مازال حتى الآن تعتقد أن طارق سيعود، صمتت سامية لحظات ثم قالت: كانوا يتوقعون الخبر، كأنما طارق أخبرهم، ولكن مهما كان الأمر فهو شيء خاص بينه وبين أهله لا يحق لنا أن نتدخل فيه. فاحسست أن سامية تقصدني بالجملة الأخيرة، وهذا يعنى أن فدوى أخبرتها بنيتي في البحث في الموضوع، فقالت فدوى سريعا: أنا أخبرت سامية بما سمعناه من أديبة. فسألتها عن سبب سوء العلاقة بين طارق وفيصل .

قالت سامية: سألته مره عن هذا الموضوع، فقال لي إن الشعراء يقولون مالا يفعلون، ثم طلب منى ألا أتطرق لهذا الموضوع ثانية، فسألتها عن البنت العمياء التي كانت معه في حفل واحد وعشرين أكتوبر. فقالت: إنها ياسمين بنت في غاية الجمال ولكنها كفيفة، رأيتها فبل ذلك مع عباس في كافتيريا النشاط.

قالت فدوى: كنت تتحدثين معها يوم الحفل.

قالت سامية: سألتني عن من يقف معنا، وسألت عن عباس، ثم تكلمنا عن معرفة الأشخاص بالصوت حتى إنها كانت تحمل معها آلة تسجيل صغيرة تسجل بها الأصوات حتى تحفظ أصوات الأشخاص التي تتعرف عليهم.

قلت لسامية: هل تزورين أهل طارق.

قالت: طبعا حتى هالة أخت المرحوم كانت معي منذ يومين. فهي خريجة كلية الآداب مثلي.

قلت: هل تعرفيني بهم.

صمتت لحظات وقالت: يا عزة أنا أحترم مشاعرك وهذا يدل على نبل أخلاقك ولكن هذه العائلة ما زالت تتألم لما حدث حتى أن هالة إشتكت أن والدتها مازالت تعتقد أن طارق سيعود بعد كل هذه السنين، وأنا أخاف من أسئلتك لهم.

قاطعتها قائلة: إننى أريد فقط أن أقوم بواجب العزاء. لم تصدقني ولكنها وعدتني أن تأخذني يوما ما إليهم.

خرجت من بيت سامية وأنا أحمل أسئلة أكثر مما دخلت بها، كنت أقود السيارة وأنا صامتة فقالت فدوى: إنها مشكلة عائلية.

قلت لها: هناك نقاط لابد من اجلائها أولا خلاف عباس وطارق ما سببه، وأنت تعرفين أن العلاقة بينهما قوية جدا إذن لابد أن يكون الخلاف على شيء كبير وهذا الأمر لا يعرفه غير عباس وهل غضب منى من طارق مرتبطاً بهذه المشكلة، ثانيا أن معرفة المشكلة بين طارق وفيصل وهذا يعنى أن فيصل لابد أن يتكلم، ما هو الشيء الذي فعله فيصل جعل طارق طوال هذه المدة غاضبا من فيصل رغم مرور سنين حتى وفاته حتى إنه لا يخبر سامية به وهى أقرب شخصية إليه، ثالثا ما الذي جعل هالة تتهم أخاها وأباها بالتسبب بموت طارق، وحيث أنني لا أعرف كيف أجعل فيصل يتحدث، وعباس لن أستطيع الإقتراب منه، يتبقى لي الإتصال بهالة، ردت فدوى: لا أعتقد أن سامية متحمسة لهذا الموضوع، فلت لها: بها أو بدونها لابد أن أصل اليهم.

نظرت الَيَ فدوى باستغراب وقالت: عزة إن هذا الموضوع تتابعه من باب الفضول فقط ولكني أرى إنك بدأت تندمجين أكثر من اللازم.

قلت: فدوى أنا مستاءة من هذا الإحباط الذي يحيط بالكل، وقبول أي شيء علىإنه أمر واقع، كلنا نعلم أن طارق ليس هو من ينتحر، ثانيا حتى لو كان إنتحر ما هو السبب لم يقول لنا أحد حتى الآن ما هي المشكلة التي أدت الى انتحاره أو على الأقل ما زالت مخفية، ثالثا أستغرب من موقفكم السلبى وأنتم

أصحابه ، إذا كنتم لا تعتقدون بانتحاره فمن واجب طارق عليكم تبرئته من هذه التهمة. حتى لو كان لأهله دخل في ذلك يجب أن تتوضح الحقائق، إننى لا أنكر إننى أشعر بالذنب تجاه طارق، ولكنه كان شخصية لها ثقلها في المشاركة في أنشطة الجامعة، لم يكن يعيش لنفسه فعلى الأقل إكراماً لمشاركته الناس يجب أن نقف موقف أكثر ايجابية.

قالت فدوى: تعرفين أن طارق كان على حق. نظرت إليها مستفسرة، فقالت: عندما تشاجر معك طارق وقابلته في اليوم التالي وبخته على هذا الموقف وقلت له إننى سأرتب لقاء مصالحة بينكم على الأقل إكراما لمنى فقال لي: إن شخصيتك لن تقبل المصالحة قبل مرور سنين. فقلت له: لماذا. فقال: لأن لك نفس شخصيته ومن سماتها إنها لا تعتذر بسهولة ولا تقبل الإعتذار بسهولة، والآن وأنت تتحدثين شعرت إنك تتكلمين بنفس الطريقة التي كان يتحدث بها هو عدم القبول بالواقع ومحاولة التغيير مهما كلف الأمر. قلت لها وقد أشعرني كلامها بالراحة: إذن ستواصلين معي المشوار مهما كلف الأمر، قالت: ليس لدى ما يمنع، ولكن يجب أن تلاحظي شيئا، أن منى وعباس وأهله إقتنعوا سريعا بانتحاره هذا يعنى أن هناك شيء يعرفونه ونحن لا نعرفه، فمثلا سامية عندما علمت أن أهله يعلمون شيئا لم تتطرق الى هذا الموضوع ثانية حفاظاً واحتراما على خصوصية أسرار أسرة طارق، مما يعنى أنك ستواجهين مواقف ليست جيدة.

قلت لها: ولا يهمني.

قالت: لقد مرت سنين على هذه الحادثة فما الفائدة من ظهور أي معلومات أخرى.

قلت: الحقيقة هي الحقيقة حتى بعد مرور قرن.

كنا قد عبرنا كبرى النيل الأبيض الفاصل بين مدينة أمدرمان والخرطوم، وكنت أقود السيارة بهدوء حتى نستطيع الحديث بروية، ونظرت الى فدوى الجالسة

بجواري وكانت تفكر بصمت وشعرت أن كلامي أثر بها، فجأة قالت: معك حق نحن مقصرون، أو على الأقل أنا بدون أن يكون لدى أي معلومة عن ما حدث أخذت نفس مواقفهم، يجب أن نذهب الآن لمقابلة هالة أخته.

نظرت إليها وقلت: الآن الساعة تجاوزت الثامنة مساء، وبدون سامية، قالت: ولا يهمنى. وإبتسمنا لبعضنا، وأطلقت العنان للسيارة متجهة الى الصحافة.

وطرقنا الباب وفتح لنا الباب رجل به ملامح طارق، وقالت فدوى: السلام عليكم يا حامد، فعرفت أنه حامد الأخ الأكبر والوحيد لطارق، فرحب بها حامد ترحيباً شديداً، ودخلنا إلى صالة كبيرة كانت هالة الأخت الصغرى تجلس تشاهد التلفزيون، رحبت هالة بفدوى كثيرا كان واضحا أنهم يكنون معزة كبيرة لفدوى، جلسنا وسألت فدوى عن والديها فقالت هالة: أمي نائمة فهي تأخذ علاجات تساعد على النوم، ووالدي ذهب الى صلاة العشاء في الجامع المجاور حيث يقابل أصدقائه هناك، قالت فدوى: أعرفكم على الدكتورة عزة الرشيد زميلتنا في الجامعة ولكنها تركت السودان منذ عشرة سنوات حيث أكملت الدكتوراة في لندن.

فقلت: أحسن الله عزائكم لم أعلم بوفاة المرحوم طارق الا بعد عودتي.

رد حامد: الحمد لله على كل حال، قامت هالة للذهاب الى المطبخ، ونظرت إلى حامد وقلت يجب أن أستغل عدم معرفته بي وأهاجمه، فقلت له: أحزنني جداً خبر وفاة طارق فقد كان أخا عزيزا، لكنى مستاءة جدا من ما يقوله الناس عن إنتحاره، كيف تسمح يا حامد أن يقال هكذا عن أخيك، وجد حامد نفسه في موقف دفاع وقال: لم يكن لنا خيار في توضيح سبب الوفاة وقد كان قرار الوالد بأن طارق ورط نفسه فليتحمل هو وحده عواقبها. تلاقت نظراتنا أنا وفدوى وأحسسنا أن حامد يمكنه أن يكون مصدر معلومات فقلت له سريعا: أي ورطة تتحدث عنها.

رد: إن اسمه ورد في محاولة إنقلابية، وتعلمين وقتها إذا قلنا هذا للناس فقد كان يمكن أن يأخذني الأمن أنا وأبى بتهمة المشاركة في الإنقلاب فلما إنتشر خبر

إنتحاره منعنا أبى من التحدث في هذا الأمر مع أي كائن من كان، وبعد قيام الإنتفاضة وبعد سقوط نظام نميرى، حاول أبى أن يأتى بأوراق من الأمن تثبت أن إبنه قتل ولم ينتحر ولكن لم يجدوا أي مستند يثبت ذلك. وقع كلام حامد علينا كالصاقعة، ولم أستطع أن أقول شيئا ونظرت الى فدوى التي دمعت عيناها وقالت: كان يجب على الأقل أن تخبرنا نحن بذلك.

رد حامد: أبى كان يعلم بأن زملائه قد يحاولون فعل شيء في الجامعة إذا إنتشر الخبر وقال لي بالحرف الواحد: لا نتحمل أن يموت منهم شاب أخر يجب أن يظل الأمر سراً. لم يكن سهلا علينا أن يقول الناس إن ابن حاج المغربي مات كافرا، ولكن لم يكن هناك حلا آخر، وعلى العموم طارق في النهاية هو من أدخلنا في هذه المشكلة، ومحاولة الإنقلاب على النظام هي في الأصل إنتحار. كان واضحاً أن حامد غاضباً من أخيه فقالت فدوى بحدة: لا يمكن أن تلوم المقتول ولا تلوم القاتل.

رد حامد بغضب: أترين ماذا ترك لي أم قاربت على الجنون وأب مقهور أمام الناس، هو مات وإرتاح وترك لنا الحسرة، لماذا لا يعيش مثل الجميع، مهندس وكانت له خطيبة ووضع مادي على أحسن ما يكون، ما دخله إذا كان النظام سيئاً أم لا، ألا يراعي مسوؤليته أمام أسرته التي كافحت لتعليمه.صمت أنا وفدوى للحظات حتى يهدأ، فقد كان حامد قد وصل الى ذروة الغضب، وجاءت هالة تحمل الشاى، فاستأذن حامد فقالت فدوى محاولة إثارة المرح في الزيارة: أتذكرين يا هالة بنت الرياض التي كان عباس يخوف بها والدتك بأنها ستبلغ الشرطة في طارق، هزت رأسها بالإيجاب، فأشارت فدوى لي وقالت: هي دكتورة عزة، قالت هالة مندهشة: ورغم سوء علاقتك به عندما علمت بالوفاة أتيت للعزاء.

قلت: انه الواجب.

قالت: هذا يدل على أصلك الكريم، ولكن فأنا مبسوطة منك، فقد رأيتهم هو وعباس وسامية هنا في هذه الصالة يتحدثون عن إمكانية إدخالهم السجن بتهمة النصب، وقد كنت أتشفى فيهم لأن عباس وطارق عندما يجتمعان على المقالب فلا أحد يقدر عليهم.

قالت فدوى: قابلت عباس في الدلالة مع عزة.

قالت: الوالدة مازالت تسأل عنه.

قلت: ألم يأتى لزيارتها.

ردت هالة: منذ وفاة طارق لم يأتى لقد كان من أشد المتأثرين بوفاته. نبهتني فدوى بتأخر الوقت، وودعتنا هالة عند الباب وطلبت منها أن تزورني في البيت فقالت إن خروجها صعب نظرا لظروف والدتها الصحية وسألت هالة فدوى: أين عزيزة؟.

قالت: بوجود سيارة الدكتورة لا بد من ستر العورات، فضحكنا وكانت هذه أول مره أشاهد هالة مبتسمة.

ما أن أوصلت فدوى الى بيتهم في حي أركويت حتى كسرت حاجز الصمت بقولها: مفاجأة من العيار الثقيل، قتل ولم ينتحر.

قلت لها: هناك شهود على إنتحاره.

قالت: من منهم يكذب.

قلت لها: يجب أن نتحدث مع هالة بعيدا عن المنزل، لابد أن نعرف لماذا قالت لهم: أنتم السبب.

قالت: وإذا كان لأبيها وأخيها دخل في ذلك لا أعتقد أنها ستقول لك ذلك.

قلت: هناك أمر جلل حدث جعل من ممكن أن ينتحر طارق، بدليل أن منى وأهله وعباس بالتحديد، صدقوا ذلك، ما علمناه من حامد هو أن طارق كان متورط مع جماعة إنقلابية، ولكن ذلك لا ينفي إنه إنتحر أم تمت تصفيته، ولكن هناك سؤال

أخر إذا كان هناك إنقلاب لابد أن يشارك عباس في ذلك فطارق وعباس متلازمين.

قالت: إذن لابد من إنتظار هالة.

قلت: أنت حاولي أن تدبري هذه المقابلة بأسرع ما يمكن، بالمناسبة أنا لاحظت أن علاقتك بأهل طارق أكثر من ممتازة.

قالت: إننى مواظبة على زيارتهم منذ أن كان طارق يدعونا الى الغداء في بيتهم كل شهر، ووالدته تعرف شلتنا فردا فردا.

قلت: ولكنك أعطيتني إنطباع بأن سامية هي من تعرفهم أكثر.

قالت: صراحة لم أكن أنوى أن أدخل معك في هذا الموضوع. ولكن بعد ما تبين إن هناك إحتمال قتل فمن واجبي أن أستمر لا تنسى بأني محامية.

مر أكثر من شهر وأنا في انتظار زيارة هالة وفدوى، ولكن لا حياة لمن تنادى فقررت أن اتخذ طريقا أخر، وكان السبيل الوحيد هو فيصل، ذهبت إلي بيته قبل ساعة من صلاة الجمعة، استقبلتني أديبة بدهشة حيث كنت معها بالأمس في المكتب ولم أخبرها بقدومي اليوم، وأجلستني في غرفة الضيوف وقالت أن فيصل في الحمام، قلت لها: لن أخذ من وقته الكثير أعلم أنه سيخرج الى الصلاة. جاء فيصل و لأول مرة أراه مرتديا جلابية وعمة وشال ملقى على أحد كتفيه، رحب بي كثيراً، ولكني رسمت الجدية على وجهي وقلت له: أحتاج لمساعدتك قي شيء قد تراه شخصياً ولكني أرى بأنه يفيدني، صمت وبدأ عليه الفضول لمعرفة الاتى من الحديث، فقلت: أريد أن أعرف لماذا كانت هنالك قطيعة بينك وبين طارق. صمت دقائق ثم قال: ليس من حقك هذا شيء بيني وبين المرحوم.

فقلت له: اننى أحاول معرفة إنتحار طارق، وأريد أن تحلف لي أن ما تخفيه ليس له علاقة بوفاته وإنه ليس لديك معلومة في هذا الشأن، وعندها فقط أستطيع أن أجزم بأن علاقتكم شيء خاص بكم.

صمت ثانية ثم قال: لا أعرف كيف مات ولا حتى المكان الذي مات فيه، صدقيني، إختلافنا كان سياسيا بحتا.

فقلت سريعا: ألم تعلم بأنه يدبر انقلاب.

نظر الى بدهشة وقال: من أخبرك؟. .

تجاهلت سؤاله وقلت: عندما حدثت الوفاة كان الجميع يخاف من جهاز الأمن وقتها ولكن الآن يمكن بسهولة إثبات إنها كانت تصفية، من حق طارق علينا ذلك. ظل صامتاً يفكر، دخلت أديبة تحمل العصير، فقمت من مقعدي وإتجهت الى الباب وقلت: كنت أظنك ستتعاون معي. كنت متعمدة أن تسمعني أديبة وأنا أقول ذلك، وظل فيصل صامتا وتبعتني أديبة وهى تصر أن أشرب العصير، ولكني رفضت بإصرار، مخلفة ورائي إحساس لديهم بأني خرجت غاضبة، ركبت السيارة وقدتها بعنف وأديبة تراقبني وهى تشعر بالحرج، تأكدت من هذه الزيارة من شيء واحد فيصل يعلم بالإنقلاب، لأنه كان يجب أن يسألني عن الإنقلاب ولكن دهشته كانت في من أخبرني، ولكن هل كان سوء العلاقات بينهم تمثيلية أمام الناس والأمن وهم يرتبون الموضوع سرا، على العموم سأنتظر أديبة غدا في المكتب فهي تشعر إنني أحملها الكثير من الجمائل فلن تدع فيصل ينام الليلة حتى تقنعه بالحديث، ورغم إنني أحسست بأني إستخدمت وسيلة ضغط رخيصة أمام فيصل إلا إنني كنت أنتظر يوم الغد بفارغ الصبر.

صباح اليوم التالي إندهش أبى وهو يراني جاهزة قبل ساعة من موعدنا، وفى الطريق أخبرني أن جامعة الخرطوم وافقت على تعييني بدوام جزئي حتى

يجدوا لي شاغرا بدوام كامل، قلت له: لا أوافق، أنا مؤهلة أكثر ممن يدرسون الآن، ولست محتاجة ماديا فلماذا أتنازل.

قال: ولكن هذا هو المتاح حاليا.

قلت: سأواصل العمل معك حتى أجد عملا بشروطي، أم إنك تريد الاستغناء عنى.

ضحك بصوت عالي وقال: أنت من سوف تستغنين عنى، ولكني أشعر إنك تريدين العمل في تخصصك.

قلت: هناك إنهيار كامل في نظام الخدمة المدنية والجامعات وكل شيء، ولكني لم أصبر على الغربة وأتميز في الدراسة كل هذه المدة، وآتى وأقبل بما يفرض على، إذا كان هناك خطأ يجب أن أصححه ولكني لن أجاريه.

نظر الى أبى بشفقة وقال: أخاف عليك من هذا الرأس العنيد، إذا لم تتبنى طريقة أكثر مرونة في الحياة فأن الدنيا ستحطمه لك.

أوقفت السيارة أمام المكتب وقلت له: أنا أخاف أن أحطم الدنيا برأسي.

ضحك أبى ونزل من السيارة، كنت أعلم أن ضحكته مرتبطة بعمله كلما كان الوضع مستقرا في العمل كلما زادت ضحكاته. وما أن دخلنا الشركة حتى وجدت أديبة تنتظرني بفارغ الصبر، ورغم إحساسى بتأنيب الضمير إلا أنني كنت متحمسة لسماعها، وجلسنا في مكتب خالد.

فقالت بسرعة: فيصل طلب منى أن أترك العمل.

أصابني كلامها بالإحباط، فقد فشلت خطتي تماما، فيصل شخصية غير قابلة للضغوط تحت أي مسمى، ونظرت الى أديبة التي كانت تنتظر منى أن أتحدث، فقلت: لماذا؟.

قالت: لا أعرف، ولكني سألته لماذا خرجت عزة غاضبة، فقال ليست غاضبة ولكنني لا أحب أسلوب الضرب تحت الحزام، ويجب أن تتركي العمل عند والدها.

قلت لها: كلام فارغ، وقولي له أن عزة تقول لك إنها تعرف أديبة قبل أن تعرفك فعملك هنا لا دخل لك فيه.

نظرت أديبة الى وهى محتارة بيني وبين زوجها، وظلت جالسة أمامي تفكر.

فقلت لها: يا أديبة أنت صديقتي وكنت تريدين العمل، وبصفتك صديقتي حصلت عليه وليس لأنك زوجة فيصل، والآن إذا كنت ترغبين في تركه، عليك أن تعطيني فرصة شهر حتى نأتي بأحد غيرك، ولكنه في النهاية قرارك، فكرى في الموضوع لمدة يومين ثم أعطيني ردك.

خرجت أديبة الى مكتبها وهى صامتة كنت أعلم أن هذا أول قرار ستتخذه بمعزل عن فيصل، وأعلم أن فيصل يظن أنني سأتى إليه معتذرة بعد أن أعلم أن أديبة ستترك العمل، ورغم إنني أعلم إنني مخطئة ولكن كما قال طارق ليس من السهل أن أعتذر، ولكني أحسست أنى سأموت لو لم أعرف ما بين طارق وفيصل، وأحسست بأني فشلت هذه المرة، ثم قلت لنفسي أحسن طريقة للخروج من الهزيمة هي أن تحرز نصرا حتى لو كان صغيرا، لم يكن هناك الكثير لأفعله في المكتب فقد حددت المواعيد للعملاء، وإغتنمت فرصة أن أبى سيظل جالساً في المكتب، وذهبت الى منزل المرحوم في الصحافة، وقابلتني هالة وهى تعتذر لعدم زيارتها لي بسبب الوالدة، وقالت: الآن نحن ننتظر حامد أن يأخذنا الى المختبر لفحص الضغط والسكري، حتى نعرضه على الدكتور مساءا.

فقلت لها: دعي حامد في عمله، سأذهب معك.

إتصلت هالة بأخيها بأن لا داعي لحضوره، وأخذنا والدتها الى المختبر الذي لم يكن بعيدا عن منزلهم ولكنه كان مزدحما فجلسنا في غرفة الانتظار وعرفتني لوالدتها التي بدأ عليها الإندهاش وقالت: ولكنها تلبس ثوبا. ضحكت هالة ثم إلتفتت إلى قائلة: كان طارق دائما يحكى لها مقالبهم في الجامعة، وعندما أخبرها عباس بأن هناك بنت من الرياض ستدخل طارق السجن، وكان يحاول تخويفها

بذلك، فصدقت كلامه وقالت لطارق: أي بنت لو عرضت عليها الزواج ستنسى الإساءة حتى لو رفضت طلبك.

فقال لها طارق: ولو وافقت.

قالت: خير وبركة.

فضحك طارق وقال لها: ولكنها لا تلبس الثوب السوداني إنما تلبس على الموضة.

فقالت: في هذه الحالة لا داعى للزواج.

فقال طارق: ولكنها ستدخلني السجن.

قالت: السجن للرجال.

والآن وأنا أذكرها بهذه الحادثة قالت لي: إنك تلبسين ثوباً يعنى أن طارق كذب عليها ليهرب من الزواج. ضحكت مع هالة وأبديت لها إندهاشي من قدرة والدتها على التذكر، ردت هالة: فقط بما يتعلق بطارق.

قلت لها: طارق لم يكذب فقد أصبحت ألبس الثوب فقط بعد عودتي الى السودان.

قالت: هل هذا نوع من الحنين إلى الوطن.

قلت: أعتقد أن الإنسان لا يعلم بقيمة ما لديه الا بعد أن يفتقده.

قالت: أعتقد أن الغربة في لندن أجمل من الحياة في وطن يحطم أبنائه، على الأقل تستطيعين تحقيق أحلامك.

قلت: أنا الآن حققت حلمي، ولكني لا أستطيع أن أمارسه في وطن متخلف يعانى من الجوع والمرض، فالوطن يحتاج الى مزارع أكثر من حاجته الى دكتوراة في الإقتصاد قالت: كل له مجال عمل يخدم به وطنه.

قلت: ما فائدة أن يكون لديك طبيب متخصص والمريض لا يمكنه شراء الدواء، فسيموت المريض في كل الأحوال.

قالت: هناك فائدة، سيكتب اسم المرض في شهادة الوفاة.

ضحكنا فان شر البلية ما يضحك، أخذت هالة تتأملني ثم قالت: تعرفين أنك تفكرين بنفس طريقة التي كان يفكر بها طارق.

قلت: المشكلة التي أعانى منها الآن، عايشها طارق وهو طالب في الجامعة، فقد علم أن كونه مهندسا ناجحا لن يفيده في بلد فاشل، لذلك فكر في التغيير. صدقيني إذا لم نستطع وضع حدا للفقر فلا فائدة من كل الألقاب.

أكملنا الفحص لوالدة هالة وعند وصولنا الى منزلهم أصرت والدتها أن أشرب قهوتها، وجلسنا ثلاثتنا حول موقد صغير للنار تحت شجرة في الفناء الخلفي للبيت، ومنعت فدوى والدتها عن شرب القهوة حتى المساء بعد زيارة الطبيب، التي أخذت بدورها ترفض بعناد، كان منزلهم مكون من غرفة منفردة عند مدخل البيت على اليمين تستخدم لإستقبال الضيوف، ثم صالة مغلقة كبيرة تفتح عليها غرفتان، ثم غرفة خلفية تفتح على الفناء الخلفي والمطبخ الذي يفتح بدوره على هذه الشجرة التي نجلس تحتها، وكان هناك باب صغير بينهم وبين الجار، لاحظت هالة أنني أنظر الى الباب فقالت: إن البيت الذي يلينا تابع لنا ولكن أبى فصله حيث كنا نؤجره وهو عبارة عن صالون كبير قسمناه الى غرفتين وبنينا له مطبخ وحمام وكما ترين بنينا غرفة منفردة لإستقبال الضيوف أمام المدخل عوضا عن الصالون القديم. ثم بعد ذلك أجره لجيمس .

قلت: جيمس كان يسكن هنا.

قالت: ليس بالضبط، طارق كان لديه كثير من الزوار ويأتي بهم في ساعات متأخرة من الليل، مما جعل الوالد يتشاجر معه كثيراً فما كان من طارق الا أن أتى بجيمس إلى الوالد طالباً أن يؤجر المنزل حيث أنه كان قد تخرج من الكلية وترك سكن الداخلية، وقد كنت أعلم أن طارق هو من يدفع الإيجار، لكنني لم أخبر أبى لأن هذا الوضع أراحنا من الشجار اليومي بين حامد وطارق.

قلت: يبدو أن المرحوم طارق كان متعباً جداً.

قالت والدته: السمندل راجع، هو دائما يتأخر ولكنه راجع.

قامت هالة وقالت: تعالى حتى أفرجك على البيت. تبعتها الى بيت المجاور وهمست في أذني بأن لا أذكر طارق بلفظ المرحوم لأن والدتها تغضب من ذلك، وفتحت هالة الغرفة الأولى التي كان بها ثلاثة سرايرخالية من أي فرش ودولاب وكان الغبار يغطى كل شيء، وفى الغرفة الأخرى كان يوجد سفرة كبيرة حولها حوالي ثمانية كراسي، قلت في نفسي هنا كانوا يرتبون لإنقلابهم. فسألتها: يبدو أن لا أحد دخل هنا من سنين.

قالت: منذ وفاة طارق أمي رفضت أن يؤجر أبى البيت لأن طارق سيعود.

قلت: لماذا تعتقد أمك لهذه الدرجة إن إبنها عائد إنها تبدو متأكدة.

صمتت هالة لحظات ثم قالت: لأن طارق أعطاها قبل أسبوع من وفاته ملكية دكان كان يملكه في السوق العربي فكتبه باسمها وعندما سألته لماذا قال لها انه قد يسافر والدنيا غير معروفة، وهى تقول أن طارق لم يكذب عليها أبدا فهي تعتقد إنه سافر.

قلت لها: ولماذا لم يعطى الدكان الى والدك في العادة تكون هذه الأشياء بين الابن ووالده.

قالت: طارق كان دائما الإبن المتمرد على سلطات الأب على عكس من حامد فهو المقرب الى والدي حيث أن هم حامد الأول والأخير هو إرضاء أبى حتى أن طارق كان يتهمه بأنه نسخة مكررة من أبى، بينما الوالدة كانت تتحزب الى طارق حتى لو كان مخطئا ولذلك فالعلاقة بين طارق وأمي كانت خاصة جدا.

قلت: وأين أنت من كل هذا؟.

قالت: أنا كنت حمامة السلام بين المعسكرين، فأنا البنت الصغيرة الوحيدة المدللة، وكنت أستغل الموقف عندما أطلب شيء من حامد ويرفض أقول له أنى ذاهبة الى طارق فهو لا يرفض لي طلب فيستجيب لي على الفور، والعكس

صحيح عندما أذهب الى طارق يفعل نفس الشيء، كانت بينهم غيرة عمياء، ولكن حامد هو من تحمل نفقات هذا البيت، فقد كان راتب والدي قليلا، فترك حامد الجامعة وسافر الى السعودية حيث إستطاع أن يشترى لنا هذا المنزل الذي كنا ندفع إيجاره، ولكنه منذ أن عاد لم يستقر في عمل بينما طارق كان ناجحا في التجارة وفى الجامعة، وأصبح هو من يتحمل النفقات البيت، مما جعل حامد يتحرش به وهو من جعل الوالد يمنعه من الحضور متأخراً ليلاً، فما كان من طارق الا أن سكن هنا وكان جيمس يأتى يومين أو ثلاثة للمبيت حتى يعتقد الوالد أن جيمس هو من يدفع الإيجار، والغريب أن حامد فتح دكان طارق وجعله لتجارة مواد البناء والآن أصبحت أوضاعة ممتازة حتى انه إشترى سيارة أخر موديل.

قلت: والكافتيريا لقد سمعت أيام الجامعة إنها كانت تدر مبلغا خرافيا.

قالت: إنها ملك جيمس، مع أن عقد الإيجار باسم طارق، وذلك لأن صاحب العقار رفض تأجيرها لجيمس.

قلت: والمخازن في المنطقة الصناعية مؤجرة باسم طارق؟.

قالت: إنها ليست إيجار، بل ملك لجيمس.

قلت:هذا غريب، كيف يؤجر كافتيريا ويتملك المخازن من المفروض أن يكون العكس هو الصحيح، وأين أموال طارق أليس له غير الدكان الذي تركه لوالدتك.

قالت: طارق كان يصرف كثيراً على الجمعيات المشارك بها ولو كان له دخل آخر لأخبره لوالدتي. كنا تقف خارج الغرفتين ولاحظت أن هناك غرفة في الخلف فذهبت وفتحتها كانت عبارة عن مخزن به بعض الأثاث المحطم، ولاحظت أن هالة لم تأتى معي بل ظلت تنظر الى من بعيد فشعرت إنها تظننى فضولية أكثر من اللزوم، رجعنا وجلسنا مع والدتها وبدأنا في شرب القهوة، التي قالت بدورها أن

السمندل كان يشربها معها يوميا ويخبرني بما يحدث له في الجامعة قلت: لماذا تنادينه بالسمندل.

قالت هالة: يعنى طائر الليل الحزين. لأنه كان يعود دائماً متأخراً ليلاً.

قالت والدته: كان يساعد زملائه في مصاريف الدراسة، وكان مشتركا في جمعية المكفوفين، وجمعية بيوت العجزة، كان فخري وكان سندي، ثم أخذت تبكى وأحسست بأنها بدأت تقتنع بوفاة ابنها، لم يقطع صوت بكائها إلا صوت التلفون قادما من داخل البيت فذهبت هالة وجاءت بعد لحظات وهى تقول: حامد يسلم عليك ويقول لابد أن تنتظريه وأبى على الغداء.

قلت: لا أستطيع تعلمين أنني يجب أن أعود بأبي الى البيت.

قالت: على العموم هو يريدك في أمر هام.

إستغربت ذلك وقلت لها: في أى وقت يتصل بي سواء في المكتب أو البيت. ثم ودعتهم ووالدتها تدعو لي بالصحة والعافية.

كنت أقود السيارة بسرعة فقد تأخرت على أبى وكنت أفكر في ماذا يمكن أن يريدني حامد ووالده لا بد أن يكون وصلهم خبر أنني أسال الناس في موت طارق وشعرت بالخوف لابد إنهم غاضبون خصوصا وأن هالة قالت إنهم السبب في موت طارق، وما أن وصلت الى المكتب أخبرني أبى بأن حامد المغربي إتصل بي وسألني من هو فقلت له: إنه أخ أحد زملائنا. كنت أتهرب منه فلو علم بما أفعله لن يدعني أخرج من البيت ثانية.

فقال: أعرف زملائك جميعا أى واحد منهم.

قلت: طارق المغربي، نظر الى باستغراب وأردف سائلا: كان معكم في الكلية؟.

قلت: كان في كلية الهندسة.

قال: لا أذكره، مع أنني سمعت هذا اسم من قبل. فشعرت بأن أبى سيعلم به لاحقا فمن الأسلم أن أخبره أنا، فقلت: إنه كان خطيب منى حسين.

قال: ألم تتزوج منى.

قلت: تزوجها مغترب يعمل بالأمارات. كنت أحاول أن أبدو مشغولة بجمع أوراق من المكتب حتى نغادر .

قال: نعم، لقد قال لها والدها هذا الإسم عندما جاء الى بيتنا، وأصر على تزويجها الى إبن أخيه، ولكن لماذا تركته؟. شعرت أنني كل ما أجيب على سؤال أتورط في سؤال أخر.

قلت: توفى في حادث. وإتجهت الى الباب وما كان منه إلا أن تبعني صامتا ولكنني شعرت بأنه يشعر بأن هناك شيئا لا يعرفه ولا أرغب في الحديث فيه.

وما أن وصلت الى البيت حتى قابلتني والدتي قائلة: إتصل بك واحد إسمه حامد المغربي، وشعرت بالندم لإعطائى أرقام التلفونات لهالة، ثم أردفت: أخذ منى عنوان المنزل وقال إنه سيأتي بعد صلاة المغرب. نظر أبى وأمي الى منتظرين توضيحا ولكني قفزت الى السلم وإتجهت الى غرفتي، وأحسست أن حامد مصر على مواجهتي اليوم وتمنيت لو بقيت للغداء معهم، لإنتهى الموضوع بدون أن يعلم أهلي، جاءت والدتي بعد دقائق وجلست أمامي وهى تنتظر منى أن أتحدث، وعندما لم أتكلم قالت: والدك قال إنك تركت المكتب منذ الصباح، والآن هذا الرجل سيأتي بعد المغرب هل هو موضوع زواج. ضحكت من أعماقي فصحيح كل في همه.

وقلت لها: لا أعرف لماذا هو قادم.

قالت وخيبة الأمل على وجهها: من هو؟.

قلت: إنه شقيق المرحوم طارق خطيب منى حسين، وصدقيني لا أعرف لماذا هو يريد مقابلتي، لقد قابلته مرة واحدة عندما ذهبت مع فدوى الى بيتهم للعزاء.

قالت: قد يكون أعجب بك، ماذا يعمل؟.

قلت: لا تتعبي نفسك فهو لم يكمل الجامعة. خرجت من الغرفة وهى تلعن اليوم الذي جعلتني أدرس في لندن، جلست في غرفتي خائفة وأنا أحضر دفاعي لابد أن أكون حازمة معه ولن أترك له فرصة إتهامي بشيء.

أفقت من النوم على صوت خالد يقول لي: هناك عريس في الحديقة ينتظرك.

قلت له باسمة: لماذا تعتقد إنه عريس.

قال: سيارة آخر موديل أمام منزلنا، ويلبس جلابية وعمة وشال وحذاء من جلد النمر من النوع الفاخر، لا أعتقد أنه جاء ليذهب معي الى السينما.

قلت: هل جاء لوحده.

قال: مثله لا يحتاج مرافقين.

حمدت الله أن والده لم يأتى معه، أخذت دشا سريعا ونزلت وأعطتني أمي صينية الشاى ووجدت والدي جالس مع حامد في الحديقة سلمت وجلست في أبعد كرسي توقعا لمشاجرة، ولكن حامد كان مبتسما ويتحدث مع أبى بهدوء عن إنتهاء الشتاء وبداية أشهر الصيف. وأخذ أبى يصب الشاى بهدوء كأنه يرسم لوحة بيديه، ظللت صامتة فترة من الوقت منتظرة الفراغ من المواضيع الجانبية، ثم إلتفت الى حامد قائلا: كنت أريد أن أدخلك طرفا في موضوع خاص بي.

شعرت أن ما كنت أفكر فيه ليس صحيحا، فأكمل قائلا: أنت تعلمين أنني كنت قد تقدمت لخطبة فدوى عندما كانت طالبة في الجامعة، ولم توافق حينها لأني لم يكن لي عملا ثابتا، بالإضافة الى إنها تريد إنهاء دراستها، والآن الأوضاع تغيرت وقد إنتسبت الى الجامعة وسأكمل العام القادم إنشاء الله، فأردت منك أن تكلميها في الموضوع. وشعرت أن فدوى خدعتني لم أكن أعرف هذا الأمر، وقلت في نفسي يبدو أنني أحتاج لمعرفة الكثير، لماذا كل شخص أقابله لا يقول الحقيقة كاملة، قلت: ولماذا إخترتني أنا، سامية هي أقرب الى فدوى منى.

قال: لأن سامية وكل شلة طارق لم يكونوا متحمسين لي خصوصا وإنهم شاهدوا مشاجراتنا أكثر من مرة، ولكنك لم تكوني على علاقة جيدة مع طارق.

قلت: طارق لم يكن موافقا؟.

قال: لم يتدخل، ولكنه لم يكن متحمسا لأنه لم يكن لدى عمل ثابت. شعرت بالتعاطف مع حامد ترك مستقبله في سبيل أسرته، وعندما فكر في نفسه لم يقف معه طارق.

فقلت: طارق كان من المفترض أن يقف معك.

قال: الحقيقة هو عرض على أن أدخل معه في التجارة ولكنني رفضت أن أقبل عملا منه. إبتسم والدي وقال: الغيرة بين الإخوان شيء عادى.

رد حامد سريعا: خصوصا عندما تأتى المساعدة من الأخ الأصغر.

قلت: لماذا لم تطلب من أختك هالة أن تفاتح فدوى مباشرة.

قال: هالة رفضت لأنها فاتحتها المرة الأولى ولم توافق فقالت إنها لا تريد أن تحرج نفسها أو فدوى.

قلت له: سأساعدك في هذا الموضوع ولكن بشرط.

قال: ما هو ؟

قلت: سأطلب منك المساعدة لاحقا فلابد أن تساعدني.

نظر حامد وأبى إلىّ باستغراب. وقال حامد : بدون أن أعرف نوع المساعدة.

قلت: نعم وأريد منك وعدا صريحا أمام أبى.

فرد والدي مبتسما: ولكن هذا ليس عدلا.

قلت: عليه أن يقبل أو يرفض.

صمت حامد قليلاً ثم قال: هل ما ستطلبينه يمكنني فعله.

قلت: لو لم يكن بمقدورك لما طلبته منك.

قال: إذا أنا موافق. ثم قال مبتسما: أنت فعلا بنت الرياض التي أخافت شلة طارق كنت معجباً بك قبل أن أراك.

قال والدي: لماذا كان يخافون منها.

قال حامد: كانوا قد دبروا مقلب قي الطلبة الجدد، وبلغهم من سامية أن عزه ستبلغ الشرطة عنهم بتهمة النصب، وقد سمعت عباس يتشاجر مع طارق وهو يقول: لقد قلت لك لا داعى لأخذ عشرين جنيها منهم، لأن ذلك سيضعنا تحت طائلة القانون ورد طارق: بأنه صرف ضعف المبلغ الذي أخذه منهم على العشاء، وكانت سامية خائفة: وهى تقول لابد أن تذهبوا لتعتذروا منها، فرد طارق: إنهم ذاهبون غداً إلى دارفور وعندما يعودون سيرون ماذا يحدث، وخرجت سامية غاضبة لأنهم تركوها وحيدة.

قال والدي: هو طارق من ضحك عليك في أول يوم من الجامعة.

قلت ضاحكة: أرأيت كيف أرعبتهم إن إبنتك لم تكن لقمة سائغة.

فسأل أبى حامد: هل توفى المرحوم في حادث سيارة. وأخذت أنتظر حامد أن يرد على السؤال، فقال وهو يقف وينظر الىّ: حادث حريق في مبنى. وخرج وأبى يوصله إلى الباب وأنا أقول له في سري سأطرح عليك هذا السؤال لاحقاً ولكن لن تكون هذه هي الإجابة.

إنقلاب مؤجل

فى الأيام التالية لم أفعل الكثير فقط إتصلت بفدوى أخبرها بأنى أريدها لأمر خاص وأرسلت رسالة إعتذار مع أديبة إلى فيصل قلت فيها: إلى شاعرنا وكبيرنا أعتذر مما بدر منى، ولكنى لا أعتذر عن ما أعتقده وما يعتقده المرحوم طارق أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون. أختك عزة الرشيد. وكانت أديبة سعيدة بالرسالة عندما علمت إنها رسالة إعتذار، فقد كانت لا تريد ترك العمل، ولن تستطيع أن تعارض فيصل، وكنت آمل أن تكون للرسالة وقع فى نفس فيصل لأنى إستخدمت نفس الكلمات التى أخبرها طارق الى سامية، فمن المؤكد أن طارق أسمعه إياها، ولكن مرت الأيام التالية لم يأتينى خبر من فيصل، المشكلة أن فيصل يعرف طريقة تفكيرى فلذلك كل محاولاتى معه بائت بالفشل وتسرب اليأس الى نفسى ماحدث بين فيصل وطارق لن يخرج أبداً إلى النور، فطارق مات وفيصل كالصخر، ولم يعد هناك ما أفعله سواء أن أهاجم هالة ولو أنى أعلم إنها لن تقول الحقيقة. ولكن أخيراً ظهرت فدوى جائتنى فى المكتب صباحا وإعتذرت عن تأخرها فى المجىء لمدة ثلاثة أيام، لأنها كانت مشغولة لأن شريكها فى العمل ترك السودان فقد حصل على عقد عمل فى السعودية وأصبح المكتب باسمها، كانت تبدو سعيدة جلست وهى تقول: كما إننى أعلم أن ماتريديننى فيه يمكن أن ينتظر.

قلت مبتسمة: ولكنك لا تعرفين ماذا أريد.

قالت: أليس بخصوص المرحوم طارق؟.

قلت: لماذا أخفيت عنى أن حامد طلب يدك؟.

تفاجأت بالامر وردت مدافعة: هذا أمر خاص ليس له علاقة بالوفاة، بالإضافة إلى إننى خفت أن تفلت منك عبارة وأنت تتحدثين معهم مما يسبب إحراجاً للجميع.

قلت: هل تحلفين إنك لاتخفين عنى شيئا آخر. صمتت ولم ترد مما أثار غضبى ولكنى كتمت مشاعرى وقلت: حامد يطلبك للزواج مرة أخري ماذا أقول له؟
ظلت صامتة فأكملت حديثى: إنه منتسب إلى الجامعة وسيتخرج العام القادم، كما أنه أصبح ميسور الحال فى التجارة، ليس سهلا أن تجد أى بنت من يتمسك بها كل هذه السنين. أسندت ظهرها إلى الخلف وأخذت تنظر إلى السقف كأنها تتذكر شيئا ما ثم قالت: موافقة. تفاجأت بردها فقد كنت أعتقد إنها سترفض، أو على الأقل ستطلب وقتا للتفكير. ثم قالت كأنما تحادث نفسها: كان حامد قد عاد من السعودية وكان يعامل طارق كطالب أو كطفل فهو من إشترى البيت وهو من ينفق على الأسرة، ثم خلال شهرين نفذت نقوده وأصبح يبحث عن عمل وطارق إزدهرت تجارته مع جيمس، وكان زوار طارق ليس طلاباً فى الجامعة فقط بل مهندسين وأطباء فالعمل التطوعى أدخله فى دائرة كبيرة من المعارف، ثم بدأ حامد يحاول بكل جهده أن ينجح فى أي نوع من التجارة، وكان كلما يفشل، يسقط فشله على طارق وبدأت مشاجراته تزداد فأصبحت بحضور الضيوف، فأصبح حامد منبوذا من كل الشلة، كانوا يتجنبونه، إلا أنا فقد كنت أسأل عليه وأتحادث معه، لأننى منذ أن أخبرتنى هالة أنه ترك جامعته بسبب أسرته، كنت أشعر بأنه رجل بمعنى الكلمة، ولكنه تسرع فى طلب يدى كنت مازلت فى أول سنه وهو لم يكن له عمل، ثم بعد التخرج خطبنى أحد أقربائى ولكنه يريدنى أن أذهب معه إلى لندن، وكنت أخاف من الغربة لا أعلم لماذا ولكن كل من يأتى من الخارج بعد سنين من الإغتراب، يكون فى أزمة لا هو قادر على مسايرة المجتمع ولا هو قادر على الإستمرار فى الغربة، كما حدث مع حامد، الآن فقط إستطاع أن يساير الوضع ولكن بعد أن ألغى خيار الغربة نهائيا، وحتى أنت إنسانة ناجحة ولكنك تعيشين فى السنة التى تركت فيها البلد، لأن ماتركتيه فى لندن أكثر مما لك هنا، الغربة ليست الحصول على مال أو علم والعودة، الغربة عقد مقارنة بين وطن

سىء تحبينه وبين مهجر جيد تريدينه فى وطنك، فلا المهجر سيأتى الى الوطن ولا الوطن سيكون على مستوى المهجر، فالمقارنة تعنى خيارين فأى ما أخترت فقد فقدت الآخر، وما أن يكون هناك إحساس بالفقد يعنى أنك خسرت السعادة. صمت ولم أستطع أن أرد عليها لأننى لا أشعر فعلا بالسعادة. فأكملت حديثها: نعم سأتزوجه ليس لأنه يعجبنى فقط ولكن لأن أسرته لن أجد مثلها، فلن أجد أخت مثل هالة ترفض أن تتزوج وتسافر مع حبيب عمرها من أجل أمها، أو نسيب مثل والدهم، يحترم مشاعر زوجته عندما ترفض أن تؤجر المنزل لأن إبنها سيعود، وهو يعلم أن الإبن مات، لم يخبر زوجته أنه ليس لديه ما يصرف منه، أو أمهم التى تعاملك من أول مرة كأنك هالة إبنتها، أو المرحوم طارق الذى علمنى أن يكون لى موقف من كل شىء فى الحياة، لن أفعل مثلك أو مثل منى حسين أنا باقية هنا حتى الموت.

لم أجد ما أقوله فهى أول شخص أقابله منذ عودتى يعرف ما يريد، رفعت سماعة التلفون وإتصلت بهالة، وسألتها إن كان حامد موجوداً فقالت إنه ملازم الفراش من أول أمس، قلت لها أننى سأحضر حالا، وضعت السماعة وقلت لفدوى مبتسمة: يبدو أن حامد إعتقد إنك رفضت، لأننى تأخرت فى الرد عليه ولم يعلم أن التأخير من العروس، إنه مريض.

قالت: أنت السبب لو قلت لى أن هناك عريس لجئت فى نفس اللحظة، ضحكت وقلت لها: سأذهب إليهم الآن.

قالت: أنا قادمة معك.

قلت ضاحكة: يجب أن تذهبى وتخبرى أهلك وليس أهله، أنت عروس الآن ولست محامية مطلوب حضورها فى أى مكان.

قالت: لا.. أريد أن أكون موجودة عندما يدخل الفرح هذا البيت، كما أنه ليس قليلا عليه بعد الذى فعله أن أذهب اليه حتى يعرف اننى لست موافقة فقط بل جئت لأخطبه.

قلت: لا يجوز أن تحضر العروس الى بيت نسابتها، ثم ربما لم يخبر أهله بالأمر.

صمتت قليلاً ثم قالت: معك حق، ولكنى سأنتظرك فى منزلنا، دخلنا مكتب أبى وأخبرته بأننى ذاهبة مع فدوى لأنها وافقت على حامد فقال لى وهو يبارك لفدوى: يبدو أن لك مواهب ليس فى الإقتصاد فقط.

إستقبلتنى هالة وهى مستغربة من حضورى بهذه السرعة، وأدخلتنى سريعا الى الصالة وذهبت لتخبر حامد أن هناك ضيوف، وما أن دخلنا عليه الغرفة، إستغربت من الهزال الذى ألم بجسمه فى ثلاثة أيام فقط، كان راقدا فى السرير بلا حراك وأخذ ينظر الى بتساؤل يريد أن يعلم ان كنت فاتحتها فى الزواج قلت مبتسمة: جئت أخطبك لفدوى، موافق أم لا؟. ظل صامتا ينظر الى، قلت فى نفسى يعنى لو رفضته فدوى لقضى عليه، قلت مبتسمة: وافقت. فما كان منه إلا أن إنفجر فى البكاء بصوت خافت، فما كان من هالة إلا أن أطلقت الزغاريد، وخرجت لتخبر والدتها، فقلت له: ياعريس عيب عليك، أخذ أنفاسه لحظات وقال لى: شكرا لك لن أنسى لك هذا، هذا أول شىء أتمناه فى حياتى وأحصل عليه. فجأءة دخل والده الى الغرفة، مستفسراً عن الزغاريد، كنت أول مرة أقابله، كان نحيفاً طويلاً شعره عبارة عن قطعة من القطن وجهه نحت فيه الزمان كما يشاء، يلبس جلابية ويرتدى نظارة ويحمل جريدة مطوية فى يده سلمت عليه وقلت له: مبروك ياحاج، فدوى وافقت على حامد، نظر الى حامد طويلاً، وشعرت بأنه لم يكن يعرف أن إبنه تقدم اليها، ولكنه تقدم ناحية إبنه وأخذ يربت على كتفة وهو يقول: مبروك تستاهل، ثم دخلت أمه الى الغرفة وأخذت إبنها بالأحضان، بدأ

الجيران بالقدوم، فأدركت أنه حان وقت الهروب. ذهبت الى منزل فدوى بأركويت، وتعرفت على والدتها لأول مرة فقد كان والدها متوفى، وكان لها أختان أصغر منها، ثم ما لبث أن انتشر الخبر فى الحى، ثم بدأ أقاربهم بالحضور وأصبح البيت مثل خلية النحل، وكانت الساعة تجاوزت التاسعة مساءا عندما إستطعت أن أهرب من فدوى وأرجع الى البيت. ما أن دخلت المنزل وجدت خالد جالساً فى الحديقة مع أمى، كان يبدو عليها الغضب، فما أن رأتنى حتى صاحت:" يا البائرة زوّجى نفسك أول، بدلاً من تزويج صاحباتك". أحسست بأنه يجب أن أمضى مع أبى عقد كتمان للأحداث، وحتى لا تبدأ فى حديثها مجدداً دخلت مباشرة الى البيت وصعدت الى غرفتى وأغلقت الباب، ولكنها لم تستسلم فأخذت تضرب باب الغرفة من الخارج حتى أفتحه ولكنى كنت أعلم أن هذه هى الطريقة الوحيدة عندما تكون غاضبة. ما أن تمددت فى السرير حتى إجتاحتنى مشاعر من الحزن، إن فدوى كانت محقة أنا ماذا أريد؟، ولماذا هذا الحزن فى داخلى أصبح يزداد يوما بعد يوم، هل هى مافعلته بى الغربة، أخذت أبكى بدون أن أعرف لماذا كل هذه الدموع.

فى صباح اليوم التالى لم أستطع النهوض من السرير، يبدو أننى إلتقطت العدوى من حامد، كانت درجة حرارتى عالية وأشعر برأسى ثقيلاً كأننى أحمل صخرا، لم أعرف إذا كان نوعا من البرد، أو إنها الملاريا، ولكنى رفضت بشدة الذهاب الى الدكتور، فقد أحسست أن مرضى ناتج عن حالتى النفسية المتدنية، وكانت أمى تشعر بالذنب، وكانت تلازمنى طيلة اليوم وكانت تحاول محادثتى ولكنى كنت أظل صامتة فلا رغبة لى فى الحديث، ورجع خالد إلى العمل ثم جاءت أديبة لزيارتى فسألتها عن رسالتى إلى فيصل، فقالت: أعطيته الرسالة وقلت له أن عزة تعتذر منك فشعر بالحرج ولكنه عندما قرأها مزقها ودخل غرفته، ثم سألتنى: لماذا أنت مهتمة بعلاقته بطارق، لو كان سيخبر أحدا بها لأخبرنى.

قلت: لأنه يخجل منك، أتعلمين أنه كان مشتركا مع طارق فى محاولة إنقلابية وأن كل ماكان يقال عن سوء علاقتهم تمثيلية حتى لا يلاحظ الأمن ذلك، وأن فيصل هو من يتحمل مسؤولية وفاة طارق، حتى أننى سمعت أن فيصل هو من وشى بهم.

إنتفضت أديبة من جلستها وقالت غاضبة: هذا كذب ولا أسمح لك بقول هذا الكلام، إن كان هناك شريفا واحدا فى هذا البلد فهو فيصل.

قلت وأنا أمثل الغضب: لماذا تحملينى الذنب، أنا أقول لك ما سمعت ثم ذهبت إلى فيصل ليقول لى الحقيقة ولكنه رفض الدفاع عن نفسه، فماذا تريدين منى أن أفعل، لم أكن أريد أن أنقل لك هذا الحديث حتى لا تغضبى.

هدأت قليلا ثم جلست وأخذت تفكر، ثم قالت: ولكن حسب علمى أن طارق أشعل النار فى نفسه.

قلت: حتى هذا الخبر يقولون أنه إشاعة أطلقها فيصل حتى يحمى نفسه. ظلت صامتة تفكر، وأخذت أنظر اليها، أديبة هى الأكثر براءة فينا، كانت دائما حسنة النية، صدقت كل كلمة قلتها، والآن هى من سيجعل فيصل يتحدث، كنت أشعر بأننى شريرة ولكن لم يكن هناك من طريقة أخرى، وكنت أعلم لو تأكد فيصل أننى أكذب فسأخسرهم إلى الأبد، ساد الصمت بيننا فترة طويلة وهى تنظر إلى كنت مستلقية أمامها على السرير محاولة أن أبدو كأنى أشرف على الموت، فلا أحد يشك فى كلام المريض، نظرت إلى بعطف وقالت وهى تحاول أن ترفع من معنوياتى: سأقول لك خبرا مفرحا لقد حصلت لك على مكان عمل هشام، إنه يعمل فى وزارة العمل، ومكاتبهم بالقرب من شارع الحرية. تذكرت هشام، من المفروض أن يكون أول شخص أقابله منذ عودتى وأحسست أنى أحتاج اليه، أريد أن أكسر حاجز الوحدة الذى يلفنى، يجب أن أزوره غدا حتى ولو كنت مريضة، وذهبت أديبة مودعة وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة، تناولت بعض

الحبوب المقوية، وشربت كوب من العصير مع حبة منومة فقد كنت أريد أن أنام جيدا ليوم غد، ولكنى لم أفق إلا على صوت خالد أخى الذى كان يهزنى بقوة، كنت أشعر بالنعاس الشديد وقلت له: ماذا هناك؟. قال: فيصل وصديقتك أديبة ينتظران فى الصالون، قلت: كم الساعة؟.

قال: تجاوزت الحادية عشر، وقد قلت له أنك نائمة ولكنه يصر على مقابلتك.

بللت وجهى بالماء، ولففت الثوب حولى، ونزلت الى الصالة كانت والدتى تنظر الى صامتة فهى لا تفهم ما يحدث وإتجهت الى الصالون، حيث كان فيصل جالسا بالقرب من أديبة، سلمت وجلست مقابلهما، كنت أعلم أن فيصل كان مندهشا لعلمى أن هناك انقلاب، ثم بعد أن قرأ الرسالة علم أن ما كان يقوله طارق بينهما قد وصل الى مسامعى، واليوم عندما أخبرته أديبة بما جرى بيننا صدق أن الناس يقولون ذلك عنه فعلا، كسر حاجز الصمت قول أديبة: فيصل قال أنه سيحكى لك كل شىء بهذا الموضوع، ولهذا أتيت معه أريد أن أعرف ما يحدث حتى أننى تركت الأولاد عند جارتى. إعتدل فيصل فى جلسته وكان ينظر الى بغضب، فقد كان واضحاً إنه غير مرتاح لأسلوبى وقال: أول مرة قابلت عباس وطارق كان يوم مشاجرتهم مع حارس السكن فى الجامعة كان منظرهم مزرى وكان لى صديق لديه سيارة فأخذناهم الى المستشفى وعندما عدنا فى الفجر أخذنا أمتعتهم الى غرفتى حيث كان يسكن معى إثنان من دفعتى، وكان لدينا سريرا واحدا خاليا، فأخذه عباس، لأن أهله من مدينة الفاشر بينما عاد طارق الى منزلهم فى الصحافة حتى يعثرون على غرفة ثانية، ولكن مع إستمرار الدراسة إستقر عباس معنا، وأصبح طارق عندما يتأخر فى الجامعة ينام معنا، ومع الأيام أصبح طارق من أشد المعجبين بى وكان يحضر كل الندوات الشعرية، ثم كانت هناك ندوة شعرية تحولت الى سياسية لدكتور عمر فضل بدار الأساتذة بالجامعة حيث كان يقول: أن استقلال السودان تم فى عام ستة وخمسين

وإستمرت الديمقراطية لمدة عامين ثم ما لبث أن قفز العسكر الى السلطة بقيادة الفريق عبود وإستمر العسكر حتى عام أربعة وستين حيث سقطوا بفعل ثورة إكتوبر وإستمر الأحزاب فى الحكم حتى عام تسعة وستين، حيث قفز العسكر بقيادة نميرى وإستمروا حتى الآن، ولكنهم سيسقطون لأن ليس هناك حكم عسكرى ناجح فى أى بقعة فى العالم، ولكن السؤال هو لماذا لا تنجح الديمقراطية، لماذا لم تفلح الديمقراطية فى إبعاد العسكر أكثر من عدة سنوات، ذلك لأن الديقراطية ترتكز على طائفتين، وإذا كانت أغلبية مؤيديهم من الطبقة الجاهلة وهم الأغلبية فى هذا البلد، ويعيدون إنتخابهم لأنهم يؤمنون أن لهم بركات من السماء، مما جعل الطبقة المثقفة لا تعرف ماذا تفعل، فلا العسكر سيقدمون الحل ولا الديمقراطية ستفرز ما يرضينا. فما أن أكمل الدكتور محاضرته حتى سألنى: هل تعرف هذا الدكتور شخصيا. فقلت كاذبا: لا. فذهب طارق اليه قبل أن يركب سيارته وتحدث معه على انفراد، وبعد أن عدنا سألته فى ماذا كنت تتحدث مع دكتورعمر فضل، فقال لى: إقترحت عليه أن الحل أن يحدث إنقلاب مدنى، أى أن يسيطر مجموعة من العسكر تحت قيادة مثقفة مقاليد الحكم، ولكن ما لم يكن يعرفه طارق، أننا كنا نعد لمثل هذا الإنقلاب فعلا وأن دكتور فضل كان يمثل القيادة البديلة. فسألت أديبة وهى تستمع باهتمام شديد: ما معنى ذلك؟.

فرد فيصل: عند التخطيط لأى إنقلاب يكون هناك رئيسا فاذا حدث له شىء أثناء الإنقلاب، يكون هناك بديل هو من يواصل خطة الإنقلاب، وهو كان دكتور عمر فضل، وكانت أديبة كعادتها تقاطع حديثه فسألته: من كان القائد الأول.

فرد فيصل: لن أتطرق لأسماء.

فقالت: ولكنك ذكرت دكتورعمر فضل.

فقال: لأنه قتل. فطلبت من أديبة أن لا تقاطعه، فواصل حديثه قائلا: كانت علاقتى مع دكتور فضل قوية جدا، فغير أنه كان أستاذا للعلوم السياسية، فاننا

على صلة بالشعر والأدب، كان قادة الإنقلاب سبعة من أساتذة الجامعات وثلاثة من النقابيين وخمسة من أبرز الرتب العسكرية، لم أكن أعلم وقتها عن العسكريين منهم شيئا، وكنت أنا الوحيد الذى مازلت طالبا، والذى حدث أن الرقابة على الأساتذة لأن لهم نشاط معارض كانت مشددة جدا من قبل جهاز الأمن، مما أصبح صعبا عقد إجتماع، فما كان من دكتور فضل إلا أن أقنعهم بالإستعانة بطالب يكون همزة وصل بين العسكر والأساتذة لأن الطلبة لا يأخذهم جهاز الأمن بجدية فيمكن أن يتحركوا بحرية، فوافقوا على إسمى فقد كنت بدأت بالقاء الشعر فى الجامعة وأصبح لإسمى معنى داخل الجامعة، وأصبحت أنقل الرسائل حتى تم تحديد الإنقلاب وكان مفترضا أن يكون فى عام واحد وثمانين، وأدخلت طارق بديلا لى فى حال حدوث أى شىء، ودربته جيدا، ولكن كان هناك أحد الضباط الصغار الذى لم يكن راضياً عن وضعه فى الجيش تلقى ترقية وتغير وضعه، فوشى بنا ولكنه لم يكن يعلم غير إسمى والرئيس الأول للانقلاب والعميد الذى جنده، فتم إعتقالى لمدة عامين فى سجن كوبر، وتم تأجيل موعد الإنقلاب الى وقت لاحق، وكان من حظنا أن سمعة هذا الضابط لم تكن جيدة، فكانت هناك نسبة من الشك حول كلامه خصوصا أنهم إستبعدوا إحتمال إشتراك طالب فى عمل إنقلابى، مما أبعد عنا شبح التصفية الجسدية، ولكن دكتور فضل وثق علاقته يطارق كبديل لى فقد شجعه عدم تصفيتنا على الإستعانة بطالب أخر، وكان مصرا على التنفيذ السريع خائفا من أن يؤثر إستمرار تعذيبنا الى الإعتراف عليهم، ولكنه بدأ يصتدم بطارق الذى لم يكن يقبل دور المراسلة فقط مثلى، بل أن طارق طلب معرفة جميع المشتركين فى الإنقلاب، لأنه أول من يعدم إذا حدث أى خطأ، وبدأت الخلافات تزداد بين القادة الذين أجمع معظمهم على إنتظار إطلاق سراح زعيمهم من السجن، فغادر دكتور عمر فضل البلاد لأنه كان يعتقد أن مسألة وصول الأمن إليهم ما هى إلا مسألة وقت، فأصبح طارق

وحيداً بدون زعيم مباشر وفى يده خطة إنقلاب وأسماء المنفذين، ولكنه كان يفتقد الى المصدر المالى، فبدأ باستغلال إسم دكتور فضل بابلاغ الجميع أن دكتور فضل وافق على تأجيل الإنقلاب الى عام ثلاثة وثمانون، ثم بدأ بتغيير الخطة والأفراد، فاقترح أن يتم إستبدال الرتب العليا من الجيش برتب صغيرة، لأن الرتب العليا لن نضمن ولائها بعد نجاح الإنقلاب، وأن تتم السيطرة على كل رئاسة سلاح أو معسكر من داخل المعسكر بدلا من تحرك قوات الإنقلاب من القيادة العامة، ثم بدأ بتجنيد الضباط المحالين للصالح العام فى فرق خاصة للسيطرة على الكبارى الأربعة التى تربط العاصمة المثلثة، وفرقة خاصة للسيطرة على القصر الجمهورى، ومبنى الاذاعة والتلفزيون، وإقترح هذه الخطة على أن دكتور عمر فضل هو من يريد موافقتهم عليها، مستغلاً بأنه الوحيد من كان يتصل بالدكتور فى الخارج، وأخذ موافقة بالإجماع على خطته، ولكن كانت تواجهه مشكلة الإتصال بين المجموعة أثناء الإنقلاب ومشكلة التمويل فقد كان يحتاج الى الكثير من الدولارات، وأصبح هدفهم الوحيد هو جمع المال وبعد ذلك إدخال الأسلحة للفرق الخاصة، ولذلك أصبح ينشىء الكثير من الجمعيات الخيرية وكانت إدارة هذه الجمعيات من إختصاص أساتذة الجامعات، محاولين جمع أكثر تبرعات ممكنه، فى هذا الوقت أخبرنى الأمن أن والدتى مريضة، وإنها قد تتوفى فى غضون أيام، ثم أتوا بصورتها فى إحدى المستشفيات وبجوارها أبى، وطلبوا منى أن أعترف على البقية مقابل إطلاق سراحى فأصررت على أننى لا أعلم شيئا، وكانت الزيارة ممنوعة، مما سبب قلقى عليها تدهور حاد فى صحتى، فأصبحت لا أكل أو أشرب وكنت أحس بأننى خذلتها وأدخلت نفسى فى شىء هى من تدفع ثمنه. وإقتنع رجال الامن بأنى قد أموت فى أى لحظة، فأطلق سراحى فى عام ثلاثة وثمانين، فذهبت مباشرة الى كسلا حيث كانت الوالدة قد توفت، مما أصابنى بحالة من الإحباط وتأنيب الضمير، وكان والدى مريضا

فقررت أن أنسحب من كل شيء وأبقى معه بعد التخرج، وزارني طارق في كسلا معزياً في والدتي، فأخبرته بانسحابي وطلبت منه أن ينسى هذا الأمر، فاتهمني بالجبن والضعف وأنني يجب أن أجعلهم يدفعون ثمن وفاة والدتي بعيدا عني، كان ساخطا على كل شيء، وطلبت منه أن يتخلى مثلي عن كل شيء ولكنه قال تأخر الوقت فقد كان قد بدأ بادخال السلاح الى السودان. كان هذا آخر لقاء بيني وبينه، فقد إتخذ مني موقفا فقطع علاقته معي وكنت أنا تحت مراقبة الأمن ففضلت أن لا أقترب منه. صمت فيصل لحظات وكانت عينه تدمع عندما قال: لقد قتلته بادخاله هذا الطريق. قلت له محاولة التخفيف عنه: كل منا يتحمل نتيجة إختياره، ولكنك قلت أن دكتور عمر فضل تم قتله، ألم يكن في الخارج؟.

رد فيصل: قرأت نعيه في الجريدة مذكورا أنه توفى في حادث سير في الخرطوم.

قلت: ولماذا تقول أنه قتل؟.

قال: لقد كان تاريخ وفاته قبل موت طارق بثلاثة أيام.

قلت : أتعتقد أنه أتى لتنفيذ الإنقلاب!.

قال: لا علم لي بأي شيء ولكني متأكد أن طارق لم ينتحر.

قلت: وكيف عرفت؟.

قال: لقد أرسل لي قصيدة قبل وفاته باسبوع لا تحمل أي معنى للانتحار بل هي أقرب الى الإعتذار مني والصمود، وعندها علمت أن موعد الإنقلاب قد إقترب.

أصريت على بقائهم للعشاء، وكنت أحاول أن أجد أي سؤال يزيد من معلوماتي ولكن كان حديث فيصل كله بعيدا عن وقت الوفاة، وإن كان أعطاني فكرة عما كان يحدث، ولكن فيصل نفسه لم يكن يستطيع حتى الإقتراب من طارق، ما أن فرغنا من العشاء، سألني فيصل: هل إنتهينا من هذه القصة الى الأبد؟

قلت ضاحكة : أعذرني كان لابد لي أن أعرف.

قال: لا تعتقدى بأنى صدقت أى كلمة مما قلتيه الى أديبة، ولكننى لن أسلم منها إلا إذا قلت لها القصة كاملة، واليوم ما جاء بى الى هنا لأننى أريدها أن تتركنى أنام.

طلبت من خالد أن يوصلهم الى سوبا فقد تجاوز الوقت منتصف الليل.

فرد خالد مشترطا: إلا إذا رافقتنى. كنت أعلم أنه يريد إخراجى من البيت، فقد كان يشعر بأنى حزينة بدون أن يعلم السبب، تلفحت ببطانية وجلست مع أديبة فى المقعد الخلفى للسيارة، كانت أديبة صامتة شاردة، قلت لها: أخيراً إستطعنا أن نجعل أبو الهول يتكلم.

قالت: إن ما يحيرنى شخص مثل طارق يحضر نفسه لحدث مثل هذا، كيف يجد الوقت لعمل مقلب للطلبة الجدد، كنت أراه طالبا عاديا، ولكنه كان يخفى الكثير.

رد فيصل: إنه تمويه، فالجامعة بها كثير من رجال الأمن وعندما يعلمون بمثل هذه القصة يستبعدون شخص مثل طارق من أى مراقبة. ثم إلتفت إلينا فى المقعد الخلفى وقال: أتذكرين يا عزة أول يوم لكم فى الجامعة، عندما بدأت أتغزل بمنى وأنا أتحدث فى أركان النقاش.

قلت: نعم، ثم جئت وإعتذرت.

قال: كنت أقرأ قصيدة وطنية ثم رأيت أحد مخبرى الأمن قادما، فحولت الى الشعر العاطفى، لأنى لم أكن أريد أن أعود الى السجن ثانية، كانت تصرفاتنا كلها تمويه.

قالت أديبة ضاحكة: تتغزل فى منى، لن تنام اليوم يا شاعر.

رد فيصل: بعد كل الذى فعلته اليوم.

قلت لأديبة: اليوم إستحق النوم، لكن يمكن أن تبدأى من الغد.

قال فيصل ضاحكا: إرضاء النساء غاية لاتدرك.

ما أن وصلنا حتى طلبت من فيصل أن يعطينى القصيدة، إختفى لحظات داخل البيت وعاد ومعه مظروف أزرق وقال لى: لقد أهديته قصيدة فى مظروف مماثل، أعيدية مع أديبة. ودعت فيصل وأنا أعتذر منه على تصرفى ولكنه قال: أعلم عندما تدخلين أنفك فى شىء فلا فكاك منك. قاد خالد السيارة بهدوء مع أن الساعة كانت قد جاوزت الواحدة صباحا، كانت الشوارع خالية، وكان القمر يلقى بنوره على المبانى كأنه يربت على أكتافها يدعوها الى الصبر، وكان الهدوء يلف الخرطوم، لم تكن الخرطوم تستغيث من الحرب، ولكن كانت تطلب رصاصة الرحمة، كان كل شىء يلفه الإهمال، أعمدة الإنارة مطفأة، والطرق بها حفر أكثر من الأسفلت، والتراب يغلف كل شىء، من كان يريد تعريفا للفقر فليأتى الى هنا، فتح خالد الإذاعة كانت تبث عزفا على العود مما زاد الشجن فى النفس، فتحت الظرف وأخرجت القصيدة، كنت أريد أن أعرف ماذا كتب طارق فى آخر أيامه، كان الظرف مكتوب عليه: إلى من حاولت أن أكرهه فلم أستطع، قلت لخالد وهو يقود السيارة بحرص: سأسمعك قصيدة مات صاحبها بعدها ببضع أيام، كانت القصيدة مكتوبة فى ورقة مطوية بعناية فتحتها وقرأت

لا تلين
ولو سرقوا آمال السنين
وأداروا الكأس ليلا ..
وتمايلوا على نتح الأنين
لا تلين ....
ولو وأدوا أبناءك قبل مرحلة الجنين
و أخرجوا أباك من أدراج المشارح
وجه حزين .. لا تلين
ولو أخافوك بأحذية العساكر

وقلبوا الحق باطل

بحلف اليمين ...لاتلين

ولو رموك مريضا فى خرابة

... وحقك قصور

وأرادوك هزيمة وصمت من قبور

لا تنحنى ..لا تلين

فأنت نور ونبراس العبور

وما تبقى من حقيقة

وأنت قيمة ..

ليست بيع أو رهينة

وأنت عبق من عصور

وأنت صحراء وخيمة

وأنت مظلوما يثور

فأنت سيف وأنت فارس

متخطيا كل الكوارث

وقاهرا للمستحيل ..

فلا تنحنى ولا تلين ..

ولا تمت إلا كأشجار النخيل

فلن نمت إلا كأشجار النخيل.

طارق المغربى

نظر خالد اليّ وقال: هذا شخص يعرف إنه سيموت، هل كان مصاباً بالسرطان؟.

إبتسمت وقلت : لا... إنه يعرف ماذا يريد.

قال:وأنت ..أتعرفين ماذا تريدين؟.

قلت: لا.

قال: والعمل، إن أمك قلقة عليك.

قلت: ليس بيدى يا خالد، ليس بيدى شىء.

فى صباح اليوم التالى شددت الرحال الى مكتب هشام مع أننى أشعر بفتور فى جسمى، ووجدت الغفير جالسا خارج مبنى الحسابات، كان يحتسى الشاى بلذة غريبة وصوت مسموع فسألته عن هشام الشيخ وبدون أن يهتم بسؤالى قال: سأكمل لك الإجراءات فى لمح البصر ماهى معاملتك؟. صمت لحظات وقلت: كم تأخذ؟. قال: المعقول. قلت: أتعرف من أنا؟. نظر الى بريبة وصمت. قلت له: أنا مفتشة الوزارة. جئت فى حملة تفتيش. رد بابتسامة صفراء: وهل قررت أن تبدأى بالصغير. ضحكت وقلت له: أوصلنى الى هشام، أخذ يقفز درجات السلم فرحا صعدنا الى الطابق الاول وأشار الى مكتب فى آخر الممر، سرت فى الممر بهدوء وسرت قشعريرة فى جسدى وأنا أترقب رؤية هشام داخل المكتب، وقفت عند الباب كانت الغرفة بها ثلاثة مكاتب، كانت هناك موظفة تلتحف ثوبا أبيض على أحد المكاتب وكان هشام جالساً على المكتب الثانى، وكان المكتب الثالث فارغاً، لم يكن هشام بمعنى الكلمة ولكن ما تبقى منه، وكان الشيب قد هجم على رأسه، من يرانا اليوم لا يقول كنا دفعة دراسة ولكن كان أستاذى أو ما شابه، كانت عروق يده ظاهرة، ويلبس نظارة طبية وأصبحت عينية غائرتان داخل وجهه كأنما تريدان أن تبعدان عن ما ترياه فى دنياه، رأتنى الموظفة وقالت: أى خدمة. رفع هشام رأسه من الأوراق ورمقنى بنظرة خاطفة وعاد الى الأوراق ثانية، قلت: عزة الرشيد تستحق أكثر من هذه النظرة.

رفع رأسه بهدوء هذه المرة، وتأملنى لمدة ثوانى، ثم قفز من الكرسى صارخا: غير معقول. وأجلسنى أمام مكتبه، كانت الحياة قد دبت فى جسده النحيل، وأخذ ينظر

الى متأملا: ثم عرفنى على زميلته فى العمل، قائلا: وصال، عزة دفعتى فى الجامعة.

ضحكت وصال وقالت: لايبدو ذلك.

رد مبتسماً: عندما تضعين قطعة لحم فى الثلاجة وقطعة أخرى عند درجة أربعين لمدة يومين ماذا يحدث.

قالت: تفسد القطعة الموجودة عند درجة أربعين.

قال: تعفن هى الكلمة الصحيحة، عزة موجودة فى لندن منذ أن كنا فى سنة ثانية جامعة، وأنا موجود هنا، أليس إنجازا أن أكون على قيد الحياة، ضحكنا على تشبيهه، وخرجت وصال من الغرفة، وأخذ ينظر الى كأنما يستعيد الأيام السالفة مرة أخرى ثم قال: متى عدت؟.

قلت: مايقارب السنة، ولكن أديبة أعطتنى العنوان أمس فقط، لم أكن أعلم لك عنوانا.

قال معقباً بسخرية: ولماذا يكون؟ صمت لحظات وقال: قابلت منى حسين يوماً ما وقالت إنك بصدد تحضير الدكتوراة.

قلت له: نعم دكتورة عزة الآن، ومنى تزوجت وهى فى دبى الآن.

قال ضاحكاً: لا ياسر ولا طارق، المنتصر من يأتى من الخارج، مغترب العريس أليس كذلك؟.

قلت: نعم، ولماذا تقولها بمرارة؟.

قال بحزن: لأن من أحببت أخذها مغترب.

قلت: هى الخاسرة. ضحك بصوت عال، فتح درج مكتبه وأخرج علبة سجائر ثم أشعل واحدة وأخذ منها نفسا عميقا وقال: غير صحيح، لقد خسرت على جميع المستويات.

قلت له معنفة: لماذا هذه اللهجة اليائسة؟.

قال: تعرفين عندما تعينت كنت أجلس على مكتب وصال، وكان لى مدير يجلس على مكتبى، كان رجلا فاضلا، ولكن مع مرور الوقت أصبح الراتب لا يكفى لوازم بيته، كان يمكن أن يقبل بعض الإكراميات ويحل مشاكله ولكنه رفض، أتدرين ماذا فعل، قدم إستقالته وفتح محلا لبيع الخضار، كان ينتظر العربات القادمة من الريف مع صلاة الفجر ويختار خضاره بنفسه، وكانت صحته لاتساعده على هذا الشقاء، ولكنه إستمر ثم بعد عامين بدأت أعماله بالإزدهار، وإستطاع أن يشتهر ويفتح أكثر من محلاً واحداً، أما أنا فقد إستلمت مكانه ولكن كما تعلمين لى كثير من الإخوة والأخوات، كنت أحاول مساعدة الوالد الذى ترك الزراعة لكثرة الضرائب المفروضة عليها، بتحويل الراتب كله، ولكن لم يحل المشكلة، ونصحنى أبى أن أعود معه الى الزراعة، ونصحنى مديرى السابق أن أدخل معه فى تجارة الخضار، ولكنى رفضت، لأنى تعبت قضيت سنوات الجامعة كلها وأنا الاول على دفعتى، وكنت أعمل فى المطاعم وفى غسيل السيارات وفى كل مهنة تخطر على بالك، وعندما حصلت على الشهادة إفتكرت أن زمن الشقاء ولى ولكنى كنت واهما، وبالحساب حتى أستطيع أن أصرف على أسرتى وإتزوج من أريد يجب أن أعين براتب وزير، ولم يكن لى أى نية لأن أعود للزراعة كما قال أبى أو أن أبيع الخضروات، فلم أكافح كل هذة السنين، لأحصل على شهادة تعيدنى إلى نقطة الصفر، فاتخذت الحل السهل وقبلت الرشوة أو العمولة كما يسمونها، وتقدمت الى البنت التى أريدها ولكن أموال الحرام لا تفيد، بعد كل ما فعلته تزوجت من المغترب، وأبى لا يستلم منى أى مال لأنه حرام فأعطيه الى أمى ولكنه يرمقنى بتلك النظرة كأننى أهوى الحرام، وكأننى من خلفت أخوتى وليس هو، إذا كان يريد المال الحلال فليأتى به هو، فأصبحت لا أذهب إليهم بل أرسل المال عن طريق أحد معارفنا، وكما ترين، أنتظر اليوم الذى أقال

فيه للصالح العام أو أسجن، فقد قمت بعملية كبيرة ستكتشف خلال شهر عندما يأتى فريق التفتيش.

قلت: ولماذا لا تهرب؟.

قال: مشكلتى ليست مع أحد غير نفسى فأين أهرب منها.ياعزة أنصحك بأن تأخذى شهادتك وتعودى من حيث أتيت، أما اذا بقيت هنا فلا شىء، هشام الذى تعرفينه مات، والآن يوجد هشام الثانى، وغدا هشام الثالث.

دخلت وصال تحمل معها مشروب بارد قدمته لى وهى تعتذر عن التأخير، ساد الصمت بيننا لفترة من الوقت، لم أعرف ماذا أقول جئت أستنجد بهشام لينقذنى ولكنه يحتاج الى من ينقذه، قلت له: تعال الى منزلنا نحتاج الى أن نراجع مواقفنا سأنتظرك يوم الجمعة، قال ضاحكا: مواقفنا، وظل يضحك بصوت عالى ثم قال: أذهبى فى حال سبيلك يا بنت الناس، وأنسى فكل شىء قابل للنسيان.

وقفت وأنا أنظر اليه وتمنيت لو أننى لم أت، صافحته مودعة وأنا أقول: هشام بحق الزمالة أن تأتى، أنا أحتاج اليك أيضا. نظر الى وظل صامتا، خرجت وأنا لا أتصور أبدا أن هشام يمكن أن ينكسر بهذا الشكل، إنه الوحيد الذى كنت أثق بأنه قادر على تخطي كل شىء ولكن يبدو أن قوة تحمله لها حدود، وجدت سيارة تاكسى فألقيت نفسى فيها، كنت قد بدأت أشعر بالدوران، لم يكن قرار خروجى صائبا، دخلت الى بيتنا كانت الوالدة جالسة فى الحديقة، وأخذت تنظر الى بعتاب فلم أخبرها بخروجى، ولكنها ظلت صامتة، فما زالت تعتقد إنها السبب فى مرضى سرت الى داخل المنزل، وكانت تتبعنى وتراقبنى بصمت وأخذت أصعد السلم وشعرت بأنى سأسقط، فجلست على درجات السلم، وأدركتنى أمى وأمسكت بيدى وجلست بجوارى وقالت والدموع تنهمر من عينيها: مالك يا عزة. لم أستطع أن أرد أسندت رأسى على كتفها، وشعرت بأنى لا أستطيع أن أتحرك، شعرت بها وهى تسندنى وتساعدنى على النهوض، ثم أدخلتنى الى غرفتى، وإرتميت على السرير،

ورأيتها تضع وسادة تحت رأسى،وأحسست بيدها تمر على جبينى، كانت تصرخ ولكنى لم أكن أسمع شيئا، ثم لم أعد أرى شيئاً.

إستيقظت ورأيت أبى جالساً عن يمينى وهو ممسك بيدى، وأمى جالسة عن يسارى وخالد واقفا عند نهاية السرير، وأحسست بأن هناك شيئا حدث فهم ينظرون الى باستغراب، ثم لاحظت أن محلول وريدى مغروس فى يدى، إبتسمت أمى وقالت: حمد لله على سلامتك.

قال أبى: كنت تعانين من حمى، الحدلله فقد إنخفضت درجة حرارتك من يوم أمس.

قلت متعجبة: من يوم أمس!.

قال خالد ضاحكاً: إنك ملازمه السرير من ثلاثة أيام، اليوم الخميس يادكتورة، ثلاثة أيام ونحن نسمع صراخك، الآن يمكننى أن أنام.

قالت أمى: إنها العين أصابتك، دكتورة وجميلة وغنية، لابد من تحضير البخور.

قال خالد: لا بخور ولا يحزنون أحضروا لها من قتل طارق وستكون على ما يرام.

قال أبى: يبدو أنك تشتبهين فى وفاة زميلك، لأنك ظللت ترددين قتلوه.

قلت: عطشانة، أريد أن أشرب. كنت أحاول أن أهرب من أى أسئلة فى هذا الموضوع، أحضر خالد الماء، وشربت كمن يرى الماء لأول مرة.

قالت أمى يجب أن تأكلى شيئاً، سأحضر لك شوربة ساخنة، وخرج خالد خلفها وهو يقول بأنه يريد أن ينام، أمسك أبى بيدى بقوة ثم قال: أسمعى يا عزة، أنا أراقبك منذ أن حضرت من لندن، وأعلم ان الأوضاع ليست كما تتمنين، هناك يأخذ كل فرد حسب مجهوده، لأنه يوجد نظام لكل شىء، أما هنا فالمقدمات لا تؤدى الى النتائج، لقد تحدثت مع دكاترة فى كلية الإقتصاد وهناك دكتور منهم ترك العمل ويحتاجون الى من يكمل لمادة واحدة فقط أقبلى هذا الوضع مؤقتا،

وعندما تندمجين فى العمل أنا متأكد بأنك ستستعيدين ضحكتك، قلت له سريعا: موافقة. إندهش فلم يكن يتوقع ردا منى الآن، وربت على يدى وخرج.

فى صباح اليوم التالى وكان يوم جمعة، أتى الجميع لزيارتى إلا من أنتظره، سامية وفدوى حضرتا أولا، كانت أول مره تأتى فيها سامية الى بيتنا، وقالت: لم أكن أتصور أن أدخل يوما الى قصر العدو، نظرت اليها مستفسرة، فقالت: عباس كان يطلق هذا الإسم عندما يريد أن يغيظ طارق لأن منى تكون هنا وطارق لا يستطيع أن يتصل بها. قالت فدوى: منى حسين يجب أن تحضر زواجى بأى طريقة ولكن لا نعرف لها عنوان. ثم إستأذنتا للذهاب الى السوق لأن فدوى تستعد للزواج، ثم حضر فيصل وأديبة مع أبنائهما، وجاء الكثير من معارفنا وأقاربنا حتى أننى شعرت بالارهاق، وما أن ذهبوا جميعا صعدت الى غرفتى، ثم جاء خالد وبتهكمه المعهود قال: سموك مطلوبة لشرب شاى المغربية مع أبى فى الحديقة، يا دلوعة أبوها. لم أرد عليه، فلم أكن أستطيع مجاراته وأنا بهذه الحالة، نزلت وجلست بالقرب من أبى، وجاءت أمى ببطانية وأخذت تلفها حولى، إبتسمت لخالد الذى كان يجلس فى مواجهتى فقال محتجا: دلوعة أمها، لماذا عندما أمرض لا أعامل هكذا.

قلت: لأن مرضك تكفير عن ذنوب لسانك الطويل. ضحكنا أنا وأبى وجلست أمى بالقرب من خالد وهى تنظر الى كانت سعيدة أن ترانى أضحك. فقال له أبى: لقد أصبحت دكتورة فى الجامعة سنترك لها السيارة، فقد إتفقت على شراء سيارة شحن صغيرة، سنستخدمها فى نقل المواد والعمال. لم يعجب القرار خالد ولكنه صمت، ثم فاجأنى أبى وهو يصب الشاى بطريقته المعهودة بسؤال مباشر: لماذا تعتقدين أن طارق المغربى قتل؟.

طوال حياتى إستطعت أن أخدع أمى وخالد ولكن أبى مستحيل أن تمر عليه أى قصة كاذبة، كان يعلم دائما فى ماذا أفكر وبالأمس حاولت أن أهرب منه ولكنه

الآن وضعنى أمام الامر الواقع، ولكنى كنت أعرف أنهم لو علموا بهذا الموضوع خصوصا أمى فستبدأ المشاكل، لم أكن أستطيع أن أكذب على أبى فقررت قول الحقيقة، كان الجميع صامتا منتظرين إجابتى، فمددت يدى لأخذ فنجان الشاى وقلت: لأنه كان مشتركا فى إنقلاب عسكرى. نظروا الى بدهشة منتظرين أن أكمل ولكنى صمت.

قال أبى: ولكن أخاه حامد قال إنه مات فى حريق مبنى.

قلت: إنهم يقولون ذلك.

قال أبى: وما الذى جعلك تعتقدين إنهم مخطئون.

قلت: أحد قادة الإنقلاب مات فى حادث قبله بثلاثة أيام.

قال أبى: تعتقدين أن تصفية حدثت. فرددت بالإيجاب

فقال: وماذا تنوين أن تفعلى؟ كنت أعلم أن هذا ما يريد أبى أن يعرفه، صاحت أمى غاضبة: ما دخلها بهذا الموضوع، إذا كانت خطيبته تزوجت وسافرت وأهله لم يفعلوا شيئا، لن ... نظر إليها أبى نظرة صارمة جعلتها تصمت على الفور.

قلت: لا أعرف.

قال أبى: واضح أن هذا الموضوع مؤثر عليك بصورة أكثر مما تتصورينها، ولكن إذا توقفنا عند كل خطأ فى هذا البلد، فلن نستطيع أن نفعل شىء فى حياتنا.

قلت: إذا كنا لا نصحح أخطاءنا، فأى شىء يمكن أن نفعله بحياتنا.

قال: هناك أولويات، على أن أنجح فى حياتى الشخصية ثم أتجه الى الحياة العامة.

قلت: ومن جعلوا حياتهم الشخصية هى حياتهم العامة، هل هم فاشلون أم أبطال.

قال: يعتمد ذلك على النتيجة، طارق فى النهاية فشل.

قلت: ولو نجح الإنقلاب ماذا يكون. لا أحد يعرف ما لم يحاول.

قال: إلى ماذا تلمحين.

قلت: ألست ناجحة فى حياتى الشخصية، فمن حقى أن أحاول أنا أيضاً.

قال خالد: ستقومين بانقلاب.

قلت: الحقيقة، أريد الحقيقة. عندما كنت أهتم بنجاحى الشخصى دفع البعض حياته فى سبيل هذا البلد، فما دمنا لسنا قادرين أن نضحى مثلهم، على الأقل نوضح حقيقتهم. صمت الجميع فقد كانت حجتى قوية، كان أبى غير راضى عن نتيجة المناقشة فقام ودخل الى المنزل بينما أمى وقفت تنظر الى ثم لحقت به، نظر الىَ خالد وقال وهو يسير الى داخل ببطء: لا أرتاح لهذا الموضوع، ما رأيك فى مقايضة؟.

قلت: كيف؟.

قال: تنسى هذا الموضوع برمته مقابل أن أحضر لك عريسا.

قذفته بفنجان الشاى ولكنه قفز داخل البيت وهو يضحك. ظللت جالسة لوحدى فى الحديقة، لقد تفاجأت بنفسى وأنا أتحدث عن هذا الموضوع لأول مره، إننى كنت كمن يتلصص على أسرار الناس، ولكن فى الحقيقة إننى لا أفعل ما يجعلنى أخجل، هناك خطأ وأنا الوحيدة أحاول معرفته، هم السلبيون متخاذلون، وأنا لدى القدرة على المواجهة على المضى الى النهاية، ظللت جالسة فى الحديقة كان الجو جميلا، يحمل نسمات باردة، وكان البدر هلالا، ونوره يسقط على وجهى كأنما يشفيه، وكان جسمى كله مخبأ تحت البطانية، وإنتظرت جرس الباب أن يقرع ولكن هشام لم يأتى، إن هشام لن يدع أحدا يحل مشاكله، فقد تعود أن يتخذ قرارته منفردا، كان دائماً وحيداً، حتى عندما كنا فى الجامعة رفض أى مساعدة حتى لو كانت سلفة، ولكننى ظللت منتظرة، حتى إنتصف الليل ،ثم أخذت الدموع تنهمر من عينى، كانت عيناى تبكيان أعز زميل لى، أين كنت عندما حدث كل هذا الخراب، هل هناك ما يمكن فعله، أم أننى سأستمر فى البكاء على الأطلال.

البحث عن الحقيقة

أول مرة أدخل جامعة الخرطوم منذ عودتى، لكن سبحان الله لم يتغير فيها شيئ، حتى ليخيَّل الىَ إننى سمعت أصوات أحاديثنا ومشاجراتنا فى ممراتها، وحتى خوفنا من النتيجة، كان ساكنا فى جدرانها، كنت أحس بألفة مع المكان، ما أجمل الأيام التى عشناها هنا، كانت مفعمة بالأحلام، وأنا من القلائل الذين حققوا أحلامهم، الأحلام هذه الكلمة ذكرتنى بطارق المغربى، ووجدت نفسى تلقائيا أذهب الى كلية القانون وإلى القاعة الرئيسية بالتحديد، كانت خالية من الطلبة، ولكنها كانت أسوأ مما تركناها، وسمعت صوته يقول: حلمك الأدنى جعلك تترك مكانا أسوأ، أنت تملك الإختيار أنت تملك الزمن فاذن أنت الأقوى وأنت الأغنى، آه يا طارق ماذا فعلت أنت بالإختيار والزمن، لقد فشلت كما قال أبى، أعلم انك حاولت بشرف ولكن النتيجة كانت الفشل وليس أى فشل، إنه فشل ألحق الاذى بكل من حولك، ألم تفكر بمنى أو أهلك، لا .. أنت أمنت بنفسك لدرجة الغرور، أنت لم تكن ترى أن هنالك أى إحتمال للفشل، إذن لست وحدى المغرورة، أعترف بأنى مغرورة ولكننى نجحت تعاملت مع واقعى بوعى ونجحت، أما أنت لقد حاولت باخلاص وأعتقد إنك قاربت على النجاح ولكن ما الذى قلب الطاولة على أحلامك، هذا ما سأحاول أن أعرفه، ذهبت إلى كلية الإقتصاد ونظرت إليها من الخارج، الآن أستمتع بهذا الإحساس إننى الأكثر نجاحا فى كل من أعرفهم منكم، شعور جميل جداً أن تعمل فى الجامعة التى تعلمت فيها لم يكن لى سوى مادة واحدة أقوم بتدريسها، ولكنها البداية، قبولى بهذا الوضع ليس تنازلاً بقدر ماهو تغيير فى الإسلوب، سأحاول بقدر الإمكان الإبتعاد عن الحلول الصدامية، هذا البلد ليس مطلوباً فيه النجاح، المطلوب هو ألا تخسر، فعدم الخسارة هى النجاح.

أواخر شهر مايو كان يوم زواج حامد وفدوى، وكان مليئاً بالأحداث أكثر مما توقعت، كان العرس فى فناء بيت أسرة فدوى، كان العروسين يجلسان على

العنقريب وهو سرير من الخشب منسوج بالتيل ومفروش عليه ملاءة حمراء لم تكن فدوى تلبس فستان الزفاف، وكذلك حامد لم يلبس البدلة التقليدية، ولكنه زواج بلدى حيث إرتدت العروس الثوب السودانى، كبدى اللون به خطوطا ذهبية وكان نقش الحناء يغطى كفيها وأصابع يديها وقدميها التى كانت تنتعل فيهما حذاء كبدى، وكان حامد مرتديا جلابية بيضاء ويضع شالا على كتفه ويربط هلالا حول جبينه أيضا، وطاقية بيضاء تعلو رأسه، وكانت الحناء تغطى يديه وفى قدميه مركوب من جلد النمر، وكان ممسكا بسيف مجدول حول مقبضه شرائط حمراء. وأخذ الفنان يغنى وهو يعزف على الطنبور وكان غناؤه حماسيا جعل الحضور يغنون معه، وقام العريس محيا الحضور بسيفه، تأملت حامد لقد إستطاع أخيرا أن يتلمس الفرح فى حياته، كان يهز فى وسط الحلبة بسيفه كأنه ملك الدنيا ورأيت هالة ووالدته ترقصان معه، أخيرا إستطاعوا أن يتخطوا ما كانوا فيه، كنت جالسة خلف فدوى وأمسك بحقيبة المكياج لها فقد كان الجو حارا مما دعى الى مراجعة مكياجها كل حين، وجاءت سامية وسلمت ومعها عماد، ورغم أن عماد كان من طلبة كليتنا إلا أنه كان منحازا الى شلة طارق، وقد كنت أقابله مع منى أو فدوى ولكن لم يكن بيننا غير التحية العابرة، وآخر ما أذكره عنه، إنه إعتقل مع عباس وطارق، ومن ثم بدأنا فى إجتماعاتنا السرية للتظاهر للافراج عن الطلبة المعتقلين، مما أدى الى سفري الى لندن، ولكنه سلم علىَ بحرارة كأننا كنا أصدقاء، وقال: سامية أخبرتنى إنك عزة الرشيد ولكننى لم أصدق. كانت سامية قد جلست بالقرب من فدوى وهما تتحدثان بصوت هامس مستغلة أن حامد فى حلبة الرقص، ولم أعرف بماذا أجيبه فقلت: أهلا وسهلا. فقال محاولا مواصلة الحديث معى: سامية أخبرتنى أنك تفاجأت بوفاة طارق فلم تعلمى إلا يوم زفاف منى.

قلت : فعلا. أحسن الله عزائكم.

قال: وقالت إنك تبحثين فى سبب الوفاة. أحسست أن سامية لا يمكن أن تؤتمن على سر، تضايقت منها، بل جاءنى احساس بأنه وسامية إتفقا على شيء بخصوصى. فقلت كمن لا يهتم: كان لدى فضول لمعرفة ما حدث. جاءت سامية وأخذت حقيبة المكياج منى ورجعت إلى فدوى ولكنى لاحظت النظرة التى تبادلتها مع عماد.

قال بلهجة لم تعجبنى: يمكننى أن أساعدك، فقد كنت صديق طارق.

قلت بسخرية: إذا كنت صديقه فلماذا لم تتحرك كل هذه المدة، كنت تنتظر عودتى.

ظل صامتا ينظر الى بدهشة، فلم يتوقع هذا الهجوم وأحس بالحرج فقلت محاولة أن أعرف ماذا ينوى هو وسامية: إذا كنت صديقه فكيف لا تعرف كيف مات.

فرد سريعا: لأن طارق منذ خروجه من السجن إبتعد عن الجميع، وقد أرجعنا ذلك لأنه تعرض لتعذيب وضرب مبرح.

قلت: ألم يكن التعذيب شاملا الجميع.

قال: كلا، وذلك لأنه أعتقل بواسطة العميد فريد النمر، وهو شخصية يهابها ضباط الأمن أنفسهم. صمت ولم يكن لى رغبة فى متابعة الحديث، فأنا أحتاج من كان قريبا من طارق فى أيامه الاخيرة.

قال: اليس لديك سؤال أخر.

قلت: عندى ولكنك لن تقول الصدق فلذلك لا داعى لسؤاله.

فقال متحديا : جربينى.

فقلت : ما الذى إتفقت عليه أنت وسامية وجئت لتعرفه منى.

نظر الى باستغراب وقال: كنا نريد أن نعرف إذا كنت تأكدت من إنتحاره أم لا، لأن سامية تعتقد إنها لم تساعدك بالذهاب معك الى أهل طارق فانك لن تخبريها شيئا، ثم أردف قائلا: ولكن كيف عرفت ذلك؟.

قلت: الشيء الواضح لدكتورة مثلى لا يكون واضحا لربة منزل. كنت أعلم أنه سينقل الكلام الى سامية، ولم يعجبنى إسلوبها فلذلك تعمدت إهانتها. إنسحب عماد وهو ينظر الى برهبة فقد تركت لديه إحساس بأنى شخصية أكبر مما كان يعتقدها فى نفسه. ثم ما لبثت أن قامت سامية وخرجت خلفه، جلست مع فدوى وقلت لها: أين سيكون شهر العسل. قالت ضاحكه: ولا شهر ولا يحزنون، كلها أسبوعين فى كسلا، ولكنى سأسكن قريبة منك فى برى فقد إستأجر حامد شقة هناك.

قلت: ولماذا لا تسكنون فى بيتهم، فهناك بيت خالى ومجاور لأهله، أم إنك بدأت فى أمور النسب وتريدين إبعاده عن أهله.

قالت وهى منفعلة: والله أنا من طالبته بذلك، ولكن حامد رفض بشدة، حتى أننى كلمت والده بأن إبنه لا يريد السكن هنا، ولكنه لم يعلق وكانت هالة موجودة فاسأليها.

قلت: ربما لا يريدون مضايقة والدته، فهى تنتظر عودة طارق.

قالت: هى موافقة، فأنت لا تعرفين كم غيرها هذا الزواج، فقد أعادها الى الحياة ثانية، حتى أن هالة قالت إنها أصبحت تقول المرحوم طارق. نظرنا أنا وفدوى الى حلبة الرقص كانت تهز مع إبنها وهى تضحك.

ولكنى إستغربت أن يصر حامد على أن يسكن بعيدا، ثم فجاءة تذكرت عندما ذهبت الى المخزن فى ذلك المنزل هالة لم تتبعنى، بل ظلت واقفة بعيدا، حتى أننى ظننت أنها تعتقدنى فضولية، لا الحقيقة أن هناك شيء حدث فى هذا المنزل، بل فى غرفة المخزن، هل مات طارق هناك ثم أخذوه الى المنطقة الصناعية وحرقوه. عندما فتحت تلك الغرفة لم يكن بها شيئا غير الغبار الذى يغطى بعض الأثاث المحطم، كانت مهجورة لم يدخلها أحد منذ سنين، حتى أن بيوت العنكبوت منتشرة في أثاثها، وطرأت لي فكرة مجنونة، سأذهب الى بيتهم

الآن، ولكن قبل أن أتحرك رأيت سامية قادمة نحوى من بعيد والغضب يتطاير من عينيها، فقلت لفدوى: إذا لم تمسكى سامية الآن فلا عرس ولا يحزنون. نظرت فدوى إلى سامية وهى قادمة ، وقالت وهى تضحك : ماذا فعلت لها؟ . قلت: أحمينى وسأخبرك لاحقاً. وبينما كانت العروس تلوح لسامية وهى ترجوها أن تساعدها فى مظهرها، كنت قد عبرت حلبة الرقص وخرجت الى الشارع وقفزت فى سيارتى، وإتجهت الى الصحافة. ركنت السيارة بعيدا من المنزل، وأخرجت بطارية كان خالد يحتفظ بها فى صندوق السيارة، ودخلت من الباب الذي كان مفتوحا كما توقعت كأى بيت عرس، كان الموجودون هم الاطفال نائمين على الأسرة الكثيرة المبعثرة فى الحوش، والنساء المسنات يقمن على حراستهم ، فالشباب جميعهم فى الحفل، وكنت أعلم طريقى جيداً فى الظلام ولكن ما أن أقتربت من الباب الفاصل بين البيتين، حتى سمعت صوت حاجة نائمة تحت الشجرة تقول: الى أين تذهبين؟.

تسمرت مكانى لحظات وقلت: الى الحمام يا خالة لأن الحمامات هنا مشغولة. لم أسمع صوتها فتأكدت إنها صدقت كلامى ودخلت الى البيت الثانى، وإتجهت مباشرة الى المخزن، وفتحت بابه بهدوء فقد كان له صريرا حادا يصدر منه وأغلقته خلفى، كان الظلام دامسا أشعلت البطارية وأخذت أتفحص المكان كان يوجد كرسى واحد سليما ملقى فى منتصف الغرفة وكان باقى الأثاث عبارة عن كراسى وأسرة مكسرة، وتسريحة مكسور زجاجها وبعض الملابس القديمة، ثم لاحظت كمية من الحبال، التى تميل إلى السواد فى جانب منها، هل يمكن أن يكون هذا دما، وكان هناك بكرة لشريط لاصق، ثم رأيت كومة الملابس ملقية على الأرض بها بقع قاتمة، خمنت أن تكون دما، أدخلت أحد الحبال وقميص إلى شنطة يدى، وهممت أن أخرج، ولكنى سمعت صوتا فى الخارج، أطفات البطارية كان الظلام دامسا وأحسست بالخوف وشعرت بعنكبوت يسير على

قدمى، ولكنى ظللت صامتة أترقب، كان هناك صوت خافت قادم من أمام الباب، كتمت أنفاسى وألصقت أذنى بالباب، سمعت صوت خطوات بطيئة تقترب من الباب، كان الباب مكون من ألواح خشبية متراصة، فنظرت بين الفراغات ورأيت شخصاً يسند يديه على الباب، وأدركت الصوت كان لوالد طارق، كان يقرأ آية الكرسى ثم أخذ يبكى، شعرت بأشياء تمر فى قدمى، وتصبب العرق منى، ألم يجد هذا الرجل إلا هذا اليوم، وإلا هذه الساعة ليبكى هنا،ثم رأيته يجثو على ركبتيه ومازالت يديه على الباب، وكان يتمتم بشىء مبهم يغطى عليه صوت بكائه فنزلت بجسمى وألصقت أذنى بالباب، محاولة أن أسمع ماذا يقول، كان يقول سامحنى يا ابنى، بصورة متكررة .إذا فعلاً إن الوفاة حدثت هنا، وفجأة سمعت صوت أنفاسه تتصاعد ثم سقط جسمه على الأرض، سمعت دقات قلبى فى أذنى، يبدو أنه توفى، يا لحظك العاثر يا عزة، ما العمل، نظرت من خلال الباب كان جسمه هامداً بلا حراك، إنتظرت ولكنه لم يتحرك، حاولت أن أفتح الباب ولكن جسده كان ثقيلاً خلف الباب مباشرة، يا للفضيحة أصبحت سجينة، كيف سأفسر وجودى هنا، سيتهمونى بقتله خصوصاً إذا ثبت أن البقع فى الملابس هى دم طارق، سيقولون قتلت الإبن ثم إكتشف الأب ذلك فقتلته، ولكنى كنت فى لندن، كنت أتصبب عرقا يجب أن أرتب أفكارى، أخذت نفساً عميقاً، لم يكن لى خيار غير الخروج، أشعلت البطارية كان هناك شباك على اليمين ولكن حتى أستطيع تحريك ما يوجد أمامه من أثاث ستكون الشمس قد أشرقت، هذا إذا لم يستيقظ كل من فى الحى، لابد أن أفتح هذا الباب، ألقيت بكل ما أتانى الله من قوة على الباب الذي بدأ يتحرك قليلا، وأستطعت أن أخرج رأسى ولكن بعد أن شعرت أن جلد رقبتى قد نزع، كان الهواء نقيا فى الخارج مما زادنى قوة أستطعت أن أخرج جسمى وإن كان ثوبى قد تمزق بتعلقه ببعض المسامير الموجودة على الباب وأحسست بخدوش في اليدين ورقبتى، أبعدت جسده من الباب ثم دخلت

وأخذت شنطة يدى وأدخلت البطارية فيها، أغلقت الباب، وهممت بأن أهرب، ولكن شيئا ما أوقفنى، أمسكت بيده لأعرف إن كان هناك نبضا، لم أشعر بأى نبض، ولكنى ضغطت على صدره كان هناك نفسا فى صدره، الحمد لله ما زال حيا، حاولت أن أرفعه ولكن لم يعد لدى من القوة ما أحمل به نفسى، ولكن ماذا أفعل إذا أسعفته سيفتضح أمرى، لم يكن هناك من خيار سوى أن أصيح: ألحقونى.

تجمعت حولى النساء فى ثوانى، ومع أن منظرهن لم يكن ليوحى أنهن يستطيعن المشى، إلا إنهن ساعدننى لنقله الى الباب، فذهبت وأحضرت السيارة، وإنطلقت إلى المستشفى وما أن أدخلته إلى قسم الحوادث، حتى لاحظت أن الجميع ينظر إلى وما أن نظرت الى ثوبى الأبيض حتى عرفت السبب فقد كانت الدماء من الخدوش على رقبتى وجسمى حولت لونه الى الأحمر، وطلبت منى الممرضة أن أحضر قطنا وشاش من الصيدلية المقابلة للمستشفى حتى تضمد جراحى، وما أن أكملنا ذلك حتى جاء الطبيب المناوب، ليقول أن صحة الحاج على ما يرام وأنه سيبقى تحت الملاحظة فى العناية المركزة، وطلب وضع عربون للمستشفى حتى يكمل العلاج، لم أكن أحمل مالا ولكنى وضعت ساعتى وأسورتى كضمان، حتى أحضر المال صباحا، قدت سيارتى وإتجهت الى العرس كانت الحفلة قد إنتهت، ورأيت المدعوين يخرجون، إنتظرت فى السيارة فلم يكن منظرى يسمح بنزولى إلى الناس، ثم شاهدت العروسين يركبان سيارتهما ويتجهان الى الفندق، لم أكن أنوى إخبار حامد شيئا، فلا أريد أن أفسد له ليلة عرسه، ثم رأيت هالة فناديتها، وأخبرتها أن أباها فى المستشفى، أحضرت والدتها سريعا وذهبنا الى هناك، إتصلت بوالدتى أخبرها بأننى سأقضى الليلة مع هالة لأنها لو رأتنى بهذا المنظر فلن أترك بسلام، وجلسنا فى غرفة الإنتظار، وكانت والدتها قد اتخذت من إحدى الكنبات سريرا لها ونامت فى لحظات كان واضحا إنها مرهقة

الى أقصى درجة، ثم لاحظت هالة الدماء على ثوبى، ثم رأت يدى ملفوفتان بالشاش، فصاحت: ما هذا؟ لم أستطع أن أقول شيئا. نظرت إلىَ باستغراب ثم سألتنى: كيف عرفت أن أبى فى المستشفى؟.

قلت: لأنى من أحضرته.

قالت: هل كنت فى منزلنا؟.

إحمر وجهى خجلا وقلت لها: نعم .

قالت كأنما ترانى لأول مرة: لماذا؟.

رويت لها تفاصيل كل شىء منذ تحركى من العرس، ولكنها لم تستقبل الأمر بارتياح

قالت بغضب: هل هذا يعطيك الحق فى إقتحام بيوت الناس.

قلت لها محاولة إمتصاص غضبها: أنظرى إلى الأمر بأنه القدر، إذا لم أكن موجودة، لما إستطعت أن أنقذ والدك. ظلت صامتة كان واضحا أنها لا تريد الحديث معى فقلت لها مستعطفة وأنا أمسك يدها بين يدى: يا هالة قد أكون مخطئة ولكن صدقينى إن وفاة أخيك ورائها أكثر مما يبدو لك فساعدينى بدلا أن تغضبى منى، على العموم أنا أسفة. ولكنها لم ترد، شعرت بأنه يجب أن أتركها فهى لا تريد حتى النظر فى وجهى وأصبح خيارى الوحيد العودة الى البيت، قدت السيارة بهدوء الى المنزل كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا، أوقفتنى خلالها نقاط التفتيش عدة مرات، تركت السيارة أمام البيت بدلا من إدخالها حتى لا أحدث صوتا وتسللت الى غرفتى بهدوء، كان الجميع نياما، بدلت ملابسى وأخفيتها تحت السرير، إستعدادا لتحقيق الوالدة معى غدا، إستلقيت فى السرير وأنا أفكر فلو أن إهلها هم من قتلوه فاننى أكون قد إرتكبت أكبر خطأ على الإطلاق، بل إننى أصبحت أمثل خطرا عليهم وذلك يعنى أننى أيضا فى خطر. ولكنى لا أعتقد ذلك فقد قالت لهم هالة عند سماع خبر وفاة طارق أنتم السبب، وذلك يعنى

أنهم تسببوا فى وفاته، ولكن لو كانوا قد قتلوه لقالت ذلك مباشرة، أنتم قتلة أو قتلتم أخى أو مثل ذلك، ولكن الشىء المؤكد أن طارق، كان موجودا هناك، أجل لقد كان مسجونا لأن الحبال كان بها دماء، قفزت من السرير وأخرجت من حقيبتى القميص والحبل، كانت بهم بقع داكنة ولكنى لست متأكدة من أنها دماء، فجأة تذكرت أن هناك معلومة لم أنتبه لها أن من أعتقل طارق اسمه فريد النمر، فذلك يعنى أنه قد يكون مسؤولا عن مراقبة طارق، وبالتالى يمكن معرفة شيئا منه، خصوصا أن جهاز الأمن قد حل ولم يبقى منه شيئ، ولكن إذا كان فريد النمر هو المسؤول عن تصفيتهم فبالتالى سأكون قد أبلغته بأن عليه أن يقتلنى، أحسست بالخطر يجب أن ألتزم الحذر فالأمر يتعلق بجريمة قتل، وليس قصة أتسلى بأحداثها، تمددت على السرير وأنا أحس بألم فى يدى الإثنتين، وساورنى خاطر أزعجنى إذا كان أهل طارق هم القتلة فاننى فى خطر الآن.

إستيقظت باكرا وقررت أن أهاجم والدتى قبل أن تأتى وترى اليدين ملفوفتين، نزلت السلم سريعا، ووجدتهم جالسين يشربون شاى الصباح على أنغام الإذاعة، نظروا الى بدهشة فلم يكونوا يعتقدون بأنى موجودة، تجاهلت نظراتهم وجلست وصببت الشاى، وما هى إلا لحظة حتى صاحت والدتى فزعة: ماذا حدث ليديك؟.

قلت كأنما الأمر لا يستحق السؤال: حادث بسيط. قفز خالد الى الخارج ليرى السيارة ثم عاد وهو ينظر الى أبى وقال: السيارة سليمة.

قلت له بابتسامة: الصبر ياربى، لم أقل أن الحادث فى السيارة.

صرخت والدتى بنفاذ صبر: ما الذى حدث؟.

قلت: سقطت على السلم، وستسألينى أى سلم، وأقول لك سلم المستشفى، وستسألينى وماذا كنت تفعلين فى المستشفى، كنت أحمل والد هالة لأنه تعرض لأزمة قلبية وهو الآن فى العناية المركزة، وستسألينى ولماذا لم تحمله هالة، لأنها

كانت فى العرس. وذهبت أنا الى بيتهم لأحضر شنطة العريس، وتفاجأت بأن والد هالة يعانى من أزمة قلبية.

صمتوا جميعا، ومد والدى يديه وأمسك بيدى ثم فك الرباط كانت يدىَ بها خطوط حمراء من الكف حتى المرفق. صمت والدى فقد كان مرتابا ولكن قصتى لم يكن بها أى شك خصوصا بأنى قلت لخالد: أريدك أن تأخذ هذه النقود وتدفع حساب المستشفى لمدة أسبوع وتعيد لى ساعتى وأسورتى.

قالت والدتى: ولماذا تدفعين الحساب؟.

قلت: حامد سافر بدون أن يعلم أن أباه فى المستشفى، وهالة ووالدتها لا أعتقد فى مثل هذا العرس يكون تبقى لهم شيئا.

تحدث والدى لأول مرة وهو يربت على يدى قائلا: بنتك تعرف الواجب. ثم خرج هو وخالد، كنت أعلم أن أبى مرتاب فى الأمر، ونظرت إلى والدتى التى كانت تتفحصنى كأنما ترانى لأول مرة وقالت: تغيرت ياعزة. كنت تخبرينى بكل شىء والآن أصبحت لا أعرف شيئا، أحسست بأنى مذنبة فى حقها، ولكن لايمكننى أن اخبرها بما أقوم به.

لم يكن لدى ما أفعله فى الجامعة بعد تقديم محاضرتى، فأصبحت أخصص ساعات لأسئلة الطلبة، ثم بدأت أساعدهم فى فهم المواد الأخرى، مما أكسبنى حب الطلبة، وكسب صداقتهم خصوصا أنهم قالوا إننى الأقرب سنا لهم ولذلك يرون من السهل التعامل معى ولكنه أثار على زملائى الذين كانوا لا يجدون الوقت لذلك لعملهم فى التدريس لأكثر من جامعة لأن مرتب الجامعة لا يسمن من جوع، ثم طلب منى إتحاد الطلبة أن أشارك فى سمنار عن إقتصاد الدول النامية بالمشاركة مع دكتور من جامعة الخرطوم وأحد مسوؤلى الامم المتحدة، كان المطلوب منى التحدث لمدة لا تزيد عن العشرين دقيقة، وأصبحت مشغولة بالتحضير لهذا الحدث وأحاول أن أجمع أرقام تساعدنى فى هذا

الموضوع ولم تكن مهمتى سهلة حيث تفتقر هذه الدول لمعلومات عن تعداد سكانها، ولكنى كنت سعيدة للغاية بهذه المهمة، خصوصاً عندما رأيت إسمى مكتوبا على لاقتات تدعو للحدث فى الجامعة، ومع أن إسمى كان متزيلاً الترتيب وأصغر حجماً إلا إننى أحسست بأنى أسير فى الطريق الصحيح، كان والدى محقا فى أن العمل والعمل فقط هو ما يحقق المصالحة مع النفس، كانت المحاضرة بدار إتحاد الطلبة، ورغم أننى ظللت أحضر لهذا العمل أكثر من إسبوعين، إلا أننى أحسست بأن العشرين دقيقة ذهبت فى ثوانى، فقد كانت كلمتى قى بداية الندوة، ثم إنتقل الحديث الى الأخرين، ظللت جالسة أتأمل الحضور لم يكن الحضور كبيراً فلم يتعدى المائة شخص وأغلبهم من طلبة الإقتصاد، مع أننى كنت قد شاهدت هذا المكان مكتظاً بالالاف فى الندوات السياسية، ولكن وجود كاميرا التلفزيون الذي كان يصور الندوة خلق جوا من الجدية والسكون، كان الحديث فى الإقتصاد ليس بالشىء الشيق، حتى إن خالدا عندما يرانى أنظر اليه يمثل بأنه نائم، كان جالسا فى الصف الخامس وبجواره أمى وأبى، كانت أمى تنظر إلى بفخر وهى ترانى أجلس على المنصة، وكان والدى يصغى باهتمام للمحاضر، وأخذت أتجول بنظرى فى الحضورلم أكن أعرف منهم أحدا ثم أخيرا عثرت على من أعرفه كان عماد يجلس فى المؤخرة وتذكرت أنه خريج إقتصاد ولكن فجاءة لمحت عباسا كان واقفاً خلف عماد وما أن رآنى أنظر اليه حتى خرج مسرعا، لقد جاء بدافع الفضول، ولكنى لن أضيع هذه الفرصة من يدى، كتبت فى ورقة أطلب الإذن من مقدم الندوة لمدة خمسة دقائق، أرجع الورقة الى ممهورة بالموافقة، نزلت من المنصة وأسرعت الخطى، وما أن خرجت الى شارع النيل رأيته على بعد حوالى ثلاثمائة متر يسير وحيدا يدفن يديه داخل جيوبه، هرولت إليه وما أن أصبحت خلفه حتى قلت له : عباس إنتظر.

نظر إلىَّ بعدم إكتراث، ثم واصل المسير.

قلت: إذا كنت لاتبالى فلماذا جئت الى الندوة.

قال وإبتسامة ساخرة على وجهه: صدفة كنت مع عماد وقال إنه يريد حضور الندوة ، لا تعتقدى أن أفكر يوما بحضور من لا يفعلون شيئا غير الكلام .

كنت قد وصلت اليه فأعترضت طريقه وسألته بطريقة مباشرة: لماذا تكرهنى، إن ما حدث لكم لادخل لى به.

قال منفعلا بغضب: لا دخل لك بماذا، أتعتقدين إننا كنا نريد أن نبنى قصرا لنا، لقد كنا ندافع عن وطن مسوؤليته واقعة على الجميع، أترين هذا المحاضر الذى يتحدث الآن وكأنه يملك النجاح، كان كلما حدثت مظاهرة فى الجامعة، يخاف على سيارته فيقودها مسرعا الى بيته، بينما نحن لم نخاف على حياة أو مستقبل ليس لأنه لايعنينا ولكن لأن البلد تستحق أن نضحى من أجلها، وأنت هل يوما سألت نفسك لماذا كنا نسافر الى أقصى الغرب ونرى الناس يأكلون من جحور النمل، هل كنا سواح نريد أن نتفرج على أهلنا يموتون تحت حكم العسكر، ألم تسألى نفسك يوما أن فشلنا نتيجة لقلتنا، لأن كل منكم قال لا دخل لى به، أذهبى يادكتورة الى حزب الكلام، وأفرحى بأسمك على اللافتات.

دفعنى جانبا بعنف وواصل سيره، لأول مرة أحس بالهزيمة أمام عباس، لم أتقبلها فسرت خلفه وصحت: سؤال أخير يا عباس.

توقف وإلتفت نصف إلتفاتة كأنما يقول أسرعى وخلصينى، يجب أن أثبت أى شىء، لم يكن لدى سؤال محدد ولكنى يجب أن أختار سؤالا يحس به أننى أعرف أكثر، فتقدمت اليه ببطء حتى أكسب وقتا فى التفكير، وقلت: أعلم بأننى لن أحصل منك على أى معلومة بخصوص طارق، لذلك أطلب منك عنوان من يستطيع أن يساعدنى، بدأ الاهتمام عليه ولكنه ظل صامتا.

فقلت: أريد عنوان ياسمين الكفيفة.

وكأنما حكيت له طرفه، إنفجر ضاحكا حتى أدمعت عيناه وجلس على أمشاط قدميه، ثم وقف وهو يضحك وقال: لن أخذلك، ثم أكمل ضحكته التى لا أفهم منها شيئا ثم صمت فترة وهو ينظر الى وقال: مقابر محمد نجيب.

ثم ذهب مسرعا وهو يضحك، ظللت أراقبه وهو يسير باتجاه كبرى النيل الازرق حتى إختفى، لقد هزمنى هذه المرة، وعندما حاولت أن أنقذ نفسى بسؤال ليعلم أننى أعلم أكثر مما يعتقد، عاجلنى بالقاضية، لقد ماتت هى الأخرى، هل يشركون كفيفة معهم فى الإنقلاب، تذكرت الندوة ولكن عباس جعل إحساسى بها مراً.

إستيقظت باكرا أو بالإحرى كان نومى متقطعا، فعباس أدخلنى فى الإحباط ثانية بعد أن ظننت بأنى قد تخطيته، ولكننى لن أستسلم سأثبت لك ياعباس أننى لست كما تعتقد، وقررت أن أبدأ بكلام عباس ربما كان يكذب ليخفى شيئا، لم يكن لدى عمل فى الجامعة، فذهبت الى المقابر لأتأكد من كلامه، لم يكن بها أحد وكان هناك سوراً قصيراً حولها قدت السيارة حولها، حتى وجدت فى شارع جانبى شيخا كبيرا فى السن يجلس أمام بقالة ويقرأ الجريدة، فنزلت من السيارة وأخبرته أننى عدت من الخارج وأبحث عن قبر قريبتى حتى أقرأ عليه الفاتحة تقدم معى الى المقابر وسألنى ما إسمها لم أكن أعرف إسمها بالكامل، ولكنى قلت له ياسمين عبدالله، فلم يكن إسم ياسمين شائعا بين الأحياء فما بالك بالأموات، وسألنى فى أى عام توفت، ولم أكن أعرف هذا أيضا ولكنى قلت فى نفسى سيكون نفس وقت وفاة طارق فأخبرته فى عام أربع وثمانين أو خمسة وثمانين ، فقال وهو يشير إلى جزء من المقابر: سيكون فى هذا المكان ستلاحظين على شواهد القبور أن الوفيات فى هذه الفترة، ثم تركنى وذهب، كان المكان واسعا جدا، رأيت طلبة مدارس قادمين فقلت لهم: هل تريدون نقوداً.

قال أكبرهم حجماً: طبعاً.

قلت: ساعدونى فى البحث عن قبر مكتوب عليه ياسمين، وسأعطيكم ما تريدون. بدأنا البحث وتفاجأت أن هناك حاجة توفت بعد السبعين وتدعى ياسمين، ثم مضى الوقت فبدأت أقتنع بكذب عباس إنه يريد أن يضللنى، حتى لا أكتشف ما حدث لطارق، ولكن فجاءة صاح أحد الطلبة، وجدتها، إندفعنا جميعا ناحيته، وصعقت بل كاد قلبى أن يتوقف وأنا أقرأ الشاهد ليس لأن تاريخ وفاتها بعد طارق بيوم واحد، ولكن من الإسم المكتوب على الشاهد كان إسمها ياسمين فريد النمر.

ما أن وصلت الى المنزل حتى وجدت فى إنتظارى وصال زميلة هشام، فأخبرتنى بأن هشام فى السجن وقد ذهبت إلى زيارته فطلب منها إحضارى فى الزيارة القادمة. فسألتها : متى تم إعتقاله؟.

قالت: لم يعتقلوه فهو من سلم نفسه، وأخذ حكما مخففا لمدة عامين بعد أن أرجع جزء كبير من الأموال التى أخذها.

ثم أضافت: هذا رقم تلفونى، والزيارة يوم الجمعة، إتصلى بى لنذهب معا. خرجت وصال وتركتنى فى حيرة، هل لزيارتى له تأثير فى هذا القرار، أم إنه كان سلفا قد قرر ذلك، إتصلت بى فدوى تخبرنى بأنها قد رجعت من شهر العسل، وهى تقيم بشقتها فى برى، فكرت بأنه حان الوقت لمواجهة حامد، ولكنى فضلت بأن أسألها عن عنوان عماد فيجب أن أسأله أولا عن فريد النمر، فذهبت إليه حيث كان يعمل فى أحد البنوك فى وسط الخرطوم، وما أن رآنى حتى أصابته الدهشة، كانت هناك مجموعة من الكراسى فى صالة البنك عند المدخل ففضلت أن نجلس عليها رغم إصراره علىّ بالدخول الى مكتبه ، كان يجلس أمامى كالتلميذ رغم أنه يفوقنى خبرة وسنا ينتظر أن أقول شيئا فقد أصبح لا يستطيع توقع تصرفاتى، فقلت له: لقد جئت أسألك عن علاقة فريد النمر بطارق قبل الإعتقال وبعده، صمت لحظات ثم قال: لم يكن هناك علاقة قبل الإعتقال، أما بعد الإعتقال فكما قلت لك أن طارق كان بعيدا منى ،يمكنك سؤال عباس عن هذا الأمر.

قلت: أليس هو من إعتقل طارق فكيف تؤكد بأن لا علاقة بينهما.

قال: لأن عند الإعتقال كان أول لقاء بينهما، هذا ما رواه لى طارق فى السجن، كنا نسير فى المظاهرة التى خرجت من الجامعة وسرنا فى شارع الجامعة نريد الوصول الى السوق العربى، حيث عندها تتحول المظاهرة من مظاهرة طلابية الى مظاهرة شعبية وقبل وصولنا الى هناك نزلت قوات مكافحة الشغب التى إنهالت على الطلبة والطالبات بالقنابل المسيلة للدموع وبدأت بالضرب باستخدام العصى، كان هجومهم همجياً لدرجة أننى رأيت بعض الطلبة والطالبات ساقطون على الأرض بلا حراك فهربنا أنا وعباس وإفترقنا عن طارق، ولكن عباس كان مستهدفا فقد ظل الجنود يركضون خلفه، وكان على أن أفارقه حتى لا أعتقل ولكننى لم أتمكن من ذلك، وفى النهاية حوصرنا فى أحد المنازل بحى الخرطوم شرق، وكنا حوالى سبعة أشخاص كنت أنا وعباس من ضمنهم، وبقينا محتجزين فى إحدي الشاحنات حتى المساء عندها رحلنا الى السجن مباشرة، وهناك وجدنا طارق، الذى كان غاضباً جداً، وكان قميصه الأبيض ملطخا بدماءه فلم يكن يريد أن نكون جميعنا معتقلين، وكان قلقا جدا فى السجن كأنما ينتظر شيئا أو هناك شيئا يجب أن يفعله، كان يدور فى الزنزانه كالأسد السجين، بعكسى أنا وعباس فقد كنا كمن نقضى عطلة، فقد كنا نقضى يومنا فى لعب الورق، ولكن طارق كان يجلس وحيدا يفكر، ثم فى الأيام التالية لاحظنا أن الحرس يتعمدون الإحتكاك به، ثم تحول الأمر إلى تعذيب حقيقى يومياً، نعم كانوا يتعرضون لنا فى بعض الأيام بالضرب، ولكن مع طارق كان الأمر مختلفا، يأخذه الجنود فيختفى لمدة ساعة، ويأتى مغطى بالدماء والكدمات، ثم سألت أحد الحراس الذى كان يحضر لنا بعض الأشياء خلسة مثل الأكل أو علب السجائر مقابل نقود كان يستلمها من أهلنا فى الخارج، فأجابنى بأن العميد فريد النمر هو من وصى عليه

وهو شخصية يخافها ضباط الأمن أنفسهم، ثم سألت طارق عن سر كراهية هذا العميد له، فقال طارق: الخوف إنه يخافنى.

فسألت طارق: لماذا يخافك.

فقال طارق: لأن الطريقة التى إعتقلنى بها يستخدمها الجبناء فقط.

فسألته: كيف أعتقلك.

قال طارق: عندما إفترقنا فى المظاهرة لاحظت أن الجنود يتعمدون اللحاق بى وليست وظيفتهم تفريق المظاهرة، وإشتبكت مع أحدهم الذى أخرج سكينا، وغرزها فى كتفى، فهربت ولكننى فوجئت بأن أكثر من خمسة عساكر يركضون خلفى مع أن الشارع به آلاف الطلبة، أطلقت ساقى للريح فقد كنت مصرا على عدم تمكينهم منى، وأخذت أنحرف يمبناً أو يساراً ختى وجدت نفسى أمام القيادة العامة للقوات المسلحة، فقررت أن أحاول الوصول إلى كبرى النيل الأزرق المؤدى إلى بحرى بأسرع وقت ونظرت خلفى كان هناك أحد العساكر ما زال يركض خلفى على بعد مائة متر، وزميله خلفه بمسافة لا تقل عن خمسين مترا، كان يفصلنى عن الكبرى حوالى ألفين متر، ولكنى بدأت أحس بتأثير الجرح على كتفى، وبدأت أحس بالفتور وفى لمح البصر مرت بنا سيارة ثم توقفت أمامى فقفزت داخلها فى الحال، ونظرت داخلها كان من يقودها رجلا فى الخمسين من العمر وبجانبه بنت فى العشرين من العمر، إلتفت الى العسكرى الذى رأيته مندهشاً وهو ينظر لى السيارة تسير مبتعدة، لأول مرة أراه مرهقا يتصبب منه العرق، فقد كان يركض خلفى كالآلة، كأن القبض علي هو هدف حياته، فشكرت الرجل وبدأت فى شتم الحكومة والعسكر، ولكن لم يرد على أحد منهم، أو يلتفت أحدهم حتى لإلقاء نظرة، فلزت بالصمت، وما أن وصلت السيارة عند نفق الجامعة عند مدخل الكبرى حتى توقف أمام سيارات مكافحة الشغب التى كانت تمنع الدخول إلى

شارع الجامعة، وتقدم أحد الضباط وألقى التحية العسكرية على الرجل الذى يقود السيارة التى أركبها ثم إنحنى الضابط على نافذة السيارة وقال: أفندم سيادة العميد. فقال العميد الذى كان من المفترض أن يكون طوق النجاة بالنسبة لى: خذوه. وأشار باتجاهى، نظر الضابط إلى حيث أشار العميد فوجدنى، إبتسم وأشار إلى جنوده أن يأخذونى، كان العميد ينظر إلىّ من خلال مرآة السيارة الأمامية وهو يبتسم باستهزاء، ولكن إبتسامته إختفت عندما إلتقت أعيننا، فالتفت إلى فى الخلف ونظر لى مباشرة، كانت المفاجأة قد شلتنى مما فعله ولكن نظرتى كانت تحمل شيئا واحدا، الموت، فقد قررت فى هذه اللحظة، أن أقتله لا أعرف كيف أو متى، ولكنه يمثل لى أسوأ ما يفرزه نظام العسكر، أقسم لك بأنى يا قاتل أو مقتول، ولذلك فسيادة العميد قد عرف بأنه أخطأ، فليس طارق المغربى من يفعل به ذلك، وهذا التعذيب رسالة لى بأن أنسى ما أفكر به. صمت عماد لحظات ثم قال: هذا ما قاله لى طارق بالحرف، وعندما إبتعد عنا، بعد خروجه من السجن أدركت بأنه لن يترك العميد بل مصمم على قتله.

وقفت وقبل أن أودع عماد قررت أن أعطيه معلومة لينقلها إلى سامية فقلت : لم تكن تعرف شيئا عن الإنقلاب الذى كان يعد له طارق.

قفز عماد من الكرسي وصاح: ماذا؟، إنقلاب؟ .تركته وتوجهت الى الباب ولكنه قفز أمامى ووضع يده على الباب ليمنعنى من الخروج وقال: ليس من حقك أن تأخذى معلومات بدون أن تعطى مقابلها.

قلت مهدده: هذا مكان عملك، وليس جميلاً أن نفتعل مشكلة هنا.

سحب يده من الباب وقال:ه ذا ليس عدلاً.

فقلت وأنا أبتسم: أنت خريج إقتصاد ويجب فى المرة القادمة أن تتعلم فن مساومة المعلومات. خرجت من البنك وكان عماد يلاحقنى بنظراته المستتكرة لم أكن أقصده بتصرفى ولكننى كنت أري سامية من خلاله، فهى ما أن تسمع ما دار

بيننا حتى ستبدأ بالتقرب الى فقد أحتاجها لاحقا، ركبت السيارة ثم قررت أن أبدأ هجومى على حامد، إتجهت إلى منزلهم الجديد ببرى وكان عبارة عن شقة أرضية فى بناية لم يكتمل فيها الدور الثانى، وما أن قرعت الجرس حتى فتحت فدوى الباب، كانت الشقة ضيقة، لابد أن يكون هناك شيئا جللا قد حدث ليترك حامد منزلهم الواسع ليسكن فى هذا الجحر، جاء حامد وسلم وجلس صامتاً، فقالت فدوى: تشربين شايا أم باردا.

فقلت: أريد وجبة غداء كاملة حتى نتأكد أن العروس مؤهلة فى المطبخ كما فى المحكمة. إبتسمت فدوى وفهمت بأنى أريد الجلوس مع حامد، وإلتفتت إلى حامد الذى طلب منها الذهاب. ولكنها قالت: هالة كانت هنا وحكت لنا ما كان منك يوم العرس.

قلت: والآن جئت لأعرف من حامد حقيقة ما حدث فى منزلهم.

صمت حامد كان واضحا بأنه لا يريد الحديث.

فقالت فدوى مدافعة عنه: أتريدين أن تعرفى أسرار الناس بالقوة.

وبدأ واضحاً أن فدوى تعلم بالوعد الذى قطعه حامد لى فى بيتنا مقابل مساعدته فى زواجه منها، كانت فدوى متحفزة، فصمتت فترة من الوقت أفكر، فلو ضغطت على حامد، سأدخل فى مشاحنة مع فدوى، فوقفت وذهبت إلى الباب، فانفجرت فدوى غاضبة: ماذا نفهم من ذلك، هذا الإسلوب الذى تتبعينه لا يليق بك يا دكتورة، أنا وحامد مقدرين لك مساعدتنا فى زواجنا وإنقاذك لأبيه ومقدرين لك أنك تكفلت بعلاجه، ولكن إذا كنت تريدين مقابل خدماتك أسرار لا يريد الحديث عنها فهذا يسمى إبتزاز. كنت قد وصلت إلى الباب وهممت بالخروج ولكن عندما سمعت كلمتها الأخيرة غلى الدم فى عروقى فالتفت إليها بغضب وقلت: إبتزاز!، لماذا هل لدى مصلحة شخصية فى الموضوع، إبتزاز لأنى أريد أن أسأل أخ لماذا أخوك كان مقيدا فى المخزن ودمه يملأ المكان، لماذا تخفون الحقيقة أتخافونها،

طارق قتل، وهذه جريمة ياسيادة المحامية، فاذا كان الفاعل أبوه أو أخوه فهذا لايجعله سر عائلى بل جريمة قتل. أنا الآن أعطيه حق الدفاع عن نفسه، لأن حتى هذه اللحظة هو وأبوه يمثلان عندى القتلة. نظرت فدوى إلى حامد باستغراب فيبدو أن شيئا من حديثى لم تكن تعلم به شيئا، إن هالة لم تذكر كل شىء، وقالت: هل كان طارق مقيدا فى المخزن؟.. كان حامد يغطى وجهه بين كفيه فهز رأسه بالإيجاب. فقالت: ولكنك لم تذكر لى شيئا عن هذا.

فقال: لأنك لم تسألى.

فقالت: هل أنت من قيدته؟.

فرد بحسرة: نعم. نهضت فدوى وقالت لى خذينى معك ودخلت إلى غرفتها، ولبست ثوبها وعندما أصبحت بقربى صرخ حامد: أنتم لا تفهمون شيئا. أمسكت بيدها وأجلستها وجلست بقربها وقلت له: الرجل كلمة، وأنت وعدتنى، والآن نريد الحقيقة كاملة.

نظر حامد إلينا طويلا حيث كنا نجلس فى مواجهته، كان واضحا بأن ما يعنيه هو أن لا يخسر فدوى فقال بصوت حزين: منذ أن كنا صغارا كنا نخاف والدى فقد كان صارما معنا ومع إنى أكبر من طارق بعامين، إلا إننى أصبحت أحاول ارضائه بأى طريقة حتى أنال رضاه بعكس طارق الذى كانت له شخصية متمردة، فكان يفعل فقط ما يراه صحيحاً بغض النظر عن رضى الوالد عنه، ومع مرور السنين أصبحت الإبن المدلل لوالدى بينما العلاقة بين والدى وطارق أشبه بقنبلة موقوتة، وكان كلما حدثت مشكلة بينهما تنتهى باخراج إبى للسوط ويبدأ بضرب طارق حتى يدمى جلده، وهذا ما جعل أمى تحاول حمايته حتى عندما يخطىء، أصبحت تقف فى صفه طوال الوقت ضدى، كأنما تحملنى أنا مسؤولية ما يحدث إستمر هذا الأمر حتى سافرت الى السعودية، وعندما عدت تفاجأت أن العلاقة بينهما تكاد تصل الى القطيعة، فقد كان الحديث بينهما فقط فى تلبية

أوامر أبى، مثل هل أحضرت الجريدة؟، أو هل ذهبت إلى السوق؟، وكان طارق يرد بنعم أو بايماءة من رأسه، ولكنه بالمقابل كان يجلس مع الوالدة بالساعات، وكان إستقلال طارق المادى إعلاناً رسمياً بخروجه عن طاعة والدى، وأصبح والدى دائما يفتخر بى أمام أصحابه وأقاربه وكان يتجاهل طارق عمدا، بل ويتهمه بأنه فاشل وصعلوك، حاولت أن أتحدث مع طارق بأن يحاول إرضائه ولو قليلا ولكنه ثار وإتهمنى بأنى عديم الشخصية، وقال لى لو أن معيار الفشل والنجاح مرتبط برضاء أبى فهو يفضل أن يكون فاشلا فى نظرهم ويحتفظ بشخصيته على أن يكون نسخة باهتة من أبى مثلى، وإتهمنى بأن أبى سلب منى شخصيتى، فقلت له أن الشرع والدين يأمرنا بالطاعة للوالدين وإن ما تفعله فيه عقوق بهما، فقال لى إن الطاعة فى ما يخصهم من حياتهم إذا كان أبى مريضا أعالجه، إذا كان محتاجا أصرف عليه ولكن أبوك يريد أن نعيش حياتنا بمنظوره هو عن الحياة، إنه مثل جيله، جيلهم هو الفاشل، إستلموا هذه البلد من الإنجليز كأغنى دولة فى أفريقيا والآن أصبحت أكثرها فقرا، هل تقول لى لماذا تركت جامعتك ومستقبلك، وذهبت لتشترى منزلاً، أليس هذا مسؤوليته هو أن يوفر المسكن، وأن يعلمك، فقلت له: ولكنه لا يملك غير راتبه وتقدم به السن فماذا يفعل، قال لى هل هجم هذا الفقر فجاءة أم أن له مقدمات، إذا كان يكفينى هذا الراتب اليوم، ولى زوجة وثلاثة أبناء، أنتظر فى وظيفتى ثلاثين عاما، حتى يصبح الراتب لا يشترى رغيف خبز فأقول أن الفقر هو السبب، السبب هو، هو من أدخل نفسه فى هذه الظروف وعلى العموم إنها حياتهم عاشوها كما يريدون ولكنهم يضحكون على أنفسهم بأنهم ناجحون، بل ويريدوننا السير بنفس طريقتهم، أن نعيش بمنظورهم هم عن الحياة. كانت مجادلاتى مع طارق دائما تنتهى لصالحه، ثم كانت الكارثة إننى خسرت أموالى فى عملية تجارية ووجدت نفسى عاطلا أجلس فى المنزل، ليس لى عمل أو شهادة، بينما طارق كان هو من

يصرف على المنزل، وجعلنى حديثه أحس بأن تضحيتى ليس لها معنى مما أثار غضبى وبدأت أتحرش به فى كل مناسبة، وأصبح أبى يشعر بما أعانيه فأخذ هو أيضاً يقف فى صفى ضد طارق وهو يعلم أننى مخطىء، وكان طارق ذكيا جدا فحل المشكلة بايجاره البيت باسم جيمس فأصبحنا لا نراه إلا عندما يأتى ويجلس مع الوالدة تحت الشجرة ويشرب معها القهوة، وكنت أجلس فى المساء أمام المنزل، فأصبحت أري سيارات أمام المنزل المجاور وأشخاص يتقدمون طارق كثيرا فى العمر يأتون لزيارته مساءا ويبقون داخل المنزل حتى ساعات متأخرة من الليل، مما أثار فضولى، وكان دائما هناك من يقف على باب المنزل، فلم أكن أستطيع الإقتراب، كنت أعلم أين يضع أبى مفتاح الباب الفاصل بين البيتين، فأخذته وإنتظرت فى يوم كانوا جميعا بالداخل ودخلت خلسة ومن خلف الغرف إستطعت من خلال أحد الثقوب فى الشباك أن أراهم وهم مجتمعون، كانوا أكثر من عشرة أشخاص يلتفون حول خرائط منتشرة أمامهم على السفرة وكان جيمس هو من يتحدث وهم يستمعون إليه باهتمام، ثم أخرج جهازا صغيرا من الشنطة، كان أشبه بالاسلكى وأخذ يشرح لهم عنه أحسست أن الامر خطير، وأن طارقا لا يلعب، بل تخطى موضوع الجمعيات الخيرية التى كان يقول إنهم يعقدون إجتماعات بشأنها، رجعت إلى منزلنا وأغلقت الباب خلفى، وجلست أمام المنزل منتظر خروجهم،وبدأوا بالخروج واحدا خلف الأخر كان يفصل بين الواحد والأخر حوالى الخمسة دقائق، وأدركت أنه لم يتبقى غير طارق وجيمس داخل المنزل، فرجعت ثانية أريد أن أعرف ماذا يفعلون كنت أكثر شجاعة هذه المرة فلو عرف جيمس أو طارق بوجودى فلن أخافهم، ونظرت إلى الغرفة كانت مازالت مضاءة فوقفت خلف الشباك ورأيت طارق وجيمس يعدان فى رزم من الأموال موجودة أمامهم ثم وضعاها فى شنطة وأغلقها جيمس وسلمها إلى طارق الذى خرج بها على الفور، ثم رأيت جيمس يجمع بعض الأوراق، سمعت صوت الباب الخارجى

يفتح ثم يغلق فأدركت أن طارق خرج، نظرت ثانية من الشباك، رأيت جيمس يدخل جميع الأوراق فى مظروف ثم رفع السجادة ونزع بعض البلاط من الأرضية ووضع المظروف ثم أعاد كل شيء كما كان، ثم أطفأ النور وأغلق الغرفة بالمفتاح، ثم رأيت الغرفة الأخري تضيء، فأيقنت بأن جيمس يتأهب للنوم. فعدت ثانية إلى المنزل، ولم أعرف ماذا أفعل، فقررت الإنتظار حتى الصباح، وفى الصباح وقفت أمام المنزل حتى رأيت جيمس يخرج مسرعاً، وهو يحاول أن لا يراه أحد، فدخلت إلى منزلهم ثانية، وحاولت أن أفتح باب الغرفة بمفاتيح أبى ولكنى إكتشفت إنهم قد غيروا جميع الأقفال، فقررت أن أكسر الشباك الخلفى، وكان ذلك، وأخرجت الظرف من أرضية الغرفة، وقرأت الأوراق كانت بها خطة إنقلاب واضحة، وكان مكتوبا قائمة بأسمائهم ووظائفهم بعد الإنقلاب، وكان الإنقلاب يوم واحد وثلاثين أكتوبر، لأن كل التحركات المكتوبة التى يجب القيام بها كانت مكتوبة بالدقيقة فى هذا اليوم، عدت إلى منزلنا ومعى الظرف، لم أعرف ماذا أفعل هل أواجه طارق وماذا سيفعل وتبقى إسبوع على موعد إنقلابهم، لا أعتقد بأنه يستطيع إلغاء هذا الأمر حتى لو أراد، وكنت أعلم لو أخبرت والدى ستكون نهاية العلاقة بينهما، وفى هذا الموقف فقط أيقنت أن طارق كان على حق لم أستطع أن أتصرف دون الرجوع إلى والدى، أحسست بأن أبى فعلا جعلنى عديم الشخصية، فكل ما فعلته أعطيت أبى المظروف، وهذا هو أكبر خطأ أرتكبته فى حياتى، فما أن قرأ أبى الأوراق حتى جن جنونه، ذهب إلى منزلهم فلم يجد أحد فخرج وجاء ومعه حداد، الذي قام بتغيير كافة أقفال المنزل فى ساعة واحدة، ثم أجلسنى معه فى منزلهم وكان فى يده الظرف وكيس أسود، ثم ذهب وترك الباب الخارجى مفتوحا، وإنتظرنا حتى المساء عندها جاء طارق كان يبدو مرهقا كأنه لم ينم من يوم أمس، وما أن شاهدنا طارق ومع أبى الظرف حتى قال: ليس من حقكم دخول هذا المنزل. وقبل أن يكمل جملته صفعه أبى

صفعة جعلته يسقط أرضا، ثم إنقض أبى عليه وأمرنى أن أمسك يدى طارق، فامتثلت لأوامره وأخرج حبالا من الكيس وأجلس طارق على الكرسى ثم أمرنى بتقييده، ففعلت، ثم أخرج شريط لاصق من الكيس، وأغلق به فمه، كان طارق يحاول أن يركل برجليه ويديه ولكنه كان مقيدا بطريقة محكمة، ثم حملناه إلى المخزن، ثم خرج أبى وتركنى مع طارق للحظات، كان طارق يحاول أن يتكلم ولكنه لم يستطع ثم رأيت عينيه تتوسل أن أفعل شيئا، ولكنى لم أستطع حتى أن أتحرك من مكانى، ثم كانت المفاجأة، جاء أبى يحمل سوطا، وأحسست أن أبى مازال يعتقد بأن طارق فى العاشرة من عمره وليس مهندسا يصرف علينا وأخذ أبى ينهال عليه بالضرب، حتى أصبح جسمه كله مغطى بالدماء، حاولت أن أمنع أبى فمسكت يده ولكنه إنهال على بالضرب وأمرنى أن أخرج فخرجت، وظللت واقفا خارج المخزن وأنا أسمع صوت الضرب على طارق، عندها فقط آمنت بكلام طارق عن أبى، لأول مرة أراه بهذه الصورة، ثم خرج أبى وهو خائر القوى وطلب منى أن أتصل بعباس وأخبره أن أبى يريده لأمر هام، فأتى عباس، فقال له أبى: أن ضابطاً من الأمن أتى يسأل عن طارق ولم يكن طارق موجودا، ثم لم يعد طارق إلى المنزل منذ أمس، وكان طارق أخبرنى إذا إختفى أو حدث له مكروه فعباس يعرف الضابط وهو كان قد ذكره لى ولكنى نسيت. لم يشك عباس فى كلام والدى وأعطاه إسم الضابط، لا أذكر إسمه الآن.

فقلت لحامد: فريد النمر.

نظرت فدوى وحامد الى بدهشة، وقال حامد: نعم ، هذا هو الإسم، المهم طلب عباس من أبى أن يعطيه مهلة يوم واحد وسيتأكد إذا كان طارق قد إعتقل أم لا، وحذر والدى من الذهاب إلى الضابط حتى يأتيه غدا بالخبر اليقين، وطمأنه والدى بأنه سينتظر فى البيت، ولكن ما أن خرج عباس حتى أخذنى والدى الى رئاسة الأمن، وطلب من أحد الضباط بأنه يريد مقابلة فريد النمر لأمر هام، أخذ

الضابط إسم أبى وعنوانه وإتصل بفريد النمر، ولم تمضى أكثر من ربع ساعة حتى كان فريد النمر يجلس أمامنا، ورغم تظاهره بأنه مشغول وعلى والدى أن يسرع فى سرد الموضوع إلا أننى أحسست بأنه يكذب فقد كان حريصا على سماع كل كلمة يقولها أبى.

فقال أبى عندى معلومات تمس أمن البلد، ولكنى لن أتكلم، حتى تعطينى الأمان لإبنى، لقد هربته الى أثيوبيا ولكنى أريد منك ضمانا بأن لا يرد إسمه فى أى تحقيق أو يطلب لأى شهادة، عندها سيعود كأى مواطن عادى.

قال فريد النمر سريعا : أقسم لك هل هذا يكفيك.

أخرج أبى الظرف من تحت قميصه وأعطاه إلى الضابط، الذى أخذ يتفحص الأوراق باهتمام ثم ضغط على زر وجاء الساعى، فطلب منه النمر تصوير محتويات الظرف سريعاً.

ثم سأل والدى: أين وجدت الظرف؟.

فرد والدى: لقد أعطانى له طارق.

وجه فريد النمر نظرة قاسية إلى أبى ثم قال: إنك تكذب.

هم والدى أن يرد عليه ولكن فريد النمر أشار له أن يصمت. أحضر الساعى، الظرف وما قام بتصويره، إحتفظ النمر بالصور، ثم أرجع الظرف الأصلى إلى أبى وقال له : يمكنك أن تعيده إلى مكانه، وإطمئن سأتولى هذا الموضوع بنفسى، وشكرا لك على تعاونك فهذا ما ننتظره من كل مواطن غيور على بلده. وما أن عدنا الى البيت، حتى قلت لوالدى: قد يداهمون المنزل ويعثرون على طارق.

رد والدى: لن يتصوروا أنه ما زال بالمنزل ولكنهم سيخضعونا للمراقبة.

قلت: أعتقد اننا أخطأنا بما فعلناه

فقال لى منفعلا: طارق هو من أخطأ، أما أنا فتصرفت، أمامى خيارين إما أن أنتظر فيحدث الإنقلاب وإذا فشل وأنا متأكد من فشله سأكون أنا وأنت وطارق قد

ضعنا ولا أعلم ماذا يحدث لأمك وأختك، وإما أن أبلغ الأمن بالإنقلاب وفى هذه الحالة يكون الخطر على طارق وحده، فاذا صدق الضابط يكون قد نجا، وإذا كان يضمر شرا فطارق مختبىء حتى نهربه فعلا، إن وظيفتى حماية هذه الأسرة التى شقيت عمرى كله لأكونها، ويأتى أخوك الصعلوك ليدمرها فى لحظة، والآن فى أسوا الأحوال حتى لو قتلوه سيكون من نتائج أعماله.

فقلت: ولكن زملائه قد يقتلون جميعا.

نظر إلى غاضبا حتى تغير لونه وقال: زملائه إنهم فى مثل سنى، لم يفكروا فى أبيه، لم يفكروا كم تعبت حتى يتخرج من الجامعة، فلن أفكر بهم بالمرة بل على العكس، أتمنى أن يقتلوا جميعا. ثم منعنى أبى من إطعام طارق أو إعطائه الماء، لمدة ثلاث أيام، لأنه يعتقد لو أن طارق إختبر الجوع سيعلم قيمة الحياة .ولكنى أنتظرت أن ينام الجميع دخلت لطارق بالأكل والماء بعد منتصف الليل، هذا كل ما إستطعت أن أفعله، كنت أعلم ليس من حق أبى أن يفعل به ذلك، كان طارق ملقى على الأرض وهو مقيد على الكرسى وكان منظره سيئا فقد بلغ به الإعياء مداه وكان جسمه ينزف من ضرب السوط كما أنه جرح يديه وهو يحاول قطع الحبال بالزجاج المكسور على الأرض، وكانت عيناه تقول لى شيئا واحدا أطلق يدى، ولكنى كنت أحاول أن أطعمه أو أجعله يشرب ولو رشفة واحدة، ولكن طارق كان عنيداً حتى الموت رفض الأكل والشرب وأيقنت بأنه قرر الموت على أن يعتبره زملائه واشيا، فذهبت أخبر والدى بأن طارق سيموت فما كان منه إلا أن منعنى من دخول المنزل الأخر، بل أحضر طبلة وأغلق بها باب المخزن. وفى اليوم الثانى إشتريت الجرائد معتقدا أن خبر إكتشاف محاولة إنقلابية سيكون فى الصفحة الأولى، ولكن لم يكن هناك شيئا، ثم فى اليوم الثالث ذهبت وإشتريت الجرائد أيضا ولكن لم يكن هناك أى شىء عن الإنقلاب وإستغربت ذلك فضباط الأمن ينتظرون شيئا كهذا حتى يحصلوا على الترقيات والمكافأت المالية ولكن

خبراً صغيراً فى الصفحة الثالثة أفهمنى ما حدث كان عن غرق مركب فى النيل كان يقوم برحلة نيلية لأساتذة الجامعات وكان مذكور أسماء الضحايا، فأعطيت أبى الجريدة وأشرت الى الخبر، فذهبنا وأخرجنا المظروف من غرفة المنزل الذى يقيم فيه طارق وقارنا الأسماء كانت نفس الأسماء، ولكن تبقى أسماء أثنين فقط من من يسبق حرف الدال إسمهم ، وفى اليوم الرابع كان فى الجريدة نعى دكتورين فى حادث سير أليم، وهنا أصر أبى على الإتصال بعمى لتهريب طارق، وطلب منى أن أعد الماء وطعام وملابس جديدة ثم بعد ذلك سنقوم بنقله، ولكن عندما ذهبنا إلى المخزن وجدنا أن الطبلة لا تفتح بمفتاح أبى، ثم قمنا بكسر الباب ولكننا لم نجد طارق، كانت دمائه فى كل مكان على الأرض، يبدو أنه كسر الباب، وأحضر طبلة شبيهة بطبلة أبى حتى لا نعرف بأنه هرب، أو أن الأمن إستطاعوا الوصول إليه، هل إنتحر فعلا بعد أن علم أن زملائه تمت تصفيتهم بسبب أهله أم قتلوه وأحرقوه لا نعلم شيئاً، لماذا تعتقدين يا عزة أننا قتلناه. قلت: لأنه عندما علمتم بخبر وفاته صرخت هالة بأنكم السبب.

قال: هالة كانت تتحدث عن موضوع آخر، فأخر مشادة بين أبى وطارق كانت عن زواجه بمنى، فقد رفض أبى الذهاب معه لخطبة منى وقال له إذا لم يتزوج حامد أولاً فلا زواج لك، فقال له طارق مستهزئاً بى بأنه سيكون قد توفى قبل أن يتزوج إبنك الفاشل، فصفعه أبى فأمسكت هاله بطارق وأبعدته عن أبى الذى خرج على الفور   فقال طارق لهاله وهو ينظر إلى: إن أخاك وأباك لن يرتاحا إلا بموتى. فخرجت فلم يكن لدى مانع فى زواج طارق، ولكن علاقتهما ببعض وصلت إلى مرحلة سيئة جدا، ولكن هاله ووالدتى لا تعلمان شيئا بوجود طارق فى المخزن، صمت حامد لحظات ثم قال: ولكن ما أعلمه جيدا إننى لا أستطيع دخول ذلك المنزل ثانية فصورة طارق وهو ملقى على الأرض ما زالت ماثلة أمامى، أخذت الدموع تنهمر من عينيه، قامت فدوى وجلست بقربه وهى تحيط

كتفيه بيدها ثم أجهشت بالبكاء، جائنى إحساس بأنه حان لى ترك هذا الموضوع فاننى لا أسبب غير الألم حتى العرسان أبكيتهم، قامت فدوى وأحضرت ماء الى حامد أحسست لأول مرة أن فدوى تعشقه عشقا وليس فقط أن حامد من يريدها، وأرجعت ذلك الى إفتقارها الى الأخ فى حياتها فهى المسؤولة فى منزلهم، وعندما وجدت أن لطارق أخا يعيل الأسرة، ويترك مستقبله لذلك أحبت فيه ما كانت تريده طوال حياتها رجل تعتمد عليه، وحسدتها على ذلك فهى تعرف ما تريد وتحصل على ما تريد فى الوقت الذى تريده، فليست المشكلة فقط فى الحصول على مانريده ولكن السعادة فى توقيت الحصول عليه، خرجت من شقتهم بدون أن تنتبه فدوى إلى خروجى فكل تركيزها مسح الحزن عن حبيب العمر، قدت سيارتى بهدوء وأنا أسأل نفسى ماذا الآن ياعزة، لقد عرفت الحقيقة، إذا كان إنتحر فقد عرف السبب، وإذا كان قتل فقد عرفت من قتله فماذا ستفعلين، كنت تبحثين عن الحقيقة والآن ماذا ستفعلين بها هل أنت سعيدة، أوقفت السيارة جانبا وأخذت أبكى، فأنا أشعر بأنى أشتريت الحقيقة بتعاستى، يا ليتنى لم أعرفها، وتذكرت كلام عباس هل تظنين إننا كنا نبنى قصرا لنا، كان على أن أتوقع أن الوجع عنوان هذه القصة ومحتواها إيضاً، وأحسست أن الله أبعدنى عن أحداثها حتى لا أحبط كأبطاله، ولكنى أبيت إلا أن أرجع الزمان وأعيش آلامها، وأحبط مثلهم، عندما رأيت منزلنا لم أعلم كيف إستطعت أن أقود إلى هنا، صعدت إلى غرفتى وألقيت نفسى على السرير، أحسست بالإرهاق فى روحى قبل جسدى، وتخيلت طارق مقيدا لمدة ثلاثة أيام فى ذلك المخزن، ينزف وهو يعلم أن زملائه يقتلون فى هذه اللحظة، الإنتحار أصبح منطقيا، ولكن أيضا فريد النمر قد يكون قتله، ولكنى كنت أعلم شيئاً لا يعلمه حامد أن هاله كانت تعلم بأن طارق موجود فى المخزن، وعندما قالت لهم أنتم السبب كانت تقصد ذلك، وإستطعت الآن أن أدرك لماذا أتى والد طارق إلى المخزن يوم زواج حامد وهو يبكى، فقد منع طارق من

الزواج وتحققت كلمات طارق بأنه سيكون ميتا يوم زواج أخيه، مسكين هذا الأب كيف إستطاع أن يتحمل الشعور بالندم كل هذا الوقت.

صباح يوم الجمعة كنت أقف مع وصال فى صف الزيارة بسجن كوبر ننتظر الدخول لرؤية هشام، والطريف فى هذه الزيارات كان الحديث من طرف واحد حيث كان المساجين يصغون باهتمام لما يقوله الأهل حتى أننى إعتقدت أن البعض يأتى للزيارة ليس من أجل السجين، بل لأنه يجد من يستمع إليه باهتمام، ما عدا زيارتنا أنا ووصال فقد كان هشام هو من يتحدث، والغريب أن منظره كان هادئا، وقد زاد وزنه حيث إختفت العروق التى كانت تغطى يديه وأصبح جسمه متناسقا كأنما يمارس رياضة ما، فقلت له مازحة: يبدو كأنك فى منتجع ولست سجيناً.

رد وهو يبتسم: تصورى هذه أول مرة فى حياتى لا أكون مسوؤلاً حتى عن إطعام نفسى.

قلت: إنه قرار شجاع، بدأت تذكرنى بهشام الأول، ولكن ما الذى جعلك تقرر ذلك؟. .

قال وهو يبتسم: أنت، عندما جئت لزيارتى فى الوزارة رأيتك ما زلت محتفظة بنقائك الذى كنت عليه فى الجامعة بينما رأيت نفسى قد أصبحت فى الحضيض، ولذلك لم أستطع أن أحضر الى منزلكم، كنت أحتاج الى أن أتطهر، ولكنى قررت بعد خروجى العودة إلى أبى أريد أن أزرع وأبحث عن وظيفة قرب قريتنا فقد سئمت من الحياة فى الخرطوم، أحتاج الى هواء نقى، سأتزوج وصال ونذهب.

تفاجأت بهذا الخبر ونظرت إلى وصال وقلت: ألف مبروك، ستنتظرين هذا الشقى لمدة سنتين

قالت مبتسمة: ماذا أفعل هناك مشكلة عرسان.

قلت: وستذهبين للعيش فى قريته مع أهله.

قالت: فى أى مكان يمكن أن نعيش المهم مع من نعيش .

قلت محاولة إثارة هشام: فكرى جيدا يمكننى أن أحضر لك عريس بمواصفات أحسن.

فقال هشام وهو يضحك: يا دكتورة لم أصدق إنها وافقت.

قالت وصال: أعرف معادن الناس جيدا ومثل هشام لا يتكرر كثيرا، لذلك سأستغل وجوده فى السجن وأتزوجه على الأقل أضمن أن لن تخطفه منى واحدة أخرى. ضحكنا على تعليقها فجأة صمت هشام وسألنى: فى زيارتك لى قلت إنك تحتاجينى، هل هذا صحيح أم كنت تريدين مجاملتى

قلت: متى رأيتنى أجاملك؟.

قال: إذا لم يخنى أحساسى أعتقد إنك حزينة يا عزة. كنت أعرف أن هشام هو الوحيد من يفهمنى من نظرة، قلت وأنا أحاول التماسك: أعانى من إنعدام وزن، وهو مرض يصيب العائدين من الخارج.

قال: عليك بالعمل، حتى ولو كان بدون راتب.

قلت: هذا ما أفعله، أحاضر فى الجامعة، والراتب لا يكفى بنزين السيارة، تعرف إننى كنت أبحث فى وفاة طارق المغربى، عندما أخبرونى بأنه انتحر أثارت هذه القصة إهتمامى.

قال ضاحكا: عزه الرشيد، والعدو اللدود، أنصحك بمقابلة طبيب نفسى، أعتقد أن عقدة الذنب بدأت تحكمك، أنا أيضاً عندما علمت بوفاته تأثرت جداً، وذهبت يوم الدفن كان بمقابر محمد نجيب، كانت هناك أعداد غفيرة لا تتخيليها من الطلبة والأساتذة ، ومسوؤلين فى هيئات خيرية ورجال كانوا يبكون على قبره لم يكن رجلاً سهلاً، ورأيت عباس يبكى كالطفل حتى أن الجميع إعتقدوا بأنه أخوه، فموت

الشباب لا يتقبله الناس بسهولة، ولكن ذلك لا يعنى بأنه لم تكن لنا أسباب فى معاداته.

قلت: لقد كان مشتركاً فى محاولة إنقلابية، ولكنى لم أعرف إذا كان قد إنتحر أو تمت تصفيته.

قال: لا تسمعى كلام الناس إذا كنت تريدين أن تعرفى، أذهبى إلى المكان الذى قالوا أنه إنتحر فيه، وأحكمى بنفسك، ولكن نصيحتى لك أن تنسى هذا الموضوع .

قلت: لماذا ؟.

قال: لأنك ستفقدين عزه الأولى.

أوصلت وصال إلى منزلهم، ورغم أنه لم يكن قريبا حيث تسكن بحى الشجرة، ولكنى لم يكن هناك ما أفعله وأثناء عودتى، قررت أن أتحدث مع هالة فمنزلهم فى طريقى، ما أن شاهدتنى هالة رحبت بى بشىء من الفتور، كانت والدتها كعادتها تعد قهوتها تحت شجرتها، وما أن رأتنى حتى تهللت أساريرها وقالت: أجلسى يا الغالية.

قلت مبتسمة: أصبحت غالية لأنى زوجت إبنك، ماذا لو زوجت هالة؟.

قالت: والله يابنتى نفسى أشوف يوم عرسها قبل أن أقابل وجه كريم، ولكن هالة هى التى ترفض كل من يتقدم لها. أعطتنى فنجان القهوة وقالت: قلت لهالة نزورك ونتعرف على أهلك، فأفضالك علينا كثير، ولكن هالة كل يوم تؤجل الزيارة.

قلت: لأنها غاضبة منى ياخالة. نظرت هالة إلى محذرة كنت أعلم إنها لاتريد إدخال والدتها فى هذه المسالة.

قالت والدتها: مستحيل هالة تغضب منك، فهى كل يوم تشكر فى أفعالك.

قلت: جئت اليوم لتساعدينى فى إرضائها. أمسكت هالة يدى وسحبتنى داخل البيت وهى تقول لوالدتها: لاتصدقيها فهى تمزح. أوقفت هالة وسحبتها إلى البيت المجاور وإتجهت بها إلى المخزن وعندما أصبحنا أمامه قلت لها: يا جبانة، عندما تبلغين حامد وفدوى أننى أتيت إلى هنا لماذا لم تقولى لهم الحقيقة كاملة.

قالت: أى حقيقة.

قلت: أن طارق كان هنا، وأنت من قمت بتهريبه. كانت كمن أخذت دشاً بارداً نظرت إلى مدهوشة وقد إتسعت عيناها من المفاجأة وقالت: بالله كيف عرفت ذلك، لا يعلم هذا الأمر إلا أنا وطارق فقط.

قلت: لقد علمت كل شىء من حامد، ولكنه لايعتقد إنك ووالدتك تعلمان شيئا بوجود طارق هنا، ولكنى كنت أعرف إنك تعلمين.

قالت: كيف؟.

قلت: عندما قمت معى بجولة فى هذا المنزل، كانت غرفة المخزن هى الوحيدة التى لم تقتربى منها.

قالت: أرجوك لا أريد أن يعرف أحد بهذا الموضوع.

قلت: أقسم لك، ولكن كيف علمت بوجوده؟.

قالت: صدفة، كانت حدثت مشاجرة بين أبى وطارق بخصوص زواجه، وكنت أتعاطف مع طارق، حيث كان قد ترك لهم المنزل، وهو من ينفق عليه، وعندما يأتى ليتزوج رفض له أبى ذلك وكنت أشعر بأن طارق سيتركنا نهائيا، وعندما قال أبى أن طارق مسافر علمت بأن هناك شيئا قد حدث، وأخذت أتصنت على أبى وحامد وسمعت شيئا عن الأمن، فعلمت أن طارق قد أعتقل وما أكد ذلك حضور عباس حيث تحدث مع أبى وخرج، وفى يوم كانت تأتى بنت شغالة مرتين فى الإسبوع لمساعدتى فى كنس الحوش والنظافة، فطلبت منها والدتى أن تكنس البيت المجاور لأن طارق مسافر وعندما يعود يجب أن يكون البيت نظيفا ولكن

البنت بعد أن رأت البيت طالبت بأجرة إضافية لأن البيت يحتاج إلى وقت طويل منها، فرفضت والدتى وأصرت أن أنظفه بنفسى فرفضت وقلت لها قد يعود جيمس أو أحد أصحاب طارق فكيف أتواجد فى بيت عزاب كنت أحاول التهرب، ولكنها أصرت كأنها تعلم إن إبنها مسجون هنالك، فذهبت وعندما بدأت الكنس خلف الغرف، سمعت صوت داخل المخزن، فتخيلته قط أو فأر، ولكن بدأ الصوت يتكرر، ثم لاحظت وجود قفل على الباب لم يكن موجودا من قبل، فاقتربت وأخذت أنظر من خلال الباب، كان الظلام دامسا ولكنى شعرت أن هناك أحد بالداخل، فأحضرت شاكوشا وكسرت القفل، وما أن فتحت الباب حتى سقط الضوء على رجل أشعث وتفاجأت بأنه طارق كان مقيدا على الكرسى وملقى على الأرض، كان منظره يوشك أن يموت وكانت الجروح فى كل مكان فى جسمه وكانت هناك قطع من الزجاج مغروسة فى يديه، يبدو أنه حاول أن يقطع الحبل عن يديه المربوطتان على ظهر الكرسى، ومن شكل الجروح التى على جسمه علمت أن أبى قام بضربه بسوطه المعهود، ففككت قيوده ونزعت الشريط اللاصق عن فمه وحاول أن يقف ولكنه لم يستطع، فذهبت وأحضرت له ماء كنت أصبه له صبا داخل فمه وأنا أمسك برأسه، ثم ظل مستلقياً على الأرض فترة، فذهبت لأحضر معقماً وقطناً، وعندما عدت وجدته قد ذهب إلى غرفته، كان يحاول أن يبدل قميصه كان يتصرف بعصبية وسرعة فساعدته فى لبس القميص وغسلت له الجروح ولكن قبل أن أكمل أزاح كل شىء، فأدركت بأنه يحاول أن يلحق بشىء، ولبس جاكت فوق القميص ليخفى آثار الدماء التى بدأت تظهر فى القميص، ثم مال خلف الدولاب وأخرج مسدساً وضعه فى جيب الجاكيت، ثم ذهب إلى الباب الفاصل بين البيتين، وأخذ ينظر إلى أمى من خلف الباب، كانت دموعه تنهمر من عينيه فأدركت بأنه يودعها فقد ظل يتأملها لفترة، ثم عاد إلى وأمسك برأسى بيديه الاثنين بقوة رغم جروحه، ثم قبلنى على جبينى، أحسست

بأننى لن أراه ثانية فارتميت فى صدره وأنا أبكى ولكنه أبعدنى برفق وخرج، عدت إلى المخزن، وأخذت القفل المكسور وأحضرت قفل الباب الجانبى حتى لا يلاحظ أحد شيئا. كنت أشعر أن هناك شيئا كبيرا هذه المرة وقع فيه طارق، ولكنى لم أتصور أن يفعل أبى هذا به، وعندما إنهارت أمى بعد خبر الوفاة ولم تصدق، فضلت أن لا أفتح الموضوع مع والدى فقد حدث ما حدث، ولا أريده أن ينهار هو الأخر.أحسست أن هالة ستدخل فى موجة من البكاء، فقلت لهاله وأنا أسحبها من يدها: تعالى سأريك شيئا. ودخلت بها الى غرفة إجتماعات طارق وزملائه، وبدأت أبحث تحت السجادة حتى وجدت بلاط غير ثابت فرفعته، كان الظرف قد تأكل من جنباته، فأخرجت الورق من داخله، إن مرور عشر سنوات ترك أثارا واضحة عليه ولكن كانت الرسومات وأغلبية الكتابة سليمة وإن تحول الورق إلى اللون الأصفر الباهت، مددت لها أحد الأوراق التى تحتوى على أسماء الإنقلابيين وقلت وأنا أتباهى بما أعمله: طارق كان مشاركاً فى إنقلاب، ووالدك عندما إكتشف الأمر، أبلغ الأمن حتى يعتبروا طارق شاهد ملك، ولكن جهاز الأمن قرر تصفيتهم، فمن المفترض أن تكون جميع الأسماء التى فى يدك أموات. نظرت هالة بهدوء إلى القائمة ثم قالت: ليس جميعهم.

قلت بحماس: أتعرفين منهم أحد على قيد الحياة؟.

قالت: عباس محمد أدم.

خطفت الورقة من يدها ونظرت فعلا عباس مكتوب إسمه، إذن هو مشترك معهم، لم يقتلوا جميعا، لماذا؟. هذا هو السؤال؟.

الفريسة والصياد

كنت أعرف عاجلاً أو آجلاً لابد من الحديث مع عباس، وكنت أعلم أنه مهما إقتربت من الحقيقة، يبقى عباس الرقم الصعب بدونه ليس هناك حقيقة كاملة، فهو صديق طارق ورفيق دربه، ولكن مع مشاعر العداء التى بيننا يبدو أن لا أمل فى معرفة شىء منه، إنتحار أم قتل، لم أستطع أن أؤكد أحدهما، فكل ما آل إليه بحثى معرفة الدوافع، إذا قتل فأنا أعرف من قتله والسبب، وإذا إنتحر فأنا أعرف لماذا، ولكنى فى داخلى موقنة إنه قتل، مع أن الجميع أهله وأصحابه تقبلوا الإنتحار، هل لذلك علاقة بطبيعة العلاقة بيننا، فالأعداء يدرسون بعضهم جيدا، فنظرتهم تكون مبنية على الحقائق أكثر، وليست على العاطفة، إشتبكنا مع شلتهم لأكثر من عام كامل، مناوشات مستمرة، وشتائم فى كل مناسبة تجمعنا، لابد أن هذا كله أعطانى الذخيرة الكافية لأصل إلى يقين أن طارق قتل ولم ينتحر، على العموم لابد من أن إتحدث مع عباس ولكن لأفعل ذلك أحتاج إلى وساطة سامية أو عماد أو فدوى ولكن فدوى آخر ما تفكر فيه هذا الأمر حتى لا تزعج حامد، أما الباقين كل منهم يمثل مشكلة بالنسبة لى فسامية ستذلنى قبل أن تقوم بأى خدمة، وعماد رغم أنه تعاون معى فخسرته بغرورى وكنت أظن بأنى لن أحتاجه ثانية، ولكنى رغم كل شىء أفضل خيار عماد على سامية، فالأنثى لا تريد الإنكسار أمام أنثى مثلها، ولكن إلى حد ما يمكن التذلل إلى الرجل، إخترت يوما فى منتصف الإسبوع لأزور عماد ثانية فى البنك، كنت قد خرجت من الجامعة بعد يوم عمل قصير، مع أن كل أيامى فى الجامعة قصيرة، ولكن هذا اليوم أقصر من قصير، ذهبت مباشرة إلى البنك، وإنتظرت فى الصالة بعد أن أرسلت إليه أحد الموظفين يخبره أن دكتورة عزة بانتظاره، ولكن عاد الموظف يخبرنى بأن على الإنتظار قليلاً حتى يفرغ من بعض العملاء، وإنتظرت طويلا

وقلت فى نفسى إذا كان على الإنتظار فهو مقدور عليه، المهم أن يقابلنى فى النهاية، وتحسرت عندما تذكرت زيارتى السابقة وهو جالس أمامى كالتلميذ، ولمت نفسى فقد أضعت مصدراً متعاوناً برعونتى، وأخيرا أرسل أحد السعاة يخبرنى بأن الأستاذ عماد ينتظرنى فى مكتبه، دخلت عليه وإعتذر بالطبع عن تأخيرى وهو يبتسم إبتسامة صفراء، فقلت مبتسمة: العمل أولاً هذا شعارى فى الحياة. أحس بأننى أسخر منه فدخل فى الموضوع مباشرة بقوله: إنشاء الله خير.

قلت: أريد منك خدمة، جلسة صلح مع عباس.

ضحك بصوت عالى وقال: آخر مرة أعطيتنى درساً فى تبادل المعلومات، وهذه المرة أعتقد تسمى تبادل خدمات.

فقلت مبتسمة: لا مانع ماذا تريد بالمقابل.

صمت فترة ثم قال: أريد أن أتزوجك. نزل حديثه على كالصاعقة، إن هؤلاء الرجال عندما لايتوقعون تصرفاتنا، نشغل تفكيرهم فيفتكرون أنهم يفكرون بنا لأنهم يحبوننا، كنت متأكدة لو أن تصرفاتى مع عماد كانت متسمة بالمنطق لما فكر يوماً أن يتزوجنى، فصمت فترة وكان ينظر إلى باهتمام منتظراً ردي، ولكنى إستغليت الصمت لأوهمه بأنى أفكر فى الموضوع، لقد كان واضحاً أن خيار سامية أفضل، ثم قلت وأنا أتعمد الحياء: لقد فاجأتنى بهذا الأمر. كان هذا الرد به مساحة من الأمل بالنسبة إليه فقال مندفعاً يتحدث عن إنبهاره بشخصيتى، وإنه كان دائماً معجب بى، وإنه مقتدر مادياً، وأن أسرته من أكبر العائلات فى البلد، وإنه يعدنى بحياة أكثر سعادة. قاطعت حديثه قائلة: دعنى أفكر أولا، أريد وقتا فهذا قرار مستقبل حياتى. ونهضت من الكرسى أريد المغادرة فسامية هى الحل، فأجلسنى وقال: التفكير هذا خاص بطلبى، ألا تريدين إجابة على طلبك؟.

قلت: بدون أن تحصل على الموافقة بخصوص الزواج.

قال: لا رابط بين طلبك وطلبى، ولكنى لم أجد طريقة لطرح هذا الموضوع عليك.

قلت: هل ستساعدنى مع عباس؟.

قال: عباس لا أعتقد بأنه سيقبل المصالحة معك لأنه يمر بمرحلة هزيمة نفسية وأنت بالنسبة إليه منتصرة، ماتريدينه من عباس معلومات بخصوص وفاة طارق، وهذه يمكن الحصول عليها بسهولة منه.

قلت: كيف ؟.

قال: إذا كنت قابلت عباس فى حالة سك ، فسيحكى لك تاريخ البشرية جمعاء، وليس ما حدث لطارق المغربى فقط.

قلت: فلماذا لم تسأله أنت، ألست مهتما بما حدث لطارق.

قال: المشكلة إننا ندخل درجة الثمالة، قبل عباس بكثير، فلا نتذكر ما نقول. قلت لنفسى هذا ماكان ينقصنى أن أتزوج مخموراً. ثم إستدرك قائلاً: إننى لا أشرب إلا فى المناسبات فقط.

قلت: متى يمكننا زيارة عباس.

قال: الآن إذا أردت.

قلت: العمل أولاً أليس هو شعارك.

قال ضاحكاً: هذا شعارك أنت، أما أنا فشعاري العمل بحجم الراتب.

قدت السيارة إلى منطقة سكن عشوائى لا أعرف ماذا تسمى كان الطريق طويلا باتجاه جنوب الخرطوم، حتى أننى أحسست بالخوف فلا أشعر بالإرتياح للمكان ولا لعماد نفسه الذى كان يجلس بجوارى، وأخيراً وقفنا أمام منزل مبنى من الطين، ونزل عماد وإنتظرته فى السيارة، وشعرت بأننى لم يكن من الصواب أن أتى إلى هنا، فأوقفت السيارة بعيدا عن المنزل، ولكن عماد خرج سريعا ووقفت معه إمراة على الباب، وهى تضحك بصورة مبتذلة وكانت تحاول إمساك يده ولكنه سحبها سريعا وهو ينظر فى إتجاهى، ثم تركها وتوجه إلى السيارة، وقال أن عباس لم يأتى من يومين وبسرعة خرجت من الشارع، ثم قدت بسرعة وأنا

أستغرب من نفسى فقراراتى أصبحت مرتجلة، وما أن وصلنا إلى البنك، نزل عماد من السيارة ثم قال عبر نافذة السيارة وهو يبتسم: متى تردين على طلبى.

قلت: الآن، لا أعتقد بأننا نتوافق، حتى أن طلبك مثل مفاجأة لى وهذا دليل على إننى لم أتصورك كزوج.

قال: ما هو الشرط الذى لا يتوفر لدى، إذا كان مسألة شرب الخمر فيمكننى إيقافها ولقد تعلمتها بدافع التسلية فقط.

قلت: ليست مسألة شروط إنما هناك قبول أم لا وهذا غير متوفر، أعلم أن الكثير من الفتيات يتمنين الزواج بك فأنت شاب متعلم وغنى ومن عائلة كبيرة، ولكنى لا أشعر بأننى قابلت من سأتزوجه حتى الآن.

قال: لن أستسلم، سأنتظر، طول البال يبلّغ الأمل. ثم ودعنى وذهب. قدت السيارة إلى المنزل وأنا راضية عن نفسى لحسمى هذا الموضوع مبكراً، وإستغربت أن شلة طارق بعد أن كانوا يدافعون عن وطن، أصبحوا لا يفعلون شيئا غير شرب الخمر، كأن المبادىء كانت مرتبطة بوجود طارق، أو كأن غياب الزعيم تركهم ليس لهم غير ذكراه فأصبحوا رهائن للماضى، فشارب الخمر يسكر ليتحدث عن الماضى التليد، أما المستقبل فلا شىء يذكر بشأنه.

حالما دخلت غرفتى بعد مشوار عماد الفاشل، جلست على المكتب أدرس فى الأوراق الموجودة فى الظرف، كانت هناك خريطة مفصلة للعاصمة المثلثة الخرطوم، وكان بها دوائر حمراء تمثل المواقع المستهدفة، ثم مجموعة من الأوراق كل واحدة تمثل موقع منفرد وعدد الأفراد المكلفين به وتوقيت التحركات، لم أكن على دراية بهذه الأمور ولكن بدأ لى أن هناك جهداً ضخماً قد بذل حتى تخرج هذة الأوراق بهذه الطريقة المتقنة، ثم فحصت قائمة أسماء الإنقلابيين فوجدت إننى لا أعرف منهم غير طارق وجيمس وعباس، ولكن أين جيمس، من المفترض أنه كان بالجنوب، ولكن حسب رواية حامد، فقد كان موجودا بالخرطوم،

على أن أبحث أين قتل، ثم تذكرت حديث هشام يجب أن أزور مكان الحريق، كان الموقع موضحا فى الخريطة ومكتوب بقربه (المنطقة الصناعية.المخازن)، الآن أدركت لماذا كانت المخازن مملوكة لجيمس والكافتيريا بالإيجار، ذلك لأنهم يستخدموها فى تخزين السلاح، قاشتروا الموقع حتى يكونوا فى أمان لأن الإيجار قد يطلب منهم صاحبه الإخلاء، أو يأتى لتفقد عقاره، يجب فعلا رؤية هذا المكان وقررت أن أكون غدا صباحا هناك.

وفعلا منذ الصباح الباكر كنت أمام المبنى رقم ستة وستون بالصناعية، كان يحتوى على حوش، واسع ووجدت بابه مفتوحا وبدون قفل، فدخلت ووجدت عرشة فى ركن الحوش وبجانبها حظيرة بها بعض الأغنام، وعربة كارو كان الحصان الذى يجرها مربوطاً على أحد أعمدة الحظيرة، وكان فى نهاية الحوش المبنى الذى كان منهارا وأثار الحريق مازالت معلمة على جدرانه التى كان يغطيها السواد، إقتربت من المبنى كان الإنفجار قد جعل الطابق الأرضى مختفيا ونزل الطابق العلوى، أو ما تبقى منه الى الطابق الأرضى وكانت آثار الحريق طاغية على كل شىء، فجأة رأيت رجلا عجوزا يدخل من الباب الذى جئت منه، وإقترب منى وقال: من أنت؟.

قلت: أنا أخت طارق المغربى يا عم إبراهيم وجئت لكى أرى إمكانية بيع هذا العقار. كنت على يقين بأن طارق وهو يستعد لمثل هذا الإنقلاب لن يعطى عم ابراهيم أى معلومة عن أسرته، قال عم إبراهيم: تفضلى يابنتى، وإتجه ناحية العرشة التى كان يستخدمها كسكن له كانت بها ثلاثة سراير منسوجة من الحبال، وفى ركن منها كانت هناك شجرة ليمون يرقد تحتها زير ماء، وفى الركن الآخر مايشبه المطبخ حيث كان يوجد موقد صغير مربوط بأنبوبة غاز، جلست على أحد الأسرة وأخذت أتأمل فى عم ابراهيم كان يرتدى طاقية بيضاء ويظهر على جنباتها شعره وقد إكتسى باللون الأبيض متناسقا مع شاربه ودقنه الذين أكتساهما

البياض، ويلبس جلبابا أبيض إلى الركبة الذى تحول إلى اللون البنى الفاتح متأثرا بطول الإستعمال وسروال حتى قدميه، وصدرية لونها أسود متناقضة مع بياض ما يرتديه، ولكنه كان محافظ على بنية قوية، جلس قبالتى بعد أن وضع الماء على النار وكان ينتظر منى أن أتحدث ولكنى فضلت السكوت حتى يبادر هو بالحديث فأريد أن أعرف ما الذى يفكر به، ولكنه ظل صامتا فقلت: أتسكن هنا وحدك.

قال: لدى زوجة وولد وبنتين، ولكنهم يعيشون بمدينة رفاعة، ويأتون الى هنا عندما يكون الأولاد يحتاجون الى ما يشتروه من السوق.

كنت أريده أن يخاف منى أو على الأقل يشعر بالرهبة قبل أن أسأله ما أريد، فقلت وأنا أنظر فى عينيه: لقد قررت بيع هذا المكان، فما رأيك.

قال برجاء: ولكن يابنتى أليس من الأحسن صيانته وتأجيره كمحلات فهذه المنطقة أصبحت غالية. صمت فترة كمن أفكر فى ما قاله وقلت: لكنك تعلم منذ وفاة طارق لم يستطع أهلى الحضور إلى هنا.

وقف وذهب يعد الشاى ثم قدمه لى، قال: الحوادث تحصل فى كل مكان، فالأقدار لا يردها زمان أو مكان .

قلت: ماذا حدث فى يوم الحريق.

قال: كنت أتناول الشاى مع جارى حارس معرض السيارات فى المبنى المجاور، وسمعنا صوت إنفجار وعندما دخلنا هنا رأينا طارق من شباك الطابق العلوى واقفا والنار تزداد وصرخنا فيه: أقفز.. أقفز ولكنه ظل واقفا وهو ينظر إلينا حتى سقط ثم زادت النيران فلم نعد نرى شيئا ثم إنهار الطابق العلوى قلت: ماذا كان موجودا فى الطابق الأرضى.

قال كانت هناك الكثير من البضائع وأنابيب الغاز التى أنقلها الى المطعم بنفسى وهى التى سببت الإنفجار.

قلت: والأسلحة أين كانوا يخفوها.

رد خائفا: أسلحة، أى أسلحة، لم يكن هناك أسلحة من قال لك هذا؟. صمت فترة وأنا أدرس نظراته وقلت: السلاح هو ما سبب هذا الإنفجار.

رد غاضبا: صدقينى لم يكن داخل مخازن الطابق الأرضى غير بضائع وأغلبها نقلته على ظهرى هذا، والله شاهد على كلامى.

قلت: والطابق العلوى.

قال: لا أعلم عنه شيئا فطارق يغلقه بنفسه قبل ذهابه فله باب ضخم من الحديد عند نهاية السلم وقد أخبرنى أن به أوراق الحسابات، ولكنى لم أدخل إليه بالمرة، وقد منعنى طارق حتى من دخول السلم. نظرت إلى المبنى ثم سرت باتجاهه، كنت فى قمة حيرتى كيف يؤكد عم إبراهيم عدم وجود سلاح، إذن لماذا إشتروا هذا العقار بدلا من الإيجار، والإنفجار حدث فى الطابق الأرضى، فحتى ينتحر طارق عليه إشعال النار فى أنابيب الغاز فى الطابق الأرضى ثم يصعد السلم إلى الطابق العلوى وينتظر أن يموت هذا لا يعقل، ثم إذا كان إغتيال لماذا لم يقتلوا طارق أولا ثم يفجروا المبنى بمن فيه، كان هناك شيئا مفقودا، وبدأ الغضب يتملكنى فقد بدأت أحس بأن هناك من يكذب، فقلت بعصبية لعم ابراهيم أن يأتى برجال يساعدونى فى رفع الأنقاض، على الأقل حتى أعرف ماذا كان يخفى طارق فى الطابق العلوى فخرج وأتى بعد فترة ومعه خمسة أشخاص، وشرعوا فى رفع الأنقاض التى كانت تمثل سقف المبنى المكون من هيكل معدنى مرتفع فى المنتصف مائلا إلى أسفل على الجنبين وبطانة من الخشب الذى إحترق أغلب أجزائه والطوب المنهار من الجدران، وأخذت هذه العملية وقتا طويلا إمتد لأكثر من خمسة ساعات، وكان الغبار الناتج من الركام قد غطى الحضور جميعا بما فيهم أنا، رغم إننى كنت أجلس تحت العرشة البعيدة عن موقع المبنى، وما أن أكملوا ذلك حتى إقتحمت المكان ورأيت ما كان مفترضا أن أفكر فيه منذ أن قاله

فيصل، إن طارق كان يواجه بالإضافة إلى المشكلة المادية، مشكة الإتصال، لقد صنع طارق ما يشبه محطة كاملة للارسال فى هذا الطابق، كانت الأجهزة كالحجارة السوداء الضخمة وكان الغطاء البلاستيكى الذى يغطى خطوط الكهرباء والإرسال فيها قد أسالته النار فغطى أرضية الغرفة التى كانت مغطاة بالمادة البلاستيكية السوداء، ومتناثرة بعض الأوانى والأكواب على الأرض، نظرت إلى عم إبراهيم الذى بدأ مدهوشا أيضا مما رأى، وأخيراً رأيت نفسى أستطيع الإبتسام، فقد علمت الآن لماذا إشترى طارق المخازن ولم يؤجرها، لم يكن يريد تخزين السلاح ولكنه كان يريد إخفاء أهم جزء فى خطته، طريقة الإتصال أثناء الإنقلاب.

هذه المعلومة جعلتنى أشتعل حماسا، فعند المساء كنت فى منزل فيصل وأديبة، كانت بداية شهر يوليو، تنذر الخرطوم بخريف ليس سهلاً، فقد كانت السماء ملبدة بغيوم داكنة، وبهرنى منزلهم هذه المرة فقد إستطاع فيصل أن يبنى صالون لإستقبال الضيوف، وطلاء المنزل، ولكن ما أثار إعجابى طريقة زراعته للزهور، وتوزيع الإضاءه تحت الأشجار، فما أن أحضرت أديبة الشاى وأضاءت الأنوار حتى خيّل إلىّ إننى أجلس فى إحدى الجنان فقلت لفيصل مازحة: فى مثل هذا الجو يمكننى أن أنظم قصيدة فى ثوانى فلا حاجة لشاعر مثلك.

قال ضاحكا: أتركينا من هذا، وقولى لى ماذا أتى بك، فأنا أخاف من زياراتك. أعطيته الظرف وتناولت فنجان الشاى من أديبة، وأنا أستمتع برؤية تعابير وجهه وهو يتفحص الأوراق بدقة، ثم بدأ عليه الإندهاش وقال: كيف عثرت على هذه الأوراق؟.

قلت: هذه قصة طويلة، ولكنى أريد منك، أن تعرف كم من العسكريين مازالوا على قيد الحياة فى هذه القائمة، لأننى تأكدت من وفاة المدنيين جميعا باستثناء عباس وجيمس لم نعثر على جثته.

قال: ولكن لا أعرف منهم غير دكتور عمر فضل وعباس وطارق وجيمس، وبقية الأسماء لم تكن ضمن قائمتنا فهذه شخصيات جديدة.

قلت: ولكنك كنت تتصل بعسكريين، وأريدك فقط أن تعطيهم هذه الأسماء لنعرف من قتل منهم. قال بتردد: سأحاول، ولكن ماذا يفيدك إذا كانوا أحياء أو قتلوا فقد فشل الإنقلاب.

قلت: إنى أرجح وفاتهم جميعا وفى هذه الحالة يكون السؤال لماذا بقى عباس فقط حياً؟.

كنت أعطى محاضرتى فى الكلية، عندما سمعنا صوت هتاف ضد الحكومة داخل الجامعة كانت هناك مشادات بين أنصار الحكومة وخصمائها من الطلبة، نظر إلى الطلبة كأنهم يتوقعون منى تعليق على الأحداث، ولكنى تابعت الدرس فلم أهتم بما يحدث فى الخارج، ولكنى رأيت جميع الحضور ينظرون من نوافذ المدرج، وبدأ واضحا بأن لا أحد يهتم بما أقول، فتوقفت عن الحديث، لم أكن أريد بأى حال أن أدخل السياسة فى عملى ولكنى لم أستطع أن أشد إنتباههم إلى المحاضرة، ساد الصمت فترة طويلة فى المدرج، ولكن الهتافات فى الخارج كانت صاخبة، ثم قلت لهم: من يريد الخروج فهذا قراره، ومن أراد أن يبقى فعليه التركيز فيما أقول، أنتم طلبة جامعيين لكم حق إتخاذ قراراتكم، لست مسؤولة فى جهاز الأمن لأمنع أحد من الخروج. تشجع بعض الطلبة وخرجوا ولكن الأغلبية ظلت جالسة، وإستغربت ذلك فى أيامنا كان الجميع يخرجون على الفور، هل بقاؤهم ناتج من الخوف مما قد يحدث فى المظاهرات، أم إنه تحمل للمسؤولية فكل منهم له مايكفيه وأهله من مشاكل، لم أعرف إجابة لهذا السؤال، ولكنى إستطعت إكمال المحاضرة وكان جميع الطلبة منتبهين حتى آخر لحظة، كنت أعلم عندما تعطى البشر حرية الإختيار تحصل على أفضل النتائج. ما أن

خرجت من المحاضرة حتى وجدت فيصل فى إنتظارى، كان يبدو عليه أنه يحمل معلومات مهمة، فسألته على الفور: أحياء أم موتى؟.

قال: موتى فى مناطق العمليات بالجنوب.

قلت: السبعة دفعة واحدة؟.

قال: جميعهم.

شعرت بالخوف من فريد النمر لم يرحم أحدا، ولم يأبه برتبة عسكرية أو درجة علمية، ولكن هل هو حى أم توفى؟. كنت أسير باتجاه السيارة وفيصل يسير بجانبى ينتظر منى أن أتحدث، كنت أعلم أنه يتحرق شوقا لمعرفة التفاصيل، إنقلبت الآية أصبح الكل يريد أن يعرف لكن بدون تعب أو مجهود، ركبت السيارة وأدرت المحرك وفيصل واقف رافضا الركوب فقد أحس بأننى سأنتقم منه فلم يعطنى شيئا بسهولة فقال وهو ينظر من نافذة السيارة: ستخبرينى أم لا، لا أريد مزايدات.

قلت ضاحكة: أريدك أن تشعر بنفس شعورى وأنا أتوسل اليك أن تخبرنى عن علاقتك بطارق.

قال: لم أكن أعتقد أنك ستصلين الى هذه المرحلة.

قلت: إطمئن سأخبرك الليلة بكل ما أعرف.

قال : الليلة؟.

قلت: لأنك ستذهب معى فى مشوار فى غاية الأهمية، فأنا أحتاج إلى حمايتك. نظر إلى مستغربا وقال: حمايتى؟.

فقلت له مبتسمة : سأمر عليك فى المنزل بعد العاشرة.

قال: بعد العاشرة أتريدين سرقة بنك.

قلت: نعم ولكنه بنك معلومات. قدت السيارة سريعا كنت مطمئنة مادام الفضول قد تملك فيصل فسينتظرنى على أحر من الجمر، ما أن صعدت الى غرفتى حتى

أخذت دشاً إستلقيت على سريرى يجب أن أنام جيدا كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، يجب أن أكون فى غاية التركيز وأنا أواجه عباس الليلة، فسيكون الموقف فاصلاً إما هزمته ففى هذه الحالة سأحصل على ما أريد من معلومات أما هزمنى وعندها لن أستطيع أن أحصل على شىء منه أبداً.

إستيقظت وقت المغربية كان نومى متقطعا، جلست فى الحديقة، وجاء أبى وهو ينتظر أن يشرب الشاى فى مكانه المعهود، كان ينظر إلى بتمعن، فلم أكن قريبة منهم خلال الايام الماضية، ثم جاء خالد وأمى، ثم بدأ خالد يتحدث مع أبى عن العمل، ثم بدأت أمى بتحويل الحديث عن الزواج، كنت صامتة أفكر فى الوقت مازالت الساعة السابعة، ثم سألنى أبى: عزة كيف حال الجامعة، سمعنا أن هناك مظاهرات.

قلت بعدم إهتمام: نعم ، مشاحنات بين الطلبة.

قال: لا يبدو أنك سعيدة بعملك فى الجامعة.

قلت: زملائى أصبحوا يكرهوننى لأنى أجيب الطلبة عن أسئلة مقررات تخصصهم.

قال: إلتزمى بمقرراتك فقط.

قلت: هى مادة واحدة وعندى وقت فراغ كبير فلماذا لا أفيدهم.

قال: حاولى أن لا تصطدمى بزملائك.

قالت والدتى: حدثها عن الزواج لقد سئمت من هذه الدكتوراة التى لا تأتى إلا بالمشاكل.

رد أبى معنفاً: كل شىء بوقته.

قالت غاضبة: لقد تخطت بنتك الثلاثين ماذا تنتظر. هى ترفض من يتقدم إليها وأنت تشجعها. ثم أخذت تبكى وذهبت إلى داخل المنزل، نظر أبى إلىّ وقال: يجب أن تفكرى بهذا الموضوع بطريقة جدية. ثم قام ولحق بها، بقيت جالسة فى مواجهة خالد ولكنى تعمدت أن لا أنظر اليه فأعلم بأنه سيقوم باغاظتى، ولكنه

تقدم منى وأمسك بيدى وقال: لا تهتمى، ولا تتزوجى إلا من ترينه مناسبا، وأنا أضمن لك إنك حتى لو بلغت الستين سأزوجك.

قلت ضاحكة: من الذى سيتزوجنى وأنا فى الستين.

قال: صديقى عوض فهو خريج أثار، فلن يمانع فى الحصول على الأشياء القديمة. قبل أن يقفز داخل المنزل هذه المرة إستطعت أن أصيبه بفنجان الشاى، ولكنى كنت أبتسم لأن خالد جعلنى أتخلص من التوتر الذى أعانيه وأنا أفكر فى عباس، ثم صعدت إلى غرفتى وبدأت فى لبس ملابس ثقيلة، ثم لففت الثوب حولى وأخذت صور من أوراق الإنقلاب داخل حقيبتى،

أخبرت خالد أن يخبر الوالدة بأننى سأبيت مع أديبة، كنت أعلم بهذا الاسلوب سيعتقدون أننى غاضبة، ولن يتصوروا أبدا بالذي أنوى أن أفعله، أدرت محرك السيارة وإنطلقت إلى سوبا حيث يقيم فيصل وأديبة، التى وجدتها تسألنى بقلق عما أنوى أن أفعله ولكنى طمأنتها، بأننا سنعود خلال ساعة لا أكثر، عندما وصلنا إلى منطقة السكن العشوائى، كنت أتمنى أن أتذكر مكان البيت حيث أنه خلال الليل أصبح كل شىء غريبا، وفعلا بعد أكثر من نصف ساعة إستطعت تحديد المنزل، أوقفت السيارة بعيدا، وان كانت حبات من المطر بدأت فى النزول، وقلت لفيصل أريدك أن تبقى فى السيارة ولا تتدخل إلا إذا صرخت باسمك، فأنا سأحاول ان أستفز عباس وهو سكران فلا أعلم ردة فعله، فقال: ولماذا لا أكون معك.

قلت: لو راك لن يتحدث. نزلت من السيارة وأنا أتمنى أن يكون عباس موجودا داخل المنزل طرقت الباب فلم يجبنى أحد، سمعت صوت غناء وضحك بالداخل، ثم بعد فترة فتحت الباب امرأة فوق الخمسين من العمر، تفحصتنى مليا وقالت: نعم!.

قلت: أريد عباس نظارة. كنت أخاف أن تقول لى أنه ليس موجودا، ولكنها أدخلتنى، كان المنزل عبارة عن غرفتين من الطين وأمامهما مجموعة من الأسرة مرصوصة على شكل مستطيل يجلس عليها ثلاثة فتيات وأربعة رجال ووجدت عباس يجلس فى الوسط كأنه الزعيم، وقالت له المرأة التى أدخلتنى من الباب: عباس .. ضيوف. كان عباس يحكى لهم فى قصة وما أن إلتفت ورآنى حتى نهض من جلسته كمن أصابه مس من الجن، ساد الصمت المكان، حاول عباس أن يعدل من هيئته فلم يكن يريدنى أن أراه بهذه الصورة، ولكنه كان بالكاد يستطيع الوقوف معتدلاً، ثم حاول أن يبدو جاداً وهو يسألنى بغضب: ما الذى أتى بك، ومن أعطاك العنوان. توتر الجو فقد كان الحضور ينظرون إلى بريبة، فقد كان المكان تفوح منه رائحة الخمر والمخدرات، نظرت إلي الجلوس بتكبر وقلت: أريد الحديث معك على إنفراد. تراجع إلى الخلف كأنما يخاف منى وقال: ليس بيننا ما يقال. أخرجت الورقة المذكور فيها أسمائهم وناولتها له، ما أن وقعت عيناه عليها بدأ الخوف عليه ثم بدأ يتحرك باتجاه الباب وهو يحاول جاهدا السير بطريق مستقيم، تبعته وعندما أصبحنا خارج المنزل قلت له: أريد أن أعرف لماذا أنت فقط ما زلت حياً منهم؟. صمت وهو ينظر إلى وقال منفعلا: تركت لكم العالم بمن فيه وأصبحت أعيش فى الحضيض، وتأتى إلى بكل وقاحة لتتهمينى بالخيانة، إذا كنت خائنا أليس من المفترض أن أقبض الثمن، وهذا الثمن على الأقل سيجعلنى أعيش أفضل مما أنا عليه الان.

قلت: أنا لا أتهم أحدا أريد أن أعلم بما حدث، فاذا لم تكن خائناً فلماذا لا تخبرنى بالحقيقة. كنت أعلم بأننى كل ماجعلته فى موقف الدفاع سيتحدث أكثر، وبدأ المطر يشتد ولكن عباس لم يكن يشعر به، فقد كان همه أن يحافظ على وقفته معتدلا ثم إتجه الى الحائط المقابل لمنزلهم وأسند ظهره اليه، كنت أشعر بأنه قد يتحدث، فقلت بلهفة يا عباس. إتهمتنى بأنى لا أهتم، والآن أنا أعلم كل شيء

عن الإنقلاب لأنى أهتم بما حصل، وعندما آتى إليك فى مكان كهذا لأنى أقدر أن هناك مايستحق أن يعرف، وأعلم أن هذه القصة فيها من الألم ما جعلك تأتى الى هنا لتتسى، ولكن الخمر لن تمحو شيئا، أريد أن أعلم متى رأيت طارق أخر مرة وما هى العلاقة التى تربطكم بابنة فريد النمر. كنت أتحدث بصيغة الأمر، وإندهشت عندما رأيت عباس يجلس على الأرض وهو يسند ظهره على الحائط، كانت الأمطار قد زادت فلم أعد أميز بين وجهه والمطر، أخر ما كان يدور بخلدى أن يكون عباس كالحمل الوديع، ولكن يبدو أن عماد كان محقا فأن الخمر تجعل عباس بدون شراسته المعهودة، نظرت الى السيارة التى كانت على بعد أكثر من مائة متر، ولمحت فيصل داخلها وهو يراقبنى وأنا أقف أمام عباس، وقد إبتلت ملابسى بالكامل، بدأ المطر يخف تدريجيا، كان عباس مازال ممسكا بالورقة التى تحتوى على أسمائهم، وأخذ ينطر إليها رغم الظلام فلم يكن هناك إضاءة فى الشارع إلا من داخل البيوت التى حولنا، وكانت الورقة مبلولة تماما، ثم ضغط عليها بيده بعنف حتى أصبحت كالكرة ثم قذف بها إلى منتصف الشارع

وقال: لم أكن معهم فى هذا الإنقلاب.

قلت: ولكن إسمك مكتوب معهم.

قال: طارق أبعدنى عنه بعد أن كنت مشاركا معه.

قلت: لماذا؟.

قال: بعد خروج طارق من السجن، كان همه الأول تجهيز الإنقلاب، ولم يكن يريد إشراكنا فى هذا الأمر، ثم واجهته مشكلة الإتصال، فأضطر الى إدخال جيمس لأنه مهندس إلكترونى فسافر إلى لندن للتدريب على أجهزة الإرسال والإستقبال، وكان يخبر الجميع أن جيمس فى الجنوب، ثم بعد ذلك إحتاجنى فى إدخال الأسلحة التى أرسلها دكتور عمر فضل عبر الصحراء وكان مطلوبا منه إستلامها فى غرب السودان فى ثلاثة شاحنات، وقمنا أنا وطارق وجيمس بقيادتها

إلى حدود الخرطوم بعد رحلة مضنية، ثم قمنا بأدخالها فى عربات صالون صغيرة إلى داخل الخرطوم حيث خبأناها فى بيوت إيجار سكنية، حيث تم دفنها فى فناء كل بيت وهى مغلفة بأكياس متينة، ثم بدأنا فى مراقبة فريد النمر وهو كان مسؤولاً كبيراً فى الأمن، كان قد قام باعتقال طارق وتعذيبه فى السجن وكنا نشتبه بأن له علاقة بوفاة بعض المعتقلين، كما أنه كان المسؤول عن مراقبة كافة أنشطة الجامعة، وأقنعنى طارق بأن أفضل طريقة للتخلص من مراقبة العميد فريد النمر بأن نراقبه نحن، وإكتشف طارق أن له إبنة كفيفة تدرس فى أحد المعاهد الخاصة، وكانت والدتها من مصر غالباً ما تذهب بها إلى المعهد صباحاً وتعود بها بعد الثانية ظهرا، ثم إستغل طارق خبرته فى الجمعيات الخيرية خصوصاً بأنه كان مسؤولاً عن جمعية الأمل للمكفوفين وإستطاع أن يعقد إتفاقا مع مدير المعهد بالتعاون فى برامج تعليم المكفوفين وتوفير لوازم المعهد، وأخذ يتردد على المعهد ووثق علاقته بكل الأساتذة والطلبة بما فيهم ياسمين فريد النمر، كنت أقوم بترتيب وصول إحتياجات المعهد، وتعرفت إلى ياسمين كانت جميلة، ملاك يمشى على الأرض، كانت بريئة نقية كل من يراها يعجب بها أى شخص وأصبحت أراها يوميا، حيث أن عملى كمتدرب فى مكتب المحاماة لم يكن يأخذ الكثير من الوقت، حتى فلم أعد قادرا أن أستغنى عن رؤيتها، وكنت أحس بالسعادة وأنا أقودها، وكانت عنيدة ترفض أن يقودها أحد إلا عندما يكون المكان جديداً عليها، ثم تعرفت على والدتها، التى أصبحت تثق فى ثقة مطلقة، حتى أصبحت تطلب منى فى بعض الأحيان عندما تكون مشغولة، أو أن هناك مشكلة فى سيارتها، أن أعود بياسمين إلى البيت، وكنت أستغل وجود سيارة الجمعية معى فأقضى بها كل طلبات ياسمين ووالدتها، ثم طلبت منى والدتها أن أزورهم بالبيت لتعرفنى بوالد ياسمين، ولكنى خفت أن يعرفنى فريد النمر فكنت أتهرب من زيارتهم، وكان عندما يأتى والدها فى بعض الأوقات إلى المعهد، أختفى خوفا من أن يتعرف

عليّ مع أنى أعلم أنه لم يرنى من قبل ولكنى كنت أخاف من أسمى فلى ملف كامل فى جهاز الأمن، وترك طارق لى مسألة جمع المعلومات عن تحركات فريد النمر، فكانت ياسمين تخبرنى بسفر والدها، أو غيابه من المنزل حتى أستطعنا أن نكون فكرة كاملة عن تحركاته خلال كل إسبوع، وأصبح طارق يعلم أين يتواجد العميد فى كل لحظة، ثم فى يوم طلبت منى والدتها، أن أعود بياسمين إلى البيت، وكنت فى العادة أوصلها إلى الباب ثم أهرب خوفا من أن يرانى والدها، ولكن فى هذه المرة كانت والدتها تقف أمام الباب فى إنتظارنا، وأصرت أن أدخل إلى المنزل، ودخلت وجلست فى الحديقة، وأنا أحاول أن يبدو عليّ الإستعجال، فدخلت ياسمين إلى داخل المنزل، وقالت والدتها التى كانت تجلس أمامى: لابد أن تتناول معنا طعام الغذاء اليوم، فقد أخبرت والد ياسمين الذى سيأتى بعد قليل فهو يريد أن يراك. شعرت بالخوف ولكنى إستجمعت شجاعتى وقلت لنفسى فليحدث ما يحدث، وفعلا جاء العميد وسلم وجلس أمامى يتفحصنى بريبة، وكانت والدة ياسمين تمدح فى أخلاقى وإهتمامى بياسمين، ولكنه سألنى فجأة وهو ينظر داخل عينى وقال: عذرا ولكن لماذا هذا الاهتمام بياسمين فهناك الكثير من الطلبة معها؟.

فقلت سريعا: لأنى أريد أن أتزوجها. لم أعرف لماذا قلت ذلك مع أننى حتى لم أتحدث مع ياسمين فى الأمر، نظراً إلىّ بدهشة ثم نظراً إلى بعضهم وساد الصمت، ولم أستطع أن أحتمل السكوت، فنهضت وإعتذرت عن الغداء قائلا: صدقونى لا أستطيع أن أكل شيئا، أريد فقط أن تفكرا فى الأمر وتعطونى قراركم، سلمت على العميد سريعا، ولكن ما أزعجنى أن والدتها كانت تنظر إلى بحزن، غبت بعد ذلك عن المعهد لمدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع إتصلت بى ياسمين فى المكتب وطلبت منى الحضور إلى منزلهم، فوالدتها تقيم لها حفلاً بمناسبة تفوقها فى المعهد، لم أكن مرتاحاً للأمر فقد كنت أتوقع أن تدعونى للحديث

معى بمفردى، ولكنى ذهبت حسب الموعد فى الخامسة مساءاً، كانت ياسمين تنتظرنى فى الحديقة وإقتربت منها فى هدوء، وكانت تعرفنى من وقع خطواتى على النجيل فقالت مبتسمة: أجلس ياعباس. فجلست أمامها وأنا صامت، فمدت يدها وسلمت على وهى تقول: أشكرك بحرارة.

قلت: على ماذا؟.

قالت: عندما يأتى لكفيفة مثلى رجل مثلك ويطلبها للزواج فلابد أن تكون ممتنة، فأنت لا تدرى فى هذا الظلام الذى أعيشه، أن يقال لك أن أحداً يريدك.

قلت مرتابا: هل هذا يعنى إنك موافقة.

صمتت فترة وقالت: لو كان بيدى لقلت نعم وألف نعم.

قلت: وما الذى يمنع أن تقولى نعم.

قالت: لا أريد أن أخدعك، فكل مشاعرى مع رجل أخر، مع أن عقلى والمنطق مقتنع بك قلت: هل أعرفه.

قالت: طارق المغربى، صمت ولم أستطع أن أقول شيئاً، ولم أستطع أن أقول لها بأنه مرتبط فلم أكن أريد أن أصدمها وأنا أعلم بأن قلبها ضعيف، ولكنى فى هذه اللحظة كرهت نفسى وطارق، فقد أصبحت هذه القصة تثير الاشمئزاز، شعرت بأننا أصبحنا أسوأ من فريد النمر، وتسألت ماذا سيفعل طارق فهو لن يترك منى حسين من أجل بنت عدوه، ولكن أليس مخزياً أن يجرح هذه البريئة فى سبيل ماذا؟. أن ننتقم من والدها، نظرت عند مدخل المنزل فرأيت والدتها تنظر إلى، الآن علمت بأنها كانت تعلم بأن ابنتها متعلقة بطارق ولكنها لم تستطع أن تقول لى، نظرت إلى ياسمين وقلت لها: أعزرينى يجب أن أذهب.

قالت غاضبة: لن يكون هنالك حفل لو ذهبت، إننى لا أثق فى أحد غيرك ياعباس، فأنت أخى وصديقى الوحيد فى هذه الدنيا، ولو كنت ستتركنى، فأنا موافقة على الزواج منك ولكن لا تتركنى، ثم أخذت تبكى، لم أعرف ماذا أفعل،

ولكننى كرهت اليوم الذى وافقت طارق على هذه الخطة، جلست وإنتظرت المدعويين، الذين حضروا بعد السادسة وكان أغلبهم أساتذة وطلاب المعهد، كنت أساعد والدة ياسمين فى تقديم الشاى والحلويات فى البهو الكبير داخل منزلهم، كانت والدتها تشكرنى على مساعدتها، كنت أحس بأنها تحاول أن تواسينى بكلمة أو نظرة ولكنى لم أترك لها المجال لتبادل الحديث معى، وكانت ياسمين متأبطة ذراع أبيها، وهى تسلم على الضيوف، وفجأة رأيت طارق عند المدخل، كان مرتدياً بدلة كاملة، كان فى قمة أناقته، وكان ينظر إلى فريد النمر مباشرة وهو يبتسم، أدركت فى هذه اللحظة، بأن طارق خطط لكل هذا لكى ينتقم، لقد أستغل مشاعر ياسمين عمداً ليقف هذا الموقف، وإستغلنى شخصيا لأجمع له المعلومات حتى يكمل إنتقامه، كان فريد النمر مذهولا برؤيته أكثر منى، ولكنه ظل صامتا عندما رأى طارق يتقدم ويسلم على إبنته، ثم يأخذها ويخرج بها إلى الحديقة وهى تضحك غير مصدقة وجود طارق معها، ظللت أراقب العميد كان جسمه يرتعد من الغضب ولكنه ظل واقفاًً مكانه، ثم توجه الى المطبخ، فأدركت بأنه يبحث عن زوجته فذهبت خلفه حاملا صينية بها بعض الأكواب الفارغة، ولكنه أغلق باب المطبخ خلفه ولكنى سمعت صياحه مع زوجته يسألها متى تعرفت إبنته على طارق المغربى، وكانت تقول له بأنه يعرفها من المعهد، ثم أخذ يطلب منها أن تنهى هذه العلاقة فوراً لأن طارق يريد الإنتقام منه، وكان آخر ماسمعته قول والدتها يجب التعامل بهدوء لأن إبنتها متعلقة به حتى إنها رفضتنى لهذا السبب، بعدها قررت أن أهرب من هذا البيت، وما أن خرجت إلى الحديقة قابلنى طارق كان واقفا مع ياسمين، ولكنى تخطيته وخرجت، وكان يصيح أن أنتظر، ولكنى ركبت السيارة وذهبت وأنا عازم أن لا أعود إلى هنا ثانية، ولكنى كنت واهما فقد إتصل بى فريد النمر فى اليوم التالى باكراً وطلب منى الحضور حالاً إلى المنزل، وشعرت بالخوف بل بالرعب فقد إكتشف ما يدور حوله فلا بد إنه سيبدأ فى الرد،

وفكرت فى أن أخبر طارق ولكنى قلت لنفسى أن طارق أصبح أسوأ من فريد النمر وهو من أدخلنى فى هذه الخطة فلابد من أتحرك لوحدى، أريد الخروج حتى لو قتلوا بعضهم فان هذا الأمر لا يعنينى بعد اليوم، وفى العاشرة صباحا كنت فى منزله، وإستقبلنى فى غرفة مكتبه وأغلق الباب رغم أنه كان وحده فى المنزل، ثم سألنى قائلا:عباس محمد أدم إن لك ملف فى جهاز الأمن، هل تريدنى أن أعتقد بأن معرفتك بابنتى مجرد صدفة؟. من صيغة سؤاله أدركت بأنه مازال يشك فى دوافعى، وأنه غير متأكد من إشتراكى مع طارق، وحمدت الله بأنى تقدمت بطلب الزواج منها، مما جعلهم يشكون فى إحتمال مشاركتى لطارق، وقد كنت أتوقع هذا السؤال فرددت سريعا: قبل أسبوع فقط علمت بأنك تعمل فى جهاز الأمن، ولو كنت أعلم قبل ذلك لقطعت صلتى بياسمين. كنت أتكلم بثبات رغم أننى كنت مرعوبا منه، فنظر إلى باستغراب وسألنى قائلا: لماذا تتحامل على جهاز الأمن؟. لولا هذا الجهاز لتحولت البلد إلى فوضى.

قلت: ما تعرضت إليه من أفراد هذا الجهاز لايمكن أن أنساه ما حييت.

قال: ومن أخبرك بأنى أعمل هناك؟.

قلت: طارق المغربى. كنت أعلم بأن هذه الإجابة ستقنعه بأنى لا علاقة لى بما ينويه طارق، فقال: هل تخبرنى كيف تعرفت على ياسمين؟.

قلت: أننا منذ كنا فى الجامعة لنا نشاط فى الجمعيات الخيرية، والمعهد الذى تدرس فيه ياسمين كان من ضمن نشاطنا فتعرفت عليها هناك.

قال: وهل تعلم بأن طارق يستغل ياسمين لينتقم منى.

قلت: أعلم فقط بأنك قمت باعتقاله وتعذيبه، وما يهمنى فى هذه القصة ياسمين، فلا دخل لى بعلاقتكم

قال: يمكننى أن أقتله اليوم لو أردت، فلن أسمح له بأن يتلاعب بابنتى. ظللت صامتا فلم أرد عليه فأنا أعلم بأنه قادر على ذلك. أخذ يتمشى فى الغرفة كان

واضحا بأنه لا يستطيع إتخاذ قرار، ثم فجأة دخلت والدة ياسمين ثم جلست أمامى وقالت: لقد أوصلت ياسمين إلى المعهد ياعباس لأننى لا أريدها أن تسمع بماسنقوله هنا، هل فعلا طارق يتلاعب بياسمين؟.

قلت: لا أعلم شيئا بهذا الموضوع.

قالت: أنت تعلم بأن بنتى مريضة، وأن قلبها ضعيف، وطارق أول شاب تتعلق به فى حياتها. ثم بدأت فى البكاء.

فقال فريد النمر: سأقتله إذا حدث لها شيئا.

فصرخت فيه زوجته بأن يصمت فهو السبب فى كل هذا الأمر، ثم قالت لى: أريدك أن تكون بقربها فهى لا تثق فى أحد غيرك، وعدتها خيراً وخرجت، وبدأ طارق مسيرة الإنتقام فقد كان يأتى إلى منزل خصمه ويجلس مع ياسمين، وكانت والدتها تتودد إليه، أما فريد النمر فقد كان يشعر بالخوف من طارق حتى إنه أخبرنى بأن لامانع لديه من تسوية مع طارق أو مصالحة فقد كان يعلم أن طارق ينوى شيئاً ولكنه لم يكن يعلم ماهو، ثم قمت بأخبار منى حسين بما يحدث فهى الوحيدة القادرة على إيقاف طارق، وقابلته منى فى حفل واحد وعشرين إكتوبر وتشاجرت معه ولكن منى لم تستطع إيقافه، فقد أصبح طارق كالقاطرة يأخذ كل من يقف فى طريقه، وعندما علم طارق بأننى من أخبرت منى جائنى غاضبا، وشتمنى وتعاركنا، وإنهلت عليه بالضرب حتى خرج الدم من فمه وأنفه، كان ساقطا أمامى بلا حراك، لم أعلم لماذا ضربته بهذا العنف هل لأنه أخذ منى ياسمين فأصبحت حاقدا عليه، أم لأننى أتمسك بالمبدأ وأن ما يفعله طارق ليس من الرجولة فى شيء، فاذا كان يريد الإنتقام من أبيها فيجب أن لا يدخل ياسمين فى هذا الأمر، أخذته إلى المستشفى بعد ذلك لأنه كان ينزف بشدة وقاموا بعمل عملية جراحية فى فكه الأسفل حيث أضطر الطبيب إلى خلع أحد الضروس المهشمة داخل اللثة، وظللت أنتظر أن يفوق طارق من إغمائه حيث كان البنج

غير كافى لاجراء العملية ولكنه أصر على اجرائها، أدركت وقتها أن طارق عنده القدرة على إحتمال الضغوط والألم أكثر منى، مثل ما لفريد النمر القدرة على تعذيب الأخرين أكثر من أى شخص أخر، وما أن إستيقظ حتى قلت له: أعذرنى لما حدث ولكنى لا أقبل أن يجرح أحد ياسمين، أنى متيم بها، هل تقبل ذلك على منى حسين.

نظر إلى مبتسما وقال: صدقنى أنا أعرف ذلك ولكنى لا أستطيع أن أتركها.

قلت له بغضب: أنت مجنون بمنى حسين، فكيف لا تستطيع أن تتركها؟.

قال: لأنى لو إنتهت علاقتى بها، سيقتلنى والدها، إن ما جعلنى حياً حتى الآن هو خوف والدها عليها، ولكن إذا إ ستطاعت أن تبتعد عنى، فأول ما يفعله هو قتلى. كان كلامه منطقيا فقلت له: والحل؟.

قال: الإنقلاب، فلكى أعيش لابد أن أنزع السلطة من فريد النمر.

قلت: وإذا أخذنا السلطة بنفس إسلوب فريد النمر، سنكون أسوأ منه.

قال: السياسة فن التعامل مع المتاح، هل إستطعنا أن نجعل الشعب يثور ورفضنا؟. ثم صمت لحظات وقال: أريدك أنت وجيمس خارج هذه اللعبة، فأنا من أقحمتكم فيها.

قلت: أنا معك حتى النهاية.

قال متوسلاً: أرجوك لا أقوى على الكلام، جيمس سيعود إلى الجنوب، وأنت لن تشترك معنا، إعتبره آخر طلب أطلبه منك، ثم نهض من السرير وعانقنى، أحسست بأنى لن أراه ثانية، فقد كان واضحاً أنه حدد موعد الإنقلاب، أمسكت بيده حتى باب المستشفى، حيث إستقل سيارة أجرة وذهب، بعدها أتيت إلى هذا المنزل حيث كنا نتقابل فيه سراً عند الضرورة، وظللت مختفيا فيه مترقبا خبر الإنقلاب، وكنت أتصل بالمكتب لأعلم بمن إتصل بى وفى يوم أخبرونى بأن حامد الأخ الأكبر لطارق إتصل بى يريدنى لمقابلة والده، فذهبت سريعا إلى

منزلهم حيث أخبرنى والده بأنه يعتقد بأن طارق أعتقل، فذهبت أبحث عنه فى كل مكان ولم أجده، ولكن عندما توجهت إلى المخازن فى المنطقة الصناعية، شعرت بأن المكان مراقبا، فقد كانت هناك سيارات غريبة على المنطقة تقف على الشوارع الجانبية، ولم أعلم إذا كان طارق بالداخل أم إنهم ينتظرونه، وكانت هناك طريقة نستخدمها للدخول عبر العقار الذى يقع خلف المخازن، ثم نقفز السور الفاصل بين العقارين الى الحوش الذى يحتوى على مخازننا، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، كنت أنظر من فوق السور، أحاول أن أعرف إذا كان طارق موجودا وإنتظرت أكثر من ساعة، ثم رأيت فريد النمر، يقتحم المكان مع رجاله، بدأوا بتفتيش المكان بالكامل ولكنهم لم يجدوا أحداً، فتأكدت بأنهم علموا بالإنقلاب، وان طارق قد أعتقل ولكنى تفاجأت بأنهم يضعون متفجرات فى الطابق الأرضى، فأدركت بأنهم سينسفون محطة الاتصال التى أنشأها جيمس هناك ،ثم خرجوا سريعاً، نظرت إلى العرشة لم يكن عم إبراهيم موجودا، كنت أريد أن أسأله متى رأى طارق آخر مرة، إنتظرت فى الحوش المجاور لأكثر من ساعتين، منتظرا حدوث الإنفجار، فبعد وقوعة كنت أعلم بأنهم سيذهبون، ولكن الإنفجار لم يقع، وعم إبراهيم لم يظهر، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا، فانتظرت حتى بعد صلاة الفجر حيث بدأت الحركة تدب فى الشوارع، فخرجت وجئت إلى هنا، لم أعرف من أبلغ عن الإنقلاب، كنت أتصل فقط بالمكتب من الشارع لأعلم من إتصل بى، ثم من الجرائد علمت بوفاة المشتركين بالإنقلاب من دكاترة الجامعة فقد كنت لا أعلم شيئا عن العسكريين المشتركيين معنا، فطارق كان حريصا على أن لا نعرف المجموعة بكل أسماء المشتركين، حتى إذا تم إعتقال أحد لا يعطى معلومات كاملة، وكنت أخاف أن أذهب إلى ياسمين فيقتلنى فريد النمر، ثم بعد يوم أو إثنين على ما أذكر، وكان الليل قد إنتصف سمعت قرعا على الباب، ووجدت طارق كانت حالته سيئة، وقميصه كان مغطى بدمائه،

كان يقود سيارة أجرة وما أن رأنى حتى عانقنى بقوة فلم يكن يصدق بأنى مازلت حيا، وطلب منى الهروب خارج البلاد، فقلت له يجب أن نهرب معا أن فريد النمر يبحث عنه، ورويت له ماحدث فى المخازن، فقال لى: أنا أبحث عنه أيضا، لقد قتل الجميع.

فقلت: هو ينتظرك سيقتلك قبل أن تستطيع الإقتراب منه ولكنه أخرج مسدسا من جيب الجاكت وقال لى: أنا ميت فى كل الأحوال، أريدك أن تهرب، وأن تبلغ منى بأن طارق يقول لك بأنه لم يكن له خيار، لقد حاولت أن أصل اليها ولكنها تحت المراقبة. أمسكت به وقلت له نعيش معا أو نموت معا، أما أن تهرب معى أو أتى معك. دفعنى بعيدا وقال: لا أستطيع، وتوجه إلى الباب قفزت وأسقطته أرضا ولكنه أفلت منى ونهض وأشهر المسدس فى وجهى وأنا على الأرض وهو يقول: عباس أنت لا تفهم حتى عندما نفشل هناك إلتزامات يوجبها الفشل، حتى إذا لم يقتلنى فريد النمر فلا أستحق أن أعيش، ولا أريد أن أعيش، أرجوك ياعباس أهرب. قال هذه الجملة والدموع فى عينيه، وشعرت بأنه يحمل نفسه مسؤولية وفاة الجميع، وقرأت فى عينيه بأنه يريد الموت، كنت ساقطا على الأرض وهو واقف أمامى قفزت وأمسكت برجليه ولكنه أطلق النار على يدى، فأفلت منى وخرج، كانت إصابتى فى اليد اليسرى، فتحاملت وذهبت إلى المستشفى، حيث أخرجوا الرصاصة، وبلغت الساعة السابعة صباحاً عندما أكملت الشرطة الأسئلة بخصوص الطلق النارى فقد أخبرتهم أن أحد اللصوص أطلق على النار عندما إكتشفت وجوده بالمنزل، خرجت من المستشفى، وذهبت إلى المخازن حيث وجدت أن كل شيء قد إنتهى وإنتظرت حتى العصر ثم إتصلت بالمكتب فأخبرونى بأن سامية إتصلت تبلغنى بوفاة طارق وأن الدفن غدا صباحا لم أستطع أن أغيب عن الدفن، رغم علمى بأن فريد النمر قد يكون فى إنتظارى فذهبت وجلست على قبره وأحسست بأن أحلامنا وعمرنا دفنا هنا، شعرت أن طارق إرتاح وأراح، لم يكن

هناك حلاً أخر غير هذا، فقد كان مثل وجع الضرس ظللنا نسكنه بحبات القرنفل حتى يهدأ، وكنت أنا ومنى وأهله وشلته وياسمين هذا القرنفل نعانى من أحلامه حبا فيه، ولكن الحل كان فى خلع الضرس، أجل لم يكن هناك حلا لآمال طارق إلا أن تدفن هنا، ثم أخبرنى زميلى فى مكتب المحاماة وأنا جالس على القبر بأن ياسمين تبحث عنى، كنت أعلم بأن ذهابى إليها يعنى موتى ولكنى قررت أن أنتقم لطارق سأقتل فريد النمر بنفسى، عدت إلى هنا وأخذت مسدساً، وعندما وصلت منزلهم كان الوقت ظهرا ووجدت ياسمين جالسة فى الحديقة وما أن سمعت خطواتى أمامها حتى صاحت: عباس أين أنت أنا أبحث عنك، لا أستطيع أن أعثر على طارق، ثم رأيت والدتها تخرج من المنزل على صوت إبنتها، ونظرت إلىّ كانت يدى ملفوفة ومعلقة برباط معلق برقبتى، وأدركت بأن شيئا قد حدث، وضعت يدها فى صدرها وهى خائفة، نظرت إلى ياسمين ولم أعرف كيف أخبرها بأننى دفنت حبيبها قبل قليل وسأقتل أبيها بعد قليل، إنهمرت الدموع على وجهى وأنا أراها تحرك يديها أمامها وهى تحاول الوصول إلىّ، وما أن أمسكت بيدى المربوطة حتى شعرت بأن هناك شيئا ثم أخذت تبحث عن وجهى بيديها الإثنتين وما أن شعرت بدموعى على يديها قالت: طارق. ظللت صامتا، أمسكت بقميصى وهزتنى بعنف وهى تصرخ: لا ..لا ثم أخذت أنفاسها تتلاحق وقبل أن تسقط، كنت أحملها بين ذراعى ركضت والدتها ناحيتى ثم طلبت أن أحملها إلى غرفتها، ولكنى عندما وضعتها على السرير كانت جثة هامدة، كانت والدتها تناديها بصوت خافت وهى جالسة بقربها بالجانب الأخر من السرير، وكنت أمسك يدها وأنا جالس على الأرض ثم وضعت وجهى على يدها وبكيتها وبكيت طارق، بل كنت أبكى كل ما أردته فى هذه الدنيا، وما أن حانت صلاة العصر حتى كنا فى المقابر للمرة الثانية فى نفس اليوم كنت أقف أمام القبر وفريد النمر أمامى مباشرة من الناحية الأخرى للقبر كان مسدسى تحت القميص محشورا بين

ظهرى وحزام البنطلون، وكان مسدسه أعلى ذراعه الأيسر تحت الجاكت، كانت عيناه تقول ليس الآن، لأول مرة أرى الحزن فى عينيه، ولأول مرة أراه رجلا عجوزا، أحسست بأنه إكراما لياسمين ليس الآن، غادرت المقابر سريعا وجئت بعد أن تأكدت بأن لا أحد يراقبنى وإختبأت هنا لمدة ثلاثة أيام، كنت أريد أن ينفض العزاء فى بيته، ثم ذهبت ليلا إلى بيته وقفزت من السور وكان جالساً فى بهو المنزل، أخرجت المسدس وإقتربت منه، ظل صامتا ينظر إلى، ثم شعرت بأنه كان ينتظرنى، وسألته عن زوجته فقال بأنها هجرته وعادت إلى مصر، فتشته فلم أعثر على سلاح، رفعت المسدس أمام وجهه مباشرة، أغمضت عينى فلم أمارس الإعدام من قبل حاولت أن أضغط على الزناد ولكنى ترددت، فتحت عينى ودهشت فقد رأيته أطبق بفمه على فوهة المسدس، كانت دموعه تنهمر على وجهه، لم أعلم لماذا هذه الدموع، هل هو نادم، أم إنها دموع الخسارة، سحبت المسدس من أمامه، إذا كان يريد الموت فلن أعطيه له، أخرجت الطلقات من المسدس وضعتها فى جيبى، وألقيت المسدس على الأرض، فصاح: جبان ياعباس. .ألا تستطيع أن تكون رجلا مرة واحدة فى عمرك، لقد نسفت صديقك من الدنيا، خرجت إلى الحديقة، وكان يصيح خلفى: جبان ياعباس، نظرت إلى منزله قبل أن أغادره فقد كانت يسكنه الظلام والوحدة.

صمت عباس وإشتد المطر، فلم أعد أميز بين دموعه والمطر، بدأت أفهم لماذا عباس كان الأكثر إنهيارا لم يفقد صديق عمره فقط ولكن حبيبته أيضا، فقد ماتت بين يديه فلم يعد لديه الرغبة فى مواصلة حياته، وشعرت بأن عباس قمة فى التضحية، أحبت ياسمين طارق ولكنه كان يكفيه أن يراها سعيدة أمامه، لم يطلب الكثير ولكن حتى القليل لم ينله، مددت يدى إليه حتى ينهض وقلت له: إشتد المطر ستصاب بالبرد يجب أن تدخل، مد يده إلى وكانت هذه أول مرة ألامس يد عباس فلم يكن بيننا يوماً سلام.

قضيت ليلتى مع أديبة وفيصل وهما يتجادلان بعد أن حكيت لهم القصة كاملة، فقالت أديبة أن طارق كان يجب أن يأخذ عباس ويهرب، بينما فيصل يرى أن الهروب ليس من صفات طارق فكان لابد من أن يواجه الموقف، وفى الصباح بعد أن أوصلت أديبة إلى مكتب أبى قررت أن أقوم بزيارة منزل فريد النمر لم أكن أعلم إذا كان حيا أم توفى ولكن كان لابد أن أشاهد هذه الشخصية، وكنت قد أخذت العنوان من عباس، وكان منزله قريب من بيتنا بالرياض مما شجعنى على هذه الزيارة، عندما وصلت إلى المنزل لاحظت بأنى مررت به أكثر من مرة ولكنى لم أكن اعلم بأنه منزل فريد النمر، قرعت الجرس جائتنى سيدة كبيرة فى السن وسألتها عن فريد النمر هل هو موجود ضحكت وقالت: طبعا، أين يذهب. علمت بأنها مدبرة المنزل جاءت بعد رحيل زوجته وتقيم معه هى وزوجها الذى يعمل كسائق وجناينى فى نفس الوقت، عندما دخلت إلى الحديقة بدأت أستعيد الأحداث التى رواها عباس، ثم أدخلتنى إلى بهو المنزل ثم إتجهنا إلى غرفة بالقرب من السلم الذى يؤدى إلى الطابق العلوى وما أن فتحت الباب حتى قالت: سيادة العميد زيارة. كان هناك رجلاً عجوزاً يرقد على السرير وبجوار السرير كرسى بعجلات، كانت كمية من الأدوية موضوعة بجانب السرير، أخذ ينظر إلىّ من خلف نظارته باهتمام، فقد كان واضحاً أن لا أحد يأتى إليه، ولكن من هيئته يمكننى أن أقسم بأن ما يحكى عنه مجرد أكاذيب، فقد كان جسمه قد هده المرض، لا أعتقد بأنه قادر على حمل ورقة، الآن أدركت بأن عباس إنتقم منه، سألنى بصوت خافت: من أنت؟.

قلت: كنت معلمة ياسمين فى المعهد، وسافرت إلى الخارج وعندما عدت علمت بوفاتها، أحسن الله عزاءكم، إبتسم ونظر من النافذة وقال: ياسمين، كان ينظر كمن يراها تلعب أمامه وظل على هذا النحو لفترة، نظرت إلى مدبرة المنزل التى قالت إنه هكذا يتبادل الحديث بكلمة أو إثنين ثم يبدأ بالسرحان. شعرت بخيبة أمل

فلا أستطيع أن أخذ منه أى معلومة، خرجنا من الغرفة، وشعرت بأنى لن أستفيد شيئا من هذه الزيارة ثم قلت لمدبرة المنزل: كانت هناك صور تجمعنى بياسمين ووالدتها، هل يمكن أن أخذها، فقد كانت تحتفظ بها والدتها. كنت أحاول أن أجد أى عذر للبقاء، صمتت المدبرة لحظات ثم قالت: لا أعلم شيئا عنها. قلت هل يمكننى رؤية غرفة ياسمين؟. قالت: طبعا، فلا أحد يأتى لزيارتنا يمكننى أن أريك المنزل كاملاً، صعدنا إلى الطابق العلوى، وأدخلتنى أول غرفة وقالت: هذه غرفتها كما هى فقد رفض العميد تغيير أى شىء فيها. ثم سألتنى ماذا أشرب فقلت لها قهوة، حتى تتركنى أكثر وقت ممكن، كانت الغرفة بها سرير ودولاب من بابين ومكتب صغير فتحت أدراج المكتب ووجدت كتب مطبوعة بطريقة برايل، فتحت الدولاب كان به ملابس مرتبة بطريقة جميلة وأحسست بأن والدتها كانت تهتم بكل التفاصيل، ثم لاحظت وجود حقائب يد أخذت أفحص محتوياتها ووجدت مسجلة صغيرة فى أحداها، وتذكرت أن سامية ذكرت بأنها كانت تسجل أصوات من تتعرف عليهم بها، بدأت أبحث عن الشرائط فلابد أن يكون هناك كمية منهم، ولكن كان الدولاب خاليا منها، ثم المكتب كذلك، أين يمكن أن تخفى بنت كفيفة شيئاً خاص بها، بدأت أبحث فى السرير ووجدت درجا على جانب السرير الخشبى، ولكنه كان مغلقا، بحثت فى شنط اليد ووجدت مفاتيح، شعرت بخطوات مدبرة المنزل على السلم، فأسرعت وجلست على السرير، ما أن دخلت قلت لها: هناك شرائط نستخدمها فى تعليم اللغة، كانت ياسمين قد طلبتها منى، هل تستطيعين أن تبحثى لى عنها، أعطتنى القهوة ثم أخذت تبحث فى الدولاب ثم المكتب، أشرت لها على الدرج بجانب السرير فلم تستطع أن تفتحه، ولكنها كانت تعلم أن المفاتيح فى شنطة اليد فأحضرتها وفتحت الدرج، كان به أكثر من عشرين شريطا مرتبة بطريقة جميلة، فقالت المدبرة : المال الحلال لا يضيع.

قلت: سأنسخها وأرجعها لك.

فقالت: لا داعى فلا أحد سيستخدمها هنا. وضعت الشرائط فى كيس ثم ناولته لى، كنت قد شربت القهوة على عجل، شكرتها ووعدتها بزيارة العميد ثانية. ما أن دخلت المنزل وجدت والدتى تقول غاضبة: لايمكن أن تتركى المنزل كلما حدثتك فى موضوع الزواج.

قبلتها وأنا أبتسم وصعدت مباشرة الى غرفتى فقد كنت أتشوق لمعرفة ما يوجد فى الشرائط.

أحضرت جهازالتسجيل وفنجان شاى، وبدأت أستمع لكن خاب أملى قليلا وأنا أجد معظم الشرائط خاصة بالمعهد، ثم وجدت شرائط خاصة بمعرفة أصوات من تتعرف إليهم، وقد كان صوت عباس معها فى أغلب الزيارات، فقد كان واضحا بأنها لا تزور مكان إلا وهو معها فقد كانت أغلبية التسجيلات فى المعهد و الجامعة، ثم عثرت على شريط تتحدث عن يومياتها، كان واضحا بأن لديها الوقت لتسجيل أى شىء فقد كانت تتحدث عن زيارة الأسواق وإحساسها بملمس القماش على أناملها، وإنطباعاتها عن الندوات الشعرية وتعليقها على بعض برامج الإذاعة ولكن فجأة تحدثت عن ما يفعله والدها فبدأت تقول: إن لوالدى هواية غريبة فما أن تحدث مظاهرات فى مكان حتى يأتى ويأخذنى من المعهد خوفا من أن يحدث شيئا لى، ولكنه لا يعيدنى إلى المنزل، بل يظل يسير حول مكان المظاهرة ثم يتوقف للطلبة الهاربين من شرطة مكافحة الشغب بحجة مساعدتهم، ثم يبدأ بسؤالهم عن منظمى المظاهرة، وكانوا يثقون فيه فيبدأوا بالحديث عن زملائهم، وما أن يشعر بأن لديه معلومات كافية حتى يسلمهم للشرطة، ثم يبدأ بالضحك على منظر الدهشة على وجوههم، وكان يطلق عليهم لفظ الأغبياء، كنت أستنكر ذلك منه ولكنه أخبرنى بأن من واجبه حفظ الأمن فقلت له ولكنك تعطيهم الأمان فيقول الحرب خدعة، ولكن اليوم تكرر الأمر مع اختلاف بسيط، بعد أن سلم أبى الطالب لم يبدأ الطالب بالصراخ وكيل الشتائم لأبى و لم يضحك

أبى بل ظل الصمت يغطى المكان، حتى بعد أن تحركت السيارة ظل أبى صامتا لم أعرف لماذا وقد سألته لماذا لم تعلق هذه المرة ولكنه ظل صامتا. ثم بدأت فى الحديث عن زملائها فى المعهد، ثم تعليقها على أساتذتها، كانت تتمتع بنبرة ساخرة على الأحداث وكانت لا تهتم بذكر تاريخ الأحداث، إلا إذا كانت هنالك مناسبة محددة بتاريخ، ظللت أسحب الشريط فى جهاز التسجيل إلى الأمام كل ما كان الموضوع ليس مهما بالنسبة لى فقد كنت أتمنى أن أسمعها تتحدث عن طارق أو عباس أو والدها، وقد كان لى ما أردت بل أكثر مما توقعت عندما قالت: اليوم تعرفت على طارق المغربى، سمعت عنه من زملائى كثيرا، وهو المسؤول عن جمعية الأمل للمكفوفين، هو مهندس مدنى تخرج فى جامعة الخرطوم ولكن ما أعجبنى فيه أنه يجيد الإستماع، حتى إننى بدأت أكون حذرة فى إستخدام الكلمات عندما أحسست بأن هناك من يصغى، تحدثنا عن الشعر وعن برامج الإذاعة، ولكنى أشعر بأنى قد سمعت صوته من قبل. ثم بدأت بالحديث عن الألوان قائلة: كل من أعرفهم أجمعوا بأن لون البنفسج من أجمل الألوان، فى هذا الظلام لافرق عندى بين مايدعونه لون أحمر أو أخضر، ولكنى أتمنى أن أرى لأعرف لماذا هذا اللون أجبر الناس على إحترامه. ثم بدأت بالحديث عن الطعام وأن حالتها النفسية هى التى تتحكم فى كمية أكلها وليس جودة المذاق، ثم بدأت ثانية بالحديث عن المعهد، ثم بدأت بالحديث عن طارق المغربى قائلة: اليوم أتى طارق المغربى الى المعهد، وقابلته ولكن ما يحيرنى أنه ظل يراقبنى لمدة قبل أن يعلمنى عن وجوده، ولكنى علمت بوجوده من وقع خطواته، والآن أنا متأكدة من أننى سمعت صوته من قبل ولكن أين، ولكنه مازال يؤثرنى بحديثه أن أجمل ما فيه أنه يعاملك بندية وليس بشفقة. ثم بدأ الحديث عن طارق يشغل أغلب أجزاء الشريط، وفى الجزء التالى قالت: تحدثت اليوم مع طارق عن الأمل، كان يقول بأننا من نصنع الأمل ثم نبدأ بتحقيقه بما نملك،

وليس الأمل من يصنع تحركاتنا، وقلت له ماذا أفعل للدنيا إذا كنت لا أراها، قال لى إذن لا تريها، أشعري بها حسى بنبضها، فكثير من الناس يرونها ولا يشعرون بقيمة ما فيها، حاولى أن تستغلى ما عندك لا أن تتحسرى على ما ليس عندك، وأنا متأكد أن لديك الكثير، بدأت أشعر أن الجلوس مع طارق يخيفنى، فقد جعلنى أفكر فى أشياء خطرة كالأمل والطموح، ولكنه شعور أثارنى أخرجنى من رتابة حياتى. ثم بعد ذلك إحتوى الشريط على موسيقى هادئة حتى النهاية، أبدلت الشريط بأخر وبدأت ياسمين الحديث قائلة: وعدنى طارق أن يحضر لى قصيدة اليوم ولكنه لم يظهر، شعرت بالغضب منه فلم يكلف نفسه الإعتذار عن الحضور، وما أغضبنى أكثر أننى كنت متلهفه لحضوره كأن الحديث معه نوع من الإدمان، قد أكون عمياء ولكنى لست ضعيفة،عليه أن يعرف كيف يعاملنى باحترام، لن أدع هذا الأمر يمر بسلام. ثم بدأت مقطوعة موسيقية، ثم قالت: جاء اليوم طارق إلى المعهد سلم علىّ وذهب سريعا، من يظن نفسه، حتى أنه لم يعتذر عن عدم حضوره سابقا، فى المرة القادمة لن أتحدث اليه ،ثم مقطوعة موسيقية حزينة، ثم ياسمين تقول: حضر طارق اليوم أحضر معه بعض الحلويات، تحدثنا فى كل شىء ولكنى لم أستطع أن أعاتبه، وجوده كان كافيا عن أى اعتذار، أشعر بالفرح وأنا أسمعه، حتى أننى لم يعد لى رغبة فى الحديث أريد أن أستمع فقط، ثم بدأت الموسيقى ثانية، ثم ياسمين تقول: كنت أجلس مع طارق ثم فجأة سمعت صوت خطواته تبتعد بدون أن يقول شيئا، ثم جاء أبى الآن علمت أن صوت طارق هو صوت الطالب الذى قبض عليه فى سيارتنا، يا إلهى إن لقائنا لم يكن صدفة، ماذا يريد منى، إن تعلقى به لم يكن إلا خطة رسمها هو، ماذا أفعل إذا كان أبى سيئاً فطارق أسوأ منه يجب أن أبتعد عنه، ثم موسيقى صاخبة كأنما تعكس حالتها النفسية، ثم ياسمين تقول: اليوم أخبرتنى أمى أن عباس طلبنى للزواج، لم يخبرنى أنا وأخبر أهلى، يقضى معى اليوم بأكمله ولا

يستطيع إخبارى، كنت أشعر بأنه مهتم بى، بل يعشقنى، عباس يا ليت الأمر بيدى فلن أجد أحسن منك، ولكنى أفكر بطارق، مضى إسبوع وأنا أمنع نفسى من أن أراه ولكنى أشعر بأنى مدمنة طارق إذا لم أراه سأموت. ثم تسجيل لقطعة موسيقية، ثم صوت ياسمين: اليوم كانت حفلة تفوقى فى المعهد، عباس كان يريد أن يتركنى بعد أن علم بأنى لا أفكر إلا بطارق، ولكنى بكيت وتوسلت له أن لا يذهب وإنتظر لأنه يحبنى، وطارق يعاملنى بنفس الطريقة وأنا أغفر له، اليوم عندما أتى الى الحفل كنت أمسك بيد أبى فجأة لاحظت أن جسم أبى يرتعد ودقات قلبه تزداد، وعندما سمعت صوت طارق أدركت أن أبى يخافه، إنهم يتربصون ببعضهم، لا أعلم ماذا أفعل؟. ولكن ما أحزننى أن عباس ذهب حزينا. ثم تسجيل موسيقى، بعدها صوت ياسمين: اليوم كانت حفلة واحد وعشرين أكتوبر، قابلت أصدقاء طارق، كانت ضمن الحضور طالبة تسمى منى حسين، يبدو أنها على علاقة بطارق، كانت غاضبة منى لقد أعطانى طارق إحساس لم أتصور يوما أن أصل إليه كانت تشعر بالغيرة منى، أنا العمياء التى قتلها الشعور بالشفقة، أجد نفسى فى موضع غيرة من ما يقولون أجمل بنات الجامعة، شكرت طارق فى سرى، فليفعل مع أبى ما يريد يكفينى ما أشعر به الآن معك، إن كمية المشاعر التى جعلتنى أشعر بها فى هذه المدة القصيرة لم أختبرها طوال حياتى، ولكن عندما عدنا من الحفل، وترك منى غاضبة لاحظت بأنه كان يقود السيارة صامتا فقلت له أين نحن فقال بصوت خافت بالقرب من المطار، كنت أعلم أين نحن ولكنى كنت أريد أن أحدد موقع وجهه فمددت يدى إلى وجهه فأحسست بالدموع تجرى على خده، إنه يعشقها، أوقف السيارة ورمى وجهه فى مقود السيارة وأخذ يبكى، كأنه يطلب العفو، كان يتعذب بين رغبته فى الإنتقام وإستغلاله لى وحبه لمنى، مررت يدى على شعره وأنا صامتة، فلا أطلب منك الكثير، أفعل ما تريد فقط لا تتركنى، سأموت لو تركتنى. ثم بدأ تسجيل موسيقى إلى نهاية

الشريط. بدأت فى تبديل الشرائط ولكن كان هذا كل ما تحدثت عنه، مسكينة ياسمين كانت تعرف أن طارق يستغلها ولكن لم تستطع أن تفعل شيئاً، يا إلهى ما كل هذا الأنين.

الأفيال تعرف موتها

يوم الجمعة صباحاً، قررت أن لا أخرج من غرفتي فأريد أن أستفرد بنفسي، أخذت دشا، ثم أخذت أعيد تشغيل الشرائط الخاصة بياسمين وأنا أشرب الشاي بهدوء على مكتبي، وبدأت أفكر عند ذهابي إلى منزل فريد النمر لم أعتقد بأني سأحصل على هذه الشرائط، كل ما كنت أطمع فيه رؤية فريد النمر بكل هذا الجبروت الذي يحكى عنه، أحسست بأن هناك قوة خفية تساعدني لأمضى في هذا الطريق، ولكني رغم كل هذا البحث لم أستطع أن أؤكد فكرة إنتحار طارق ولو أن حديث عباس جعل هذه الفكرة هي الغالبة، فكيف يدخل إلى مبنى المخازن وهو يعلم أن المتفجرات مزروعة في أسفل المبنى، معنى ذلك أرادهم أن يقتلوه، فهو يعلم أن المبنى مراقب وينتظرون قدومه، ولكن لماذا لم يقتل فريد النمر، لولا شهادة عم إبراهيم وحارس المعرض لقلت بأنهم تقابلا ثم قتل فريد النمر طارق ثم ألقاه في المبنى وفجر المكان، ولكن طارق كان حيا داخل المبنى وهو يحترق، ثم أن عباس عندما أراد أن يقتل فريد النمر ذهب إليه مباشرة في المنزل، فما الذي حدث جعل طارق يختار أن ينتظر داخل المبنى حتى يعطوه ما يريده، وهو الموت، فطارق بعد قتل الجميع بسببه، أصبح مستحيلا أن يقبل الحياة، ولكن المهمة ناقصة، كان يجب أن يقتل فريد النمر أولا، ثم يفعل كما تفعل الأفيال المسنة عادة، تذهب إلى أحد الكهوف وتنتظر الخلاص، هل تخلى عن قتل فريد النمر من أجل ياسمين، قد يكون ذهب إلى منزل فريد النمر وعندما رأى ياسمين، تخلى عن الفكرة ثم ذهب وإنتظر أجله في مخازن المنطقة الصناعية هذا التفسير هو الأقرب إلى الواقع ورغم إن عقلي إرتاح من التفكير بعد وصولي إلى هذا الإستنتاج، ولكني كنت حزينة كنت أريد أن أثبت للجميع أن طارق قتل، فحرام بعد كل هذا المجهود تكون النتيجة صفرا، خسارة دنيا وآخرة،

كنت أريده أن يموت وهو حاملا سلاحه إلى آخر لحظة، عندها عندما يقتل يكون بطلا فعلا، فجأة دخلت غرفتي فدوى عثمان وهى تضحك وتقول: خبر بمليون جنيه. كان بي من الحزن ما منعني من التفاعل معها قمت من مكتبي وسلمت عليها بفتور ثم إستلقيت على سريري، نظرت إليّ بدهشة وهى تقول: ماذا ألم بك تبدين كأنك مريضة.

صمت وقلت لها بصوت خافت: طارق إنتحر.

أخذت تضحك بصوت عالي وجلست على السرير المجاور وهى تقول: فسّر الماء بعد الجهد بالماء. ولكن كيف تأكدت؟.

قلت لها: عباس أخبرني.

قالت: ووصلت إلى عباس كمان، أنا أحسدك على مثابرتك.

قلت: دعينا من هذا، ماهو الخبر؟.

قالت: منى حسين وصلت البلاد، لقد جاءت مع زوجها ولها طفلة وحامل في الطفل الثاني. فاجأني الخبر هل مضى أكثر من عام ما زلت أذكر وداعي لها في المطار كأنه أمس. قالت فدوى: أخبرتها بأننا سنحضر إليها فورا، هيا لا أستطيع أن أنتظر.

قلت: أذهبي أنت، ولكني لا أستطيع الخروج اليوم سأزورها غداً. تفاجأت بردى ولكنها تركت عنوان منى وقبل أن تخرج قلت لها: سؤال أخير يا فدوى، ماهو الشيء الذي أخفيته بخصوص طارق ورفضتى أن تخبريني به.

قالت: إنه خاص بمنى يمكنك أن تسأليها، خرجت فدوى من الغرفة ثم عادت وقالت: منى تشاجرت مع طارق وأعادت له دبلته.

قلت ساخرة: أعرف ذلك لم تأتى بجديد، كنت أعتقد بأن هناك سراً خطيراً. خرجت فدوى وهى تضحك، لم أكن أعلم بأن منى أرجعت إليه الدبلة، ولكن يبدو أن هذا ما جعل طارق غاضبا من عباس وتشاجر معه، ولكني إندهشت من نفسي عودة

منى لم تفرحني كثيراً، بل شعرت بالحزن أكثر، لأني أحسست أن الكل يمضون في حياتهم إلا أنا مازلت أعيش قبل عشرة سنوات، وفاة طارق تخص منى أكثر منى، ولكنها تابعت حياتها، إلى أين تسيرين يا عزة، أشعر بأني لم أعد أعرف ماذا أريد، بل أكثر من ذلك بدأت أحس بأني أفتقد عزة الأولى كما قال هشام، لم يكن لي حل حتى أخرج من الإحباط غير العمل، ذهبت صباح اليوم التالي إلى الجامعة مبكرة، ثم أكملت محاضرتي، ثم جلست مع الطلبة أجيب عن أسئلتهم، ولم ألتزم بمادتي فقط، كنت أجيب عن كل المواد، فقد إقترب موسم الإمتحانات، وشكرني الطلبة كثيرا فقد أصبحت علاقتي بهم كأنني أختهم الكبرى، ولكني كنت الأكثر إمتنانا فكل ما أعمل معهم ترتفع روحي المعنوية، وسرقني الوقت حيث تجاوزت الساعة السادسة مساءا، لم أتناول وجبة واحدة منذ الصباح، ولكني أكثرت من شرب الشاي والقهوة، خرجت من الجامعة إلى عنوان منى مباشرة، كانت تقيم في منزل مفروش بحي المزاد ببحري حتى تكون قريبة من منزل أهلها بالحلفايا، وما أن طرقت الباب حتى فتح لي زوجها حسن سريعا، طلب منى السكوت، فقد إستطاع أخيراً أن يجعل طفلته تنام، كان يجلس في فناء المنزل حيث يوجد سريرين وبعض الكراسي، جلست صامته وأنا أراقبه وهو يحمل الطفلة بحرص وأدخلها إلى المنزل، ثم حضر يحمل عصير قدمه لي وجلس وهو يقول: منى في الحمام، ستأتي بعد قليل، قلت: كيف أخبار الغربة معك ياباشمهندس؟..

قال: أكبر أكذوبة، أخبرتني منى بأنك كنت مغتربة لمدة عشر سنوات، لو عاد بك الزمن هل كنت ستذهبين إلى لندن؟.

قلت مبتسمة: لا أعتقد، لأنك تذهب في طلب شيء وعندما تحصل عليه تكتشف بأنك فقدت أشياء أكثر.

قال: بالضبط، أو إنك تربطين نفسك في مكان وعندما تحاولين الخلاص منه لا تستطيعين، مثل الثور في الساقية يجب أن تظلي تدوري وتدوري، قال هذه الجملة

بحزن وأحسست بأنه تعيس في حياته، وإستغربت أن مهندساً ناجحاً يعمل بدبي ومتزوج من منى حسين التي يحسده عليها الكثيرون يكون بهذه الكابه، فقلت له مبتسمة: الكثيرون يعتبرونك رمزا للسعادة، أستغرب هذا الكلام منك.

قال بحسرة: منذ أن ذهبت إلى هناك وأنا أجمع في المال لأرسله إلى اهلى، حتى اننى أصبحت لديهم دفتر شيكات، حتى عندما أحادثهم أصبحوا لا يسألون إلا عن التحويل المالي، وحرمت نفسي من كل شيء، حتى أستطيع أن أكون نفسي، وأصبحت أحلم بفتاة أحلامي وأنتظر اليوم الذي أقابلها ومضت أكثر من سبعة أعوام، وأنا أقيم في معسكر منعت نفسي من كل ما يخطر على البال، ولم يكن لي غير أن أتخيلها وهى تتحدث وهى تضحك، وعندما تعود إلى بلدك وتجد فتاة أحلامك وتقدم لها كل ما تملك يعتقدون بأنك إشتريت الحب بأموالك، ولكن الحقيقة إننى إشتريته بعمري فهذه الأموال هو سنين عمري الذي لم أعشه، وضعته تحت قدميها، هذا هو قمة الحب، لم أسمعها كلام معسول، أو أوعدها بشيء خرافي، بل قدمت لها أعز ما أملك، ولكن بالمقابل تكتشف حتى فتاة أحلامك تنظر إليك كدفتر شيكات ليس إلا، والمطلوب أن تستمر تدور وتدور.

صمت حسن عن الكلام كان الحزن طاغي على وجهه، وأحسست بأنه يطلب منى بطريقة غير مباشرة الحديث مع منى يبدو أن العلاقة بينهم ليست طبيعية، وما إن أتت منى حتى إستأذن حسن وخرج، عندما كنت أحضن منى كنت أتساءل، لماذا إختارني أنا؟. هل لأني أقرب شخص إلى منى، أو لأني عانيت من الغربة مثله، جلست منى وهى تعاتبني لأني لم أحضر مع فدوى أمس، صمت كنت أتأمل وجهها، وقلت: لا تبدين سعيدة .

قالت: ولا أنت.

قلت: ولا زوجك.

صمتت لحظات ثم إتكأت على ظهر الكرسي وأخذت تنظر إلى السماء، ثم قالت: حسن إنسان ممتاز، ولكن طارق حطمني جعلني إنسانة خاوية باردة، جعلني كالشبح. ثم فجأة سحبت الكرسي الذي تجلس عليه إلى الأمام وأصبح وجهها أمامي مباشرة وقالت: فدوى أخبرتني بما تفعليه، أتركي طارق يا عزة، سيحطمك مثل ما فعل معي، أنت لا تدرين إلى أين تمضين.

قلت: طارق مات يا منى.

قالت: طارق حالة عندما تتلبسك، يجعلك كمن أصابته حمى، وأنا أرى أعراض هذا المرض عليك، أهربى قبل أن تنتهي مثلي.

قلت: ولكنك فسخت خطبتك له، لماذا لم تخبريني بذلك ؟.

قالت وهى تصيح غاضبة: ماذا كنت تنتظرين عندما ترى خطيبك الذي حاربت الدنيا من أجله يأتي إلى الجامعة وفى يده بنت عمياء يستعرض بها بل يعرفها على الجميع، جعلني أشعر بأني جاريته ولست خطيبته. يوم حفل واحد وعشرين أكتوبر بعد أن أعادها إلى منزلها جاء يستعطفني ولكني رميت دبلته في وجهه.

قلت: إذا كنت مقتنعة بذلك فلماذا إنهرت وأنت ترين جثته في المشرحة.

قالت: لأنه خلع دبلتي، كنت أعتقد بأنه سيأتي متوسلا طالبا الصفح ولكنه خلع دبلتي، كأنه كان ينتظر منى أن أنهى علاقتي به لقد إختارها هي.

قلت: ألم يخبرك عباس بأنه قال ليس له خيار.

قالت: كلام كل ما حصدته من طارق الكلام والكلام فقط. خرجت من منى وقد حل الظلام، كنت أفكر في كلامها لو إختار طارق ياسمين فهذا يفسر لماذا لم يقتل فريد النمر، هناك شيء مفقود لا أعرف ما هو، أشعر بأني أنظر إليه ولا أراه، يجب أن أركز أكثر، ليس على الحديث مع أحد ولكني أحتاج إلى ترتيب المعلومات، طارق لا ينتحر ويقولون إنتحر، طارق لا يتخلى عن منى ولكن منى لم تجد دبلتها في يده عندما أصبح جثة هامدة، أجل السر في المخازن، هشام

قالها، وفجأة قدت السيارة بسرعة جنونية قطعت مدينة بحري في دقائق وعبرت كبري النيل الأزرق إلى الخرطوم، وقطعت وسط الخرطوم في أقل من دقيقتين، وإتجهت جنوبا إلى المبنى ستة وستون مخازن المنطقة الصناعية كانت الإضاءة خافتة في المنطقة فأخرجت البطارية من خلفية السيارة، وما أن دخلت من الباب حتى وقف عم إبراهيم مندهشاً كان يستمع إلى الإذاعة، ولكني لم أعره إهتماما وذهبت مباشرة إلى المبنى، إتبعني صامتا، وأخذت ألقى الضوء على الأجهزة المحروقة، كان البلاستك الأسود يغطى أغلبية أجزاء الأرضية، إلتقطت كوب من النيكل وصحن كانوا ملتصقين فوق البلاستك الأسود لقد سقطت بعد الحريق وقبل أن يجف البلاستك، يا لغبائي هذا ما أحضر طارق هنا، كيف مرت عليك يا دكتورة عزة، جاء طارق للبحث عن جيمس هذه الأشياء كانت لجيمس، فعندما أخبر عباس طارق بأن فريد النمر فتش المكان ولم يجد أحدا، طارق كان يعلم بأن جيمس موجود ولكن مخبأه في السقف، حيث كانت هذه الأواني معه، بين الهيكل الحديدي وبطانة الخشب، لقد ظل جيمس يتصل بأعضاء الإنقلاب ولا أحد يرد عليه، فقد قتلوا جميعا، ثم جاء فريد النمر إلى هنا، فاختبأ جيمس في السقف ولكن فريد النمر حاصر المكان، فلم يعلم جيمس ماذا يفعل، وعندما شب الحريق رأى جيمس عم إبراهيم والعسكري ففضل الموت محروقاً، على أن يعذب على يد فريد النمر، إن عم إبراهيم رأى شخصا في الطابق الأعلى فأعتقد بأنه طارق، إذا طارق لم ينتحر، بل جاء لينقذ زميله، أخذت أضحك بهستيريا، وعم إبراهيم ينظر إلى بارتياب، أجل يا طارق لست أنت من ينتحر.

في الصباح الباكر كنت في شركتنا أنتظر حضور العمال الذين يتجمعون أمام الشركة ليذهبوا مع خالد إلى المواقع بسيارة الشحن الصغيرة، وكنت أعرف أكثر أثنين يعملون معنا دينق وملوال فطلبت منهم مقابلتي مساءاً أمام الشركة بدون أن يعلم أحد ولا حتى خالد أو أبى، وافقاً والدهشة تملأ وجهيهما، ثم ذهبت

إلى الجامعة حيث بقيت حتى الساعة السادسة مساءاً، ثم عدت إلى المنزل وأخبرت والدتي باني ذاهبة إلى فدوى وسأتأخر هناك، ثم إتصلت بفدوى أخبرها إذا إتصلت بك والدتي، أن تخبرها بأني خرجت من عندها قبل قليل، فسألتني: ماذا تنوين أن تفعلى. فقلت لها: لوعلمت لا تهمتينى بالجنون. عندما وصلت إلى الشركة كانت الساعة تجاوزت الثامنة، وإنتظرت قليلاً فحضر دينق وملوال ، فركبا السيارة معي وإنطلقت بالسيارة إلى مقابر محمد نجيب، كان الظلام حالكا إلا من أضواء السيارات، ثم أوقفت السيارة بعيدا، وقلت لهم: هناك ذهب مدفون في أحد هذه القبور أريد أن أخرجه، هل تساعداني؟.

قال ملوال بعربية ركيكة:" أنت مجنون نحفر قبر وبالليل، الكلام ما صحيح".

قلت: إذا وجدنا الذهب فأنا أريد سلسلة وخاتم فقط تخص والدتي والباقي لكم.

قال دينق:" ولو مافى ذهب".

قلت: سأعطيكم أجرة الحفر مرتين.

بعد فترة صمت قال دينق : الحفر الليلة؟.

قلت: بعد ساعتين أو ثلاثة حتى نتأكد من خلو المنطقة، بعد أن وافقا ذهبنا وأحضرنا عدة للحفر وما أن إقتربنا من منتصف الليل، حتى ذهبنا إلى قبر طارق كنت أعلم بأنه سيكون مجاورا لقبر ياسمين، فقد دفنّا في نفس اليوم، وإستغربت بأني لم أراه عندما كنت أبحث عن قبر ياسمين، وبدأ الحفر، وكان الحفر سريعا فقد كان ملوال ودينق في حالة رعب ليس من أن يكتشف أمرهما ولكن من الموتى، وما أن ظهر الهيكل العظمى حتى خرجا من القبر خائفين وسألني دينق: أين الذهب؟..

فقلت له: سأريك. وما أن نزلت إلى القبر حتى شاهدنا ثلاثة أشخاص يركضون باتجاهنا، ولم أرى دينق وملوال إلا وأطلقا ساقيهما للريح، كنت أعلم بأني لا أملك طريقة للهرب فقد قبض علي لا محال، أمسكت بالجمجمة ونظرت إلى الأسنان

كانت سليمة، حتى الفك السفلى، كنت دائما معجبة بأسنان جيمس البيضاء، لقد دفنوا جيمس على أنه طارق.

وقف حارس المقابر فوق الحفرة وهو يحمل عصا طويلة وينظر إلى بدهشة وأنا داخل القبر، بينما زميلاه كانا يحاولان اللحاق بملوال ودينق، كنت أدعو الله أن لا يتم القبض عليهم فلو تحدثوا في موضوع الذهب لأصبحت في موقف أسوأ مما أنا فيه، على الأقل سيقولون الآن بأني مجنونة، أما إذا ذكر الذهب فلن يصدق أحد بأنه لا يوجد ذهب، ثم شعرت بفداحة ما عملته عندما تذكرت طلبتي في الجامعة، وهم يتحدثون عن دكتورتهم المفضلة وهى تنبش في القبور ليلا. عندما حضر والدي إلى قسم الشرطة كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا، كان معه خالد، وعماد آخر شخص كنت أتمنى أن يراني في هذا الموقف ما الذي أحضره، فهذا يوم الفضائح العالمي، وما هي إلا لحظات أخبر أبى الضابط بأن طارق المغربي خطيبي وإننى مازلت أعانى من وفاته، فتفهم الضابط المسألة ولم يفتح محضر بالحادثة، وطلب من أبى الإسراع في علاجي، كنت صامتة حتى وصلنا إلى البيت، ذهب عماد وركب سيارته وقادها مبتعدا، وجاء خالد خلفنا وهو يقود سيارتي، عندما دخلت المنزل لم تكن الوالدة تعلم لماذا إتصلت الشرطة بأبي، ولم يسألني أبى شيئا فقد قال لوالدتي بأني صدمت شخصا بالسيارة، لم يستطع أن يقول لها أن إبنتها كانت تحفر القبور ليلا، ولكن ما أزعجني أن أبى وخالد كانا ينظران إلى بريبة كأنني فقدت عقلي صعدت إلى غرفتي وأنا ألوم نفسي، لم أكن أتوقع أن يقبض عليّ، ولكني يجب أن أنظر إلى الأمور بنظرة إيجابية فلقد نجح ملوال ودينق في الهرب، فلو قبض عليهم لكنت أمام ذلك الضابط حتى الآن، ثم أنني لم أكن أعلم أن هناك حراسة على المقابر، أستغرب من هذا البلد يقتلون الأحياء ثم يحرسونهم.

إستيقظت باكرا، هرباً من أبى فهو سيبدأ التحقيق معي اليوم، إستخدمت مفتاح السيارة الإحتياطي فقد كنت أعلم أن خالد سيحاول أن يستغل الظروف ليستولى على السيارة لذلك إحتفظ بالمفتاح الاصلى، واتجهت إلى الشركة حيث قابلت ملوال ودينق وقلت لهم ضاحكة: أين الرجولة تتركون إمرأة وحدها في المقابر، قال ملوال ضاحكا: أنت تخرجين ولكن نحن ندخل السجن طوالى.أعطيتهم نقودهم وقلت لهم لم أجد الذهب، فلا أريد أن أكون كاذبة في نظرهم، عندما عدت إلى المنزل كان والدي قد خرج مع خالد، وعندما عادا مساءا تظاهرت بأني نائمة. وفى صباح اليوم التالي تعمدت أن أستيقظ متأخرة، بعد خروج أبى وخالد، ثم قدت السيارة بهدوء فلم يكن هناك ما أفعله في الجامعة، ولكن ما أثارني عند وصولي أن جميع الطلبة كانوا ينظرون إلىّ، وإستغربت هل يمكن أن يكون وصلهم الخبر بهذه السرعة، دخلت مكتبي سريعا، وجلست منتظرة أن يأتي أحد الزملاء ليسألني ماذا حدث في المقابر، ولكن لم يأتي أحد، ثم دخل أحد السعاة وفى يده مظروف سلمه لي، كان مكتوبا فيه نعلمكم بإنهاء خدماتكم لدينا، شكرا لتعاونكم معنا. في حياتي لم أشعر بالمهانة مثل هذه اللحظة، كنت أريد أن أبكى ولكني تماسكت حتى لا يشمت أحد، أدخلت بعض المراجع التي تخصني في حقيبتي، وخرجت كنت أريد أن أصل إلى سيارتي في لمح البصر، ولكن بدت المسافة لي كأنها أميال كان جميع من في الكلية ينظرون إلىّ وما أن وصلت إلى السيارة حتى لحق بي أحد العاملين في إدارة الكلية، كنت أوصله بسيارتي في بعض الأحيان وأنا في طريقي إلى البيت، وقال: يا دكتورة هل تعلمين لماذا تم إنهاء عملك؟.. صمت فلم أكن أريد الحديث في الموضوع، فواصل حديثه قائلا: لأنك تحرضين الطلبة على التظاهر. تفاجأت فقد كنت أظن أن له علاقة بيوم أول أمس، قلت له: ولكن هذا ليس صحيحاً قال: منذ إسبوع تدرس إدارة الكلية هذا الأمر ولكن زملائك لم يدافعوا عنك. لم أستطع العودة الى

البيت، قدت سيارتى إلى شارع النيل، أوقفت السيارة، ونزلت من الشارع كان يفصله عن النيل مساحة مزروعة ببعض الخضروات، وما أن وصلت إلى حافة النيل ووجدت نفسى بعيدة عن كل البشر، حتى أجهشت بالبكاء، فعملى فى الجامعة كان خيط الأمل الوحيد، لم أتذكر فى حياتى بأنى بكيت بهذه الحرقة، ولمت نفسى لقد تنازلت وقبلت بهذا الوضع، والآن هذا درس لى، التنازلات لا تأتى إلا بالمزيد من المهانة، أخذت أمسح دموعى بماء النيل ولكن أحسست بأنى أمسح الدمع بالدمع، كأنما كان النيل يبكى.

عندما عدت إلى البيت منتصف النهار، وجدت سيارة خالد موجودة، فأدركت أن أبى ينتظرنى كنت أحاول التأجيل ولكن لا مناص، وجدتهم جالسين ثلاثتهم، أمى على اليمين وخالد على الشمال، وأبى فى الواجهة، لم أعطه فرصة للحديث ناولته خطاب الجامعة، وإتجهت إلى السلم فقال: لماذا إستغنوا عنك؟.

قلت: لأنى أحرض الطلبة على المظاهرات، وزملائى أكدوا ذلك.

قال: قلت لك أن تبتعدى عنهم.

قلت: لماذا؟.

قال: حتى تبتعدى عن المشاكل.

قلت: لا يمكن أن أعيش من أجل أن أبتعد عن المشاكل، يجب أن يحكمنى مبدأ الصواب والخطأ، اذا كان صوابا أفعله واذا كان خطأ أحاربه.

قال ساخرا: وهل نبش القبور ضمن هذا المبدأ. نظرت اليه الوالدة بدهشة، لكنه كان غاضبا لا يهتم بتساؤلها، نهض من جلسته ووقف أمامى مباشرة وهو ينظر الىّ ..

قلت بتحدى: ليس ضمن المبدأ، ولكنه المبدأ نفسه.

قال: عماد طلبك للزواج، ورغم فضائحك التى رآها بنفسه، مازال مصراً على طلبه، هو شاب متعلم وغنى ومن عائلة كبيرة.

قلت: ومدمن كحول وزير نساء.

قال: لقد أخبرنى بأنه تخلى عن الشرب، وأنا أراه مناسبا لك. كنت أعلم بأن عماد يصطاد فى الماء العكر مما وترنى وجعلنى أكثر عصبية وأنا أحاول أن أضع نهاية لطلبه.

قلت: أنت تستشيرنى، أم تعلمنى بقرارك، هذا الموضوع يخصنى وحدى ولا أقبل بتدخل أحد فيه. كان ردى حادا، فما كان من أبى إلا أن رفع يده وصفعنى صعدت ركضا على السلم إلى غرفتى، أحسست بأنى مخنوقة ومهزومة دخلت إلى الحمام، وخلعت ملابسى، وبدأت دموعى تجرى وأنا أقف تحت الدش منتظرة أن يخفف الماء المرار بداخلى، سمعت صوت والدتى ترجونى أن أفتح الباب، ولكنى كنت أفكر بأنه قد مرت بى أيام سيئة كثيرة، ولكن اليوم هو الأكثر زلة.

ظللت فى غرفتى الأيام التالية، لا أخرج أو أكلم أحدا، حتى الأكل بعد مجادلات مستمرة مع أمى، لأول مرة فى حياتى لا أعرف ماذا أفعل غداً، لم يكن لى هدف أسعى الى تحقيقه، وبدأت تساورنى فكرة العودة إلى لندن، كنت أنظر إلى نفسى فى المرآة فلا أصدق بأن هذه أنا، لو كنت رجلا لكان لى لحية أهل الكهف، كانت خصلات شعرى متطايرة فى السماء مثل الساحرات، وحدقات العيون شديدة الإحمرار فقد أرهقتها الدموع بالبكاء ولون الوجه شاحب، يجب أن تصمدى ياعزة، لقد مرت بطارق ضغوطاً أكبر ولم ينتحر، يجب أن تكونى أقوى منه، ثم لإنك لم تخسرى من منطلق ضعف، بل من موقف قوة، رفدوك من الجامعة لأنهم يغيرون منك، لفقوا لك تهمة حتى يتخلصوا منك، فلماذا تحزنين، والآن أنت الوحيدة التى تعلم بأن طارق لم ينتحر، لقد نجحت وأثبت بأنك على حق، لا تجعليهم يهزموك، عماد لا يستطيع أحد فى الدنيا أن يرغمك على الزواج به، شعرت بأنى بدأت أتماسك، إستلقيت على السرير وأنا أنظر إلى السقف، وبدأت فى التفكير فى أهم سؤال يحيرنى أين مات طارق؟ بعد أن فارق هالة وعلم

بوفاة الجميع ذهب إلى منى ولكنه لم يستطع الإقتراب منها فذهب إلى عباس ووجده حياً يرزق، ثم من المفترض أن يذهب الى جيمس، ولنفترض بأنه وجده مقتولا، فعليه أن يذهب إلى منزل فريد النمر لقتله، ولكن فريد النمر أكد لعباس بأنه نسف صديقه، لو كان فريد النمر قتل طارق فى مكان أخر لذكره لعباس، إذن فريد النمر نفسه يعتقد بأن طارق قتل فى الإنفجار، هل يمكن أن تكون جثة طارق مازالت تحت الأنقاض ولم ينتبه إليها أحد، شعرت بالحماس يدب فى أوصالى، أخيراً وجدت شيئاً أفعله غداً.

منذ الصباح الباكر أخذت دشا باردا أنعشنى، ولبست أجمل ما عندى، ونزلت إلى الصالة، كان ثلاثتهم يشربون الشاى، كانوا ينظرون إلى وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، لم يكن لدى رغبة فى الحديث مع أبى خصوصا، رفعت لهم يدى مسلمة وخرجت قدت سيارتى مباشرة إلى المنطقة الصناعية، كانت هناك شركة لرفع الأنقاض إتفقت معهم على رفع الأنقاض بالكامل باستخدام الجرافات ومعداتهم الثقيلة، رغم إنهم قالوا أن حجم المبنى الذى ذكرته لا يستحق ذلك، كنت أريد أن أفحص كل شيء بدقة، وعندما وصلت المخازن وجدت عم إبراهيم الذى كان ينظر إلى بريبة وخوف فهو أيضاً يعتقد بأنى غير متزنة تماما، وما هى إلا لحظات حتى شاهد الجيش الذى أتى بعدى وبدأت الجرافات بالعمل، ولم أكن أسمح بشحن الركام فى الشاحنات إلا بعد أن أتأكد بأنه خالى من العظم، كان الجميع يستغربون عما أبحث، ولكنى كنت أتابع العمل بهمة حتى بلغت الساعة الرابعة عصرا، كان مكان المبنى قد تحول إلى فسحة خالية من أى شيء، وكان عم ابراهيم قد ترك عمله فى عربة الكارو التى يعمل بها نهارا، مفضلا أن يرى نهاية الأمر، ونهاية الأمر كانت نتيجة واضحة لا لبس فيها، لا موتى غير جيمس فى هذا المبنى، بل قد يكون طارق لم يأتى أصلا الى هنا، إذن أين مات طارق؟. ركبت سيارتى بغضب، وقدتها بعنف مخلفة سحابة من الغبار وعم

ابراهيم ينظر إلى بتعجب، ما أن وصلت المنزل كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ووجدت سامية وفدوى بانتظارى كنت أعلم أن سامية لن تستطيع منع نفسها من الحضور بعد أن أخبرها عماد بحادث المقابر ستحاول أن تسمعنى ما تبرد به نارها منذ زواج فدوى، وكنت موقنة بأنها أجبرت فدوى على الحضور معها، فليس هذا هو الوقت الذى تفضله فدوى للزيارة، ولكنى إبتسمت فى سرى فلو أسرعت سامية بزيارتها يوماً واحداً على الأقل لرأت منظرى،كان سيسعدها لأعوام قادمة، جلست أمامهم ولكن فدوى أشارت إلى ثيابى وسألتنى باستغراب: أين كنت ؟. نظرت إلى ثيابى كنت مغطاة بالكامل بالتراب، ولمت نفسى فقد كان يجب أن أنفض هذا الغبار قبل ذلك ولكن إستغراقى فى التفكير منعنى من ملاحظة مظهرى، وحمدت الله أن والدتى بالمطبخ وخالد وأبى فى غرفهم فسيارة خالد موجودة فى الخارج، ولكنى لاحظت إبتسامة سامية الصفراء فقلت لفدوى مبتسمة وأنا أزيل الغبارمن ملابسى: أن لدىّ هواية جديدة فى حفر القبور.

فقالت سامية: يعنى ما سمعناه صحيح وليس إشاعة.

قلت مبتسمة: إن كل الأخبار التى تنقلها لك وكالات الأنباء صحيحة، هذه الأخبار وما قبلها. كانت فدوى صامتة تنظر إلينا.

قالت سامية بعصبية: والسبب، لابد أن يكون هناك سبب.

قلت وأنا أضحك: هذا سر سيموت معى.

قالت سامية بغيظ: ولكن الناس بدأت تتكلم، الدكتورة أصابها الجنون، والله لم أسمع بدكتورة أو ربة بيت تنبش فى قبور الناس ليلاً.

قلت: ليس مهما أن تنبشى قبور الناس الأهم لماذا نفعل ذلك؟، دكتورة عزة الرشيد عندما يجدوها فى المقابر ليلا تحفر فى قبر مات صاحبه من عشر سنوات لابد أن يكون هناك سببا قويا، ياترى ماهو هذا السبب؟، لو أنا مكانك يافدوى لن أستطيع أن أنام بدون أن أعرفه.

قالت سامية وهى تضحك: إن مايقلق ربة المنزل إن وقتها بالكاد يكفيها للاهتمام بزوجها وأولادها، فليس لديها وقت للبحث فى الأسباب أو لزيارة مستشفيات المجانين. قبل أن أرد على سامية جاءت والدتى تحمل العصير معلنة إنتهاء المعركة، تبادلنا بعض الأحاديث ويئست سامية من أن أتحدث فقد كانت تمنّى نفسها بقصة دسمة ولكنى سأجعل القصة عنوان فقط بدون تفاصيل، فلا أستطيع أن أتحدث بدون العثور على جثة طارق، وكانت فدوى تريد أن تعرف أيضاً ولكنها إلتزمت الحياد وظلت صامتة، إنتهت الزيارة وصعدت إلى غرفتى فقد كنت أحتاج إلى دش بارد والإستلقاء على السرير، ولكن ما أن خرجت من الحمام حتى وجدت منى حسين تحمل بنتها على كتفها بيد وباليد الأخرى شنطة صغيرة، وقالت: هل مازال سريرى خاليا يادكتورة؟.

قلت مبتسمة وقد غمرنى الفرح بحضورها: هذا السرير ماركة مسجلة لمنى حسين فقط ولا أحد غيرها، ولكن أين زوجك؟.

قالت: سافر. سأقيم مع أهلى حتى يستطيع توفير المال الكافى لشراء منزل.

قلت: كم من السنين يلزمه لجمع هذا المال.

قالت بحزن: خمسة سنوات لو ظلت الأسعار ثابتة. تذكرت زوجها حسن وهو يقول تظل تدور وتدور، مسكين حسن إن الثور لا يترك الساقية إلا ميتا أو عند سقوطه يعاجلوه بسكين ليأكلوا من لحمه، نظرت إلى منى التى كانت جالسة على السرير وبجانبها بنتها نائمة، جلست أمامها وأمسكت يديها حتى أخرجها من همومها وقلت: جميل أن تأتى اليوم.

قالت: صراحة لم تكن فكرتى، إتصلت بك أمس ووجدت والدتك فطلبت منى الحضور لأن حالتك سيئة جدا، ولكنى أراك بأحسن حال. قبل أن أرد عليها دخل خالد الغرفة وقال: أخت حامد المغربى ووالدته ينتظرونك، إما أن تحضرى موظفة إستقبال أو تعطينى راتبا. ضحكنا على تعليقه فقد تجمعت الزيارات فى يوم واحد،

طلبت من منى أن تنزل معى ولكنها هزت رأسها رافضة الفكرة، ولكنى ركضت سريعا وشعرت بالسعادة وأنا أحضن هالة وسلمت على أمها، كانت والدتى سعيدة وهى ترى إبتسامتى، قلت لهالة: أخيراً!.

قالت هالة: صدقينى على بالى دائماً.

قالت والدتها: إن القهوة ليس لها طعم من غيرك. شعرت بأن هذه الزيارة كان لها مفعول السحر على حالتى النفسية، حتى إننى كدت أن أخبرهم بأن طارق لم ينتحر ولكنى تراجعت، فلا أريد أن أسبب نكسة لهذه الأم الثكلى، لم ينتظرا طويلا فهما تريدان أن تعودا قبل حلول الظلام طلبت من خالد أن يقوم بتوصيلهما حتى باب منزلهما، عندما صعدت إلى غرفتى وجدت منى تراقبهما من طرف شباك الغرفة لكى تراهم ولا يروها وهما تخرجان من الحديقة إلى السيارة كانت الدموع تسيل على خدها، وقفت بجانبها وأنا أمسح بيدى على شعرها وقلت مبتسمة: أنت من أرسلتها والدتى لتنقذنى، أنت محتاجة فرقة انقاذ. بدأت تضحك ثم حضننتى وهى تقول: أشعر أحيانا أن عمرى مائة عام.

قلت وأنا أضمها بقوة : يعنى أصغر منى بمائة عام. بدأنا بالضحك ثم مالبثنا أن أخذنا نبكى ونحن نحضن بعضنا حتى لم نعد قادرين على الوقوف، جعلتها تستلقى بجوار إبنتها وإرتميت على سريرى المجاور لها، كنت أنظر إلى السقف وكانت منى تمسح بيدها على شعر إبنتها وهى نائمة بجانبها، وأحسست أن منى قمة فى الرقة والإحساس فقد رفضت مقابلة والدة طارق وأخته حتى لا يروا بطنها المنتفخة قليلا، فيتحسروا على إبنهم، ولكنى إستغربت كيف لم تشعر منى بأن الجثة ليست لخطيبها، فسألتها: منى ماهو شعورك وأنت تشاهدين جثة طارق، قالت: لم أذهب للتعرف على الجثة لقد ذهبت فقط لأخذ دبلتى فقد وجدوا ما تبقى من بطاقته الشخصية فقد كان طارق مغلفها بغطاء سميك فتعرفوا عليه، ولكن

الجثة كانت محترقة لدرجة إن بعض أجزائها كان عبارة عن هيكل عظمى فقط، كانت تفوح منها رائحة المطاط، فقلت: هل كانت البطاقة ملتصقة بالجثة.

قالت: لا كان دائما يضعها فى حافظة نقوده الجلدية ولذلك لم تحترق بالكامل. قفزت من السرير لقد كان طارق هناك قبل إنهيار المبنى وقد تعمد وضع محفظته ليعتقد الجميع بأنه توفى فقد وجد جيمس محروقا تماما، ولا أحد يعلم بأن جيمس موجود هناك، إذن كان هناك وقت طويل بين الإنفجار وإنهيار المبنى، يا لغبائى من المفترض أن أدرك ذلك من الأوانى التى سقطت من السقف فقد ظل الحريق مشتعلا حتى إحترقت بطانة الخشب فى سقف المبنى وسقط كوب الماء والصحن على الأرضية السائلة ثم بعد ذلك قد يكون بفترة طويلة إنهار المبنى،أحسست بذلك الشعور ثانية هناك قوة خفية تمدنى بالمعلومات فوجود منى اليوم لم يتم بترتيب منى، ولكنه القدر أراد إعلامى بما يجدث بدأت أشعر بأن السماء تبارك محاولتى معرفة الحقيقة، فقد كنت أسعى فى البداية ولا أنجح الآن المعلومات تأتينى وأنا فى غرفتى، ولكن إذا خرج طارق حيا لماذا لم يقتل فريد النمر، بل السؤال الأكثر أهمية أن عم إبراهيم هو من جعلنى أعتقد بأن الإنفجار وإنهيار المبنى متلازمين، معنى ذلك بأنه رأى طارق ويعلم بأن من مات ليس طارق، لقد كذب، أحسست بالغضب، سأريك أيها العجوز ماذا سأفعل بك.

فى صباح اليوم التالى كانت منى ترضع طفلتها أمانى، وكنت أصب شاى الصباح أمامها، فقد خرج أبى وخالد مبكرين، كنا نجلس فى صالة المنزل وكانت والدتى تراقبنى من المطبخ، ثم أتت وجلست معنا وقالت لمنى: عندما تكونين معنا تكون الدكتورة بأحسن حال.

فردت منى مبتسمة: ياخالة ليس هناك خدمة مجانية كما جئت هنا على الدكتورة سداد الدين تذهب معى إلى الحلفايا.

ردت أمى: يمكن أن تبيت معك اليوم.

فقالت منى: هذا ليس عدلا، لقد جئنا ثلاثة أنا وأمانى ومن فى بطنى، يعنى مطلوب منها أن تسد ثلاثة أيام بلياليها.

ضحكت والدتى وقالت: هذا بينك وبين الدكتورة. ثم قامت وذهبت الى المطبخ.

أدركت بأن والدتى إتفقت مع منى على هذا الحوار حتى تبعدنى من والدى فقد يحدث أى إحتكاك، ولأنى كنت أريد البقاء مع منى أكثر وقت ممكن، كما أنى أريد الإبتعاد عن البيت فرحبت بالفكرة، فهذا أيضاً يساعدنى على تنفيذ فكرة مجنونة إختمرت فى ذهنى، دخلت غرفة أبى وأمى خلسه وفتحت باب دولابهما كان به درج صغير فتحته وأخرجت مسدساً للصوت كان أبى محتفظاً به بين الأوراق القديمة، ثم أعددت حقيبة صغيرة لملابسى وأدخلت المسدس بها، وركبنا أنا ومنى السيارة، وإنطلقنا كنا فى حالة فرح فوجودنا معا هو الفرح، ذهبنا أولاً إلى شارع النيل حيث جلسنا فى حدائقه ونحن نلعب مع أمانى، ثم تجولنا بالأسواق، كنت أشترى لمنى وبنتها أى شىء يقابلنى وكانت تشترى لى ألعاب الأطفال وتقول بأنها متأكدة بأنهم رفدونى من الجامعة لأنهم وجدونى متلبسة باللعب فى مكتبى فى الجامعة، وعندما وصلنا إلى منزلهم بالحلفايا حضنتنى والدتها وهى تبكى، وطلبت منى البقاء لمدة إسبوع فحالة منى بعد سفر زوجها لاتسر عدو ولاحبيب، كانت منى تقيم مع والدها ووالدتها فقط، لأن أخويها متزوجان، أحدهما يقيم بمدينة عطبرة والأخر مقيم مع نسابته بأمدرمان، وكانت الأمطار فى نهاية يوليو بشكل يومى، فأصبحنا ملازمين المنزل طول اليوم نتحدث فى أى شىء فلم يكن مهما غير أننا مع بعضنا، نتسلى بشرب الشاى والقهوة ومتابعة التلفزيون، فأجلت مشوارى إلى عم ابراهيم لمدة يومين بسبب الأمطار، وعندما أمطرت فى اليوم الثالث أدركت أنه لا مجال للتأجيل اليوم، فغداً سأعود الى منزلنا ولن أستطيع الخروج ليلاً عند منتصف الليل كما تستدعى الخطة التى رسمتها للهجوم على عم ابراهيم، كنت أفكر وأنا أنظر إلى منى وهى تصب شاى

المغربية، إن عم ابراهيم شاهدنى ثلاث مرات، أول مرة عندما حكى لى روايته الكاذبة عن الحريق وعندها إكتشفت وجود محطة الإتصال بعد أن أزلت ركام الطابق العلوى، وشاهدنى وأنا أضحك بطريقة مجنونة عندما إكتشفت أن طارق لم ينتحر، ثم شاهدنى فى المرة الأخيرة وأنا أزيل ركام المبنى تماما، وكنت أبحث عن جثة طارق، وكنت أظنه يراقبنى من باب الفضول، ولكنه كان يراقبنى ليعرف هل سأكتشف الحقيقة أم لا، والآن بعد أن رانى وأنا أبحث فى الركام تأكد بأنى غير مقتنعة بشىء ما، ولكنه غير متأكد بعد إذا كنت قد علمت بأن طارق لم يحترق هناك أم لا، وإذا ذهبت اليه مباشرة وسألته سيتمسك بروايته فهو يعلم بأنى لا أستطيع أن أثبت العكس، لذلك يجب أن يكون لقائى به عاصفا تحت تهديد السلاح وأؤكد له بأنى مجنونة قادرة على فعل أى شىء، ولكن هذه الأمطار تعيقنى كما أننى ما زلت خائفة إذا كنت قادرة على تنفيذ خطتى وحدى، فبعد حادث المقابر أى خطأ منى ستكون نتائجه وخيمة، قد تصل إلى حد فقدان حريتى وزواجى بعماد غصبا، فالكل ينظرون إلى بأنى نصف مجنونة، وينتظرون منى أى خطأ لتأكيد الجنون التام، فأنا أحتاج لمن يساعدنى، إنتبهت لمنى وهى تناولنى فنجان الشاى ثم سألتنى وقد إرتسمت الجدية على محياها: ماذا تنوين أن تفعلى بعد رفدك من الجامعة.

قلت: غالبا العودة إلى لندن.

قالت: والزواج؟.

قلت: لا أستطيع أن أتزوج من أجل الزواج، كل من تقدموا لى لا أشعر بقبولهم.

قالت: ولن تشعرى أبدا.

قلت: لماذا؟.

قالت:لأنك تحبين طارق، تأكدت من ذلك عندما أخبرتنى سامية أنهم قبضوا عليك فى المقابر تحفرين قبره.

قلت: طارق مات، ولا أستطيع أن أخبر أحدا الآن لماذا قبض علىّ فى المقابر، ولكن أريد منك أن تتأكدى بأنى لا أسير إلى الجنون، فأنا أوعى من كل من حولى.

جاءت والدة منى تخبرنى بأن خالد أخى إتصل ويريد الحديث معى، كانت الساعة تجاوزت السابعة مساءاً، أمسكت سماعة التلفون فقال خالد بأنه يريد محادثتى بعيدا عن المنزل فقررت الإستعانة بخالد فى خطتى بدون أن يعلم شيئا، فطلبت منه أن يأتى متأخراً حوالى الساعة الحادية عشر، رفض فى بادىء الأمر متعللا بالمطر ولكنى أصريت على موقفى فوافق، فطلبت منه أن ينتظرنى فى الشارع لأن والد منى ينام مبكرا فلا نريد أن نزعجه، وطلبت منه أيضا أن يحضر عدة حفر معه موجوده فى الحديقة، إستغرب طلبى ولكنى أخبرته بأنه سيفهم بعد أن يأتى، وأخبرت منى بأن خالد سيأتى ليلاً وسأخرج معه لمدة ساعة فهو يريد أن يتحدث معى فى موضوع الزواج، وقالت: لماذا لا تجلسون فى الصالون. فقلت لها قد نتشاجر ولا أريد أن يسمع أحد شجارنا، عندما تخطت الساعة العاشرة والنصف مساءا كانت منى وبنتها فى سبات عميق ولم أسمع صوت لوالدة منى ووالدها فى الغرفة المجاورة، لبست ملابس ثقيلة وتلفحت بالثوب بعد ذلك، وأخرجت المسدس من حقيبة الملابس ووضعته فى حقيبة يدى وتسللت إلى خارج المنزل، ورأيت سيارة خالد التى كانت تقف بعيدا قليلا عن باب المنزل، كانت الأمطار ثقيلة والرؤيا متعذرة، وما أن جلست بجواره طلبت منه أن يذهب إلى الخرطوم المنطقة الصناعية، فقال: أسمعى أنا لا أحفر قبور ولا أقترب منها. ضحكت فقد إفتقدت تعليقاته الساخرة، ثم سألنى بجدية: متى تعودين إلى المنزل؟.

قلت: غدا إنشاء الله.

قال: ومتى تعتذرى لأبى؟.

فقلت: أنا من يعتذر أم هو .

قال: لا يهم من يعتذر، المهم أن ينتهى هذا الوضع.

قلت: ينتهى بأن أتزوج بمن يريده هو.

قال: أمى حالتها سيئة، وهذا هو بيت القصيد، حاولى أن تتنازلى

قلت: لا تنازلات بعد اليوم، وفى ماذا قرار مصيري مثل الزواج، على أبوك أن يعلم أى بنت فى الثانوى تخطت مرحلة أن تجبر على الزواج، على العموم سأترك كل شيء فلم يعد هناك مايبقينى هنا، لا أرى حلاً سوى سفرى إلى لندن.

قال غاضبا: أنت تريدين أن تقتلى أمى، لا تذكرى موضوع السفر أمامها.

قلت: هل ترضى بأن أتزوج بهذه الطريقة.

قال: طبعا لا.

قلت: إذن تحدث معه أنت، يجب أن تقف معى. ظل صامتا يفكر وهو يقود بهدوء، كانت الأمطار قد توقفت عندما إقتربنا من المنطقة الصناعية، وطلبت من خالد القيادة بهدوء فلا أريد أن يشعر أحد بأن هناك سيارة تقترب من المبنى ستة وستون، كانت الشوارع خالية تماما ولأول مرة شعرت بفائدة الأمطار فى هذه الليلة، أوقف خالد السيارة بالقرب من الباب ثم قال: ما هذا المكان؟.

قلت: سأخبرك لاحقا، سأدخل وحدى، يوجد عرشة ينام عليها رجل عجوز على يمين هذا الباب من الداخل، عندما تسمعنى أناديك، تأتى سريعا ومعك عدة الحفر، وإذا طلبت منك الحفر تبدأ فى الحفر فورا.

قال وهو ينظر إلىّ بريبه: صراحة أنا لا أثق فى ما تفعلينه.

قلت: ثق بى فأنا دكتورة عزة الرشيد .

قال: لقد قلت لك إن صديقى عوض هو عريس المستقبل، فأنتم الإثنان تحبان الحفر. ضحكنا فتعليقات خالد ميزتها إنها تهدى من توترى، قبل أن أدخل تأكدت بأن خالد يقف بجانب الباب مباشرة ومعه عدة الحفر، وقفت بالباب ومددت رأسى

إلى الداخل ورأيت عم إبراهيم نائما، كنت أعلم بأنه بعد يوم عمل بعربة الكارو يكون فى هذا الوقت فى سبات عميق، مشيت بهدوء إلى العرشة، كانت الإضاءة خافتة تأتى من المبانى المجاورة، أخرجت المسدس من حقيبة يدى وإقتربت من عم إبراهيم كان مستلقيا على ظهره وصوت شخيره يدل على إرهاقه، وضعت مسدسى داخل فمه، ففتح عينيه، وما أن أدرك المشهد الذى يجرى أمامه حتى أجحظت عيناه وهو ينظر إلىّ برعب، كنت أعلم بأنه يشعر بأنى بى لوثة من الجنون ولكنى الآن أكدت له جنونى التام، قلت كلمة واحدة: تشهد. أخذت أنفاسه تتلاحق، ثم بدأ يتمتم: لدى زوجة وأبناء. فقلت: لم ترحم طارق، فلن أرحمك، ثم صحت: خالد. دخل خالد سريعا وتفاجأ بالمشهد وأخذ ينظر الىّ ببلاهة، فقلت وأنا أنهره: أحفر هنا بسرعة أريد أن أدفنه الآن. بدأ خالد بالحفر وهو يرتجف فقلت لعم إبراهيم: إن أسرة المغربى لا تترك ثأرها ولو بعد عشرة سنوات، هل تعتقدنى صدقت بأن طارق مات محروقا، أنت من قتلته أين جثته. كنت أمل أن يخبرنى بمكان جثة طارق لكن نطق عم إبراهيم بالجملة التى لم أحلم أن أسمعها: أخوك حى، أخوك حى، والله العظيم أخوك حى.

رغم أن الجو بعد المطر كان بارداً إلا أن عم إبراهيم كان يتصبب عرقاً فقد شلته المفاجأة كان جالساً أمامى أنا وخالد وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه، كنت مازلت مصوبة المسدس فوق رأسه وأنا أقف أمامه، حاول أن يتحدث فلم يستطع الكلام فأحضر له خالد ماء من الزير، فشرب وقد سكب نصف الماء على ملابسه من الخوف كانت يده ترتعش وهو ينظر الىّ، كان مقتنعاً تماماً بأنى سأقتله، وما أن أكمل شرب الماء بدأ الحديث وهو يلهث قائلاً: بعد أن إنفجر المبنى رأينا طارق بالداخل، كان معى حارس المعرض، ثم دخل أكثر من عشرة رجال إلى هنا ثم بدأوا باصدار الأوامر لكل من يمر من الشارع بالإبتعاد وأخبرنى الحارس بأنه يبدو عليهم أنهم تابعين للأمن، وطلبوا من الحارس الذهاب إلى

معرضه، ثم أتى رئيسهم وكنت قد بدأت أصب على النار الماء بالجردل، فأتى وصفعنى على وجهى فسقطت أرضاً وقال لى: هل طلب منك أحد ذلك، أريد أن تشتعل هذه النار حتى الصباح، وإذا إنطفأت قبل ذلك فستكره اليوم الذى ولدتك فيه أمك. ثم ذهب مع رجاله، لم أعلم ماذا أفعل فرقدت فى سريرى وأنا أنظر إلى المبنى مشتعلا، ثم نمت وصحوت على صوت وقوع شىء على الأرض فقمت ووجدت شخصا ساقطا على الأرض والنار مشتعلة فى ملابسه أسرعت وملأت الجردل بالماء وقذفته بالماء، واستغربت أن يكون طارق حيا لأننا شاهدناه وهو يحترق، حملته إلى العرشة، خلعت له جاكيت كان يلبسه وقد إحترق تماما، وقميصه أيضاً، وكان يحمل مسدساً محشوراً بين البنطلون وبطنه، كان جسمه به حروق كثيرة خصوصا منطقة الظهر ويده اليسرى وكتفه الأيسر وغير الحروق كان به جروح كمن تعرض للضرب بالسوط، فأنا لى خبرة فى إستعمال السوط، لم يكن قادراً على الكلام من الألم، فكان يتمتم بكلمات وعندما لم أفهم ماذا يقول أصبح ينظر إلى أبو سبعين وهو أغصان العيش نزرعه لعلف الماشية يزرع فى سبعين يوماً، كان موجوداً ومربوطاً فى حزم بالقرب من العرشة فقد كنت أتاجر به وأعطيه للحصان، فعلمت بأنه يريد الإختباء هناك، فخبأته رغم أن جلده خرج فى يدى وأنا أنقله، وغطيته بالأغصان الخضراء، ثم رقدت فى سريرى، كنت خائفاً وشعرت بأن الرجل الذى صفعنى هو من فعل ذلك بطارق، وإذا كان طارق يريد أن يختبىء فمعنى ذلك بأن هذا الرجل سيعود، وفعلا قبل الفجر بساعة، أتى هذا الرجل وأخذ ينظر إلى النار مشتعلة فى المبنى ثم صاح ضاحكاً عندما شاهد جزء من المبنى وهو ينهار تحت النار، رغم أن النار بدأت تنطفىء، شعرت بالخوف منه فقد كان مبسوطا بالحريق، ثم ركب سيارته وذهب، وعندما خرجت إلى الشارع لاحظت أن أحد سيارتهم مازالت واقفة وبها شخصين، فجئت إلى طارق وهمست فى إذنه وهو وسط الحزم الخضراء، بأنهم مازالوا هنا فقال كلمة واحدة:

الكارو. ففهمت بأنه يريد أن أخرجه بعربة الكارو فربطت الحصان على العربة ووضعت حزم أبو سبعين بها، وحاولت أن ألبسه جلابية فقد كان يلبس بنطلونا فقط ولكنه لم يستطع إحتمال الألم، فتركته كما هو ثم حملته ووضعته فى العربة وسط الأغصان ثم ربطت حزم ابوسبعين بالعربة، وإنتظرنا قليلا حتى أذن الفجر فتحركنا، وعندما مررت بسيارتهم سألنى أحدهم هل إنطفأت النار، فقلت لهم مازالت مشتعلة رغم إنها بدت لى قد إنطفأت فقد شعرت بأنهم ينتظرون أن يدخلوا حتى يتأكدوا بأن طارق توفى بالداخل وما أن إبتعدت عنهم دخلت فى أحد الشوارع الجانبية ثم نزلت من العربة وسألته هل أذهب إلى المستشفى، فهز رأسه رافضا فقال هامسا: السكة حديد، كانت محطة السكة حديد الرئيسية لا تبعد عنا أكثر من خمسة دقائق، فذهبت اليها من الخلف ثم حملته وعبرنا سور قصير، كانت توجد بعض عربات القطار الخالية ومهجورة تستخدم لنقل البضائع، فقال لى أن أتركه فيها، وقبل أن أذهب أمسك بيدى وقال متوجعاً: لو علم فريد النمر بأنى حى سيقتلنى ويقتلك. أقسم لى بأن لا يعرف أحد بأنى حى. فأقسمت له. فسألته: فريد النمر هو الرجل الذى كان يضحك على الحريق. فهز رأسه بالايجاب

فقلت: ولكنهم لن يعثروا على جثتك.

قال: سيجدونها. لم أفهم ماذا يعنى طلب منى الذهاب فذهبت. وإنتظرت خارج المحطة كنت خائفا أن أعود ويكتشف فريد النمر أن طارق ليس موجودا، فعندها سيقتلنى، ولكنى فكرت لو أننى إختفيت سيأتى بى هذا الرجل وعندها سيكون متأكدا بأنى أعرف أين طارق فقررت أن أعود، وعندما عدت بعد شروق الشمس وجدت سيارة إسعاف تحمل جثة متفحمة، ولكنى شاهدت المبنى بدأ بالإنهيار بالكامل وتصاعد الغبار، بعد ذلك اليوم لم يعد يأتى أحد إلى هنا غير فريد النمر كان يأتى كل شهر أوإثنين يتأمل المبنى ثم يضحك، وكنت أخاف إذا ظهر

طارق فسيقتلنى هذا الرجل، عندما يعلم بأنى كنت أشاهده وهو يضحك وأنا أعلم أن طارق حى فلن يرحمنى، وقد أمرنى بعدم تغيير شىء أو حتى الإقتراب من هذه اللوحة كما قال لى، لم أعرف صاحب الجثة التى أخرجوها حتى الآن، هذه القصة كاملة صدقينى لم أقتل أخوك.

نظرت إلى خالد بجدية وقلت: هل تصدقه. فقال وهو يمسك يدى ويبعد المسدس من عم إبراهيم: نعم، ولكن لو إتضح بأنه كذب سأتى وأقتله بنفسى.

عندما إنطلقنا بالسيارة عائدين إلى منزل منى بالحلفايا كنا نضحك أنا وخالد على عم إبراهيم، ثم إلتفت خالد الىّ وقال: أنت مجنونة، عندما رأيتك تحملين المسدس وأنت تهددينه كنت مقتنعا بأنك ستقتلينه فعلاً.

قلت وقد أخرجت المسدس من حقيبة اليد: كيف أقتله بمسدس صوت.

قال: ولماذا لم تخبرينى منذ البداية بما ستفعلينه.

قلت: كنت ستخاف وسترفض، هذا مسدس أبيك عليك أن تعيده مكانه.

قال: لماذا أنا، أنت من أخذتيه.

قلت: لو رآنى أبى أو أمى أعيده، ستكون مشكلة، وأنت تعلم بوضعى معهم.

قال: ولكن هذا الطارق إذا كان حياً لماذا لم يظهر حتى الآن؟..

قلت: هذا هو السؤال الثانى ياخالد، هناك السؤال الأول وهو الأهم لماذا لم يقتل طارق فريد النمر فهو لم يكن محتاجاً غير تصويب مسدسه من داخل أبوسبعين وفريد النمر أمامه على بعد أمتار وهو يضحك شامتاً فى ما ظنه موت طارق.

أنزلنى خالد أمام منزل منى وذهب بعد أن أخبرته بأن يظل ما سمعه سرا بيننا، تسللت إلى داخل المنزل ودخلت غرفتنا كانت منى نائمة بوجهها الملائكى وبجانبها أمانى، أخذت أنظر اليها كنت أتمنى أن أخبرها بأن طارق حى، ولكنى لن أستطع فلابد أن أعرف أين طارق. فى الصباح كانت منى تراقبنى بحزن وأنا أجمع أغراضى ثم ودعت والديها وخرجت ومنى تتبعنى صامتة

وعندما وقفت أمام السيارة وإلتفت إليها وجدت دموعها تملأ وجهها، دخلت السيارة وهربت سريعا فلا أحب أن أتذكر أيامى معها إلا بالفرح، وصلت إلى المنزل قابلتنى الوالدة بحماس شديد وهى ترانى متوردة من جديد فقد نجحت فكرتها بالذهاب الى منزل منى، صعدت إلى غرفتى وأخذت دشاً ونمت فلم أستطع النوم ليلة أمس وأنا أفكر فى أين يكون طارق؟، لم أستيقظ إلا وقت المغربية، أفقت على صوت خالد وهو يقول أن أبى وأمى ينتظرونى أن أشرب معهم الشاى فى الحديقة، كنت أعلم بأنها جلسة صلح مع الوالد، جلست فى مواجهة أبى بينما جلس خالد بقربه، وجلست والدتى بقربى، بدأت بشرب الشاى وأنا صامتة، بدأت والدتى بالحديث قائلة: والدك أفتقد وجودك قال إن البيت من غير الدكتورة ليس له طعم، كنت أعلم بأنهم ينتظرون تعليقى ولكنى لزمت الصمت وواصلت شرب الشاى فلا أريد مجاملات لاتنتهى إلى شىء أريد أن أضع النقاط فوق الحروف، فقال والدى: عندما ترفضين الزواج من شخص يجب أن تقدمى البديل، فلن نتركك تهدمين حياتك هكذا.

قلت بحدة: أنت قلتها حياتك، قرار الزواج شىء خاص بى كفله لى الشرع، إذا لم يكن هناك قبول فلا زواج، وبالمقابل إذا أحضرت لكم عريساً لا توافقون عليه فمن حقكم الرفض، فالزواج لن يتم إلا بموافقة ثلاثية أنا وأنت وأمى، ثانياً وهو الأهم كيف أكون دكتورة وأنا أضرب على وجهى، أريد أن أعرف الحدود التى من بعدها ترون أن من حقكم الإعتداء على.

فقال أبى بغضب: عندما تسيئين إستخدام الحرية التى منحتها لك.

فقلت: لا، إنك تقصد عندما نخالف منظورك للأمور، لأنى عندما أرفض عماد أستخدم الحرية بدون أن أسى الى أحد.

قال: هناك خطوط عندما تتخطيها لا تعتقدى بأنى سأتركك تفعلين ماتشائين.

قلت: وعندما علمتنى، أنا أيضاً وضعت خطوط لنفسى كدكتورة، ومن بينها إننى لن أستطيع أن أنسى ماحييت بأنى صفعت على وجهى وأنا دكتورة. وقفت غاضبة وذهبت الى غرفتى، ووالدتى تصيح بأنه يجب أن تحدثى والدك بحترام، لا أعلم ما دخل الإحترام بما نحن فيه، كل ما أطلبه ليس من حق أحد أن يضربنى وأنا فى هذا السن وهذا العلم، ولكن أبى يرى أن هناك إطار إذا خرجت عليه، فمن حقه إستباحت كل حقوقنا وتحويلنا من أبناء إلى عبيد نسمع فنطيع أو نعصى فنضرب، لا أعلم إذا كانت مشكلة مفهوم أو مشكلة حوار أجيال، لكن من الواضح أن علاقتنا لن تعود كالسابق.

يوم الجمعة ذهبت إلى السجن مع وصال وأنا أحمل مجهود يومين فى المطبخ، أحاول من خلال الطعام أن أقول لهشام لست وحدك، فسألنى هشام وهو يضحك: ذهبت إلى مكان الحريق.

قلت مبتسمة: بالتأكيد نصائحك أوامر.

قال: طارق إنتحر أم قتل؟..

قلت: لن تصدق، لا هذا ولا ذاك، لقد خرج حيا، نظر إلىّ والدهشة مرسومة على وجهه وقال: لقد حضرنا الدفن.

قلت: لقد دفنتم جيمس.

صاح هو ووصال فى نفس الوقت: أنت متأكدة!. رويت لهم ما حدث بالتفصيل، وقلت لهم: ما يحيرنى أنه كان بامكان طارق قتل فريد النمر عندما كان مختبئاً بالقرب من العرشة بين أغصان أبوسبعين فهو يحمل مسدساً، وفريد النمر أمامه يضحك من إنهيار المبنى، الشىء الثانى أين هو؟. فقط سقط الحكم العسكرى عام خمسة وثمانين وإنتهى فريد النمر فقد حل جهاز الأمن، فلماذا لم يظهر خلال فترة الديمقراطية ولا بعد عام تسعة وثمانين مع الحكم العسكرى الجديد، هل قرر الهروب والحياة من جديد فى مكان آخر.

قالت وصال وهى تعلق لأول مرة: إذا قتل فريد النمر سيقتله رجال فريد النمر فهم موجودون خارج المبنى إذن هو حريص على حياته ولا يريد أن يموت .

قلت: ولكنه حسب رواية عباس، كان يريد الموت لدرجة أنه أطلق الرصاص على عباس الذى كان يحاول منعه من الموت. فما الذى تغير.

قال هشام: موت جيمس.

قفزت من الفرح وأنا أصيح وكل من فى زيارة السجن ينظرون اليّ: أجل هذا هو التغيير الذى حدث يا هشام، إن طارق قال لعباس جملة مازلت أذكرها، حتى الفشل له إلتزامات، ولجيمس زوجة وأطفال فى الجنوب، لقد ذهب إلى الجنوب، فقد أصبحت عائلة صديقه بلا عائل، فهو من تسبب فى مقتل عائلها، لذلك طلب من عم إبراهيم الذهاب إلى السكة حديد، لقد قفز فى أول قطار باتجاة الجنوب. فأن وقوفه مع أسرة جيمس أهم من قتل فريد النمر.

للجنوب قصة أخـيرة

طلبت من وصال أن تذهب معى فى مشوار قبل أن أعيدها إلى منزلها، فوافقت إتجهت مباشرة إلى دلالة السيارات فى الخرطوم، كانت حركة بيع السيارات المستعملة فى قمتها، فقليل من يستطيعون شراء سيارة جديدة، وإنتظرنا فى السيارة وأنا أبحث بنظرى عن عباس، حتى وجدته وهو يحاول إقناع زبون بجودة السيارة التى يريد بيعها، نزلت من السيارة وإقتربت منه، ظللت أسمعه حتى إقتنع الزبون بالشراء، كانت محادثته للزبون قصيرة ولكن خيل إلى بأنه مارس كل خبرته فى الجامعة والعمل السياسى والتطوعى فى بيع هذه السيارة، دفع الزبون عربونا وأخذ السيارة فغدا سيمضون العقد فى أحد مكاتب المحاماة، وبدأ عباس يعد فى رزمة النقود بدون أن ينتبه بأنى واقفة أمامه، وكدت أن أضحك عندما رانى فقد إرتبك فهو يتذكر بأنه تحدث معى وهو مخمور والآن هل يعود إلى العداء من جديد؟، أم يبدأ صفحة جديدة، ولكنه بذكاء وجد طريقة يبدأ بها الحوار فقال: سنتحدث بصراحة، أنت تعرفين من أين تؤكل الكتف، ولكن إسلوبك غير أخلاقى.

قلت مبتسمة: وهل هذا خطائى أم خطأ من يشرب الخمر.

قال بعصبية:ما حدث قد حدث، ماذا تريدين الآن ؟. .

قلت: عنوان جيمس فى الجنوب.

قال: قرية اسمها أدك شرق مدينة جوبا، مسافة ساعة بالسيارة.

قلت : ألا تريد أن تعرف لماذا أسأل عن العنوان.

قال: ما تفعلينه لا معنى له، جميعهم ماتوا حتى إذا لم نعثر على جثتهم مثل جيمس.

قلت مبتسمة: تبدو متأكداً.

قال: ما زلت أعيش فى مخبأ جميعهم يعرفوه، فلو كان أحدهم حياً لزارنى على الأقل.

قلت: فى هذه القرية أسأل عن ماذا بعد أن أصلها.

قال: مطعم جيمس أريل، زوجته إسمها فيفيان.

قلت: يبدو أنك زرت المكان.

قال:عندما تخرج جيمس ذهبنا معه أنا وطارق. لمعت فى عينيه دمعة حزن ثم ذهب سريعا حتى لا أري دمعته، وأدركت فى هذه اللحظة أن عباس تعمد معاداتى ليس بسبب الماض فقط ولكن لا يريد أسئلة تذكره بالماضى، لقد كان الألم شديدا فاتخذ قرارا لا رجعة فيه هو النسيان بأى طريقة حتى ولو كان خمراً.

تركت عباس وأنا أفكر فى كلامه، كان منطقيا، ولكنى بدأت الطريق فلابد أن أكمله، أوصلت وصال إلى منزلها، وعدت إلى المنزل وجلست على مكتبى سجلت عنوان جيمس فى مفكرتى، وبدأت أفكر كيف أسافر إلى الجنوب، فتح باب الغرفة ودخل خالد وهو يضحك ويقول: يا حفارة القبور، هل عرفت أين ذهب طارق؟.

قلت: دكتورة عزة لا تلعب. مددت له المفكرة أخذها وقال: أدك فى الجنوب، لا تقولى إنك ستذهبين إلى هناك.

ضحكت وقلت: طبعاً، هل يمكن أن نعيش بدون أن نعرف تكملة القصة.

قال محذرا: لو علم أبى أو أمى بالفكرة فقط سيقتلوك.

قلت بتحدى: أبى هو من سيطلب منى الذهاب.

خرج من الغرفة وهو يقول: أنت أصبحت مجنونة رسمى وشعبى.

ذهبت إلى مراكز أربعة من منظمات الاغاثة العاملة فى السودان، وسجلت إسمى كمتطوعة للعمل بدون أجر وقدمت شهادتى بأنى دكتورة فى الإقتصاد، وحددت المنطقة التى أتطوع فيها، عاصمة الجنوب مدينة جوبا فقط لا غير،

وتركت لهم عنوان أبى وتلفون مكتبه، ثم ذهبت إلى المكتبات فى سوق الخرطوم وإشتريت كمية من الكتب، تكفينى للجلوس فى غرفتى لمدة شهر حتى أكمل قرأتها، وبدأت فى تنفيذ الخطة وهى البقاء فى غرفتى حتى يعتقدوا بأن حالتى النفسية سيئة، كنت أغلق باب الغرفة بالمفتاح حتى لا يرانى أحد وأنا أقرأ، كنت أريدهم أن يتساءلوا لماذا أجلس وحدي؟.

كنت لا أنزل من غرفتى إلا وقت وجبة الغذاء، وأتعمد أن لا أكل إلا القليل، ومشاركتى أحاديثهم بردود مقتضبة، ثم أتركهم وأصعد إلى غرفتى، وبعد خمسة أيام بالتمام والكمال أتى الفرج، فقد كنت قد مللت الجلوس لوحدى، وما أن جلسنا للغداء حتى سألنى أبى بما كنت أنتظره: هل قدمت للعمل فى منظمات خيرية؟.

قلت بدون مبالاة: لا أذكر ذلك. ثم صمت لحظات وقلت: تذكرت لقد كانت هناك منظمات إغاثة تأتى إلينا فى الجامعة وملأنا الإستمارات للعمل التطوعى.

فقال: إتصلت بك منظمة للعمل لمدة اسبوعين بدون أجر.

فقلت: لست مهتمة، فأنا أفكر فى العودة إلى لندن. وكأنى ألقيت قنبلة توقف أبى عن الأكل وهو ينظر إلىّ بغضب، ووقفت والدتى وهى تصيح: لو كنت تعتقدين بأنك دكتورة ويمكنك فعل ماتريدين فأنت واهمة، لن تخرجى من هنا إلا إلى بيت زوجك، أعتقد أن كلامى واضح.

فقلت مدافعة: لا يمكن أن أظل جالسة بدون عمل.

فقال والدى: إذا كان على العمل فأمره سهل، أبدأى بالعمل التطوعى بدل الجلوس فى غرفتك، وسأكون قد تدبرت لك عملا فى هذا الوقت. نظرت إلى خالد الذى كان يجلس مواجها لى فوجدته يبتسم لى باعجاب، فقد كان يعلم بأنى أدرت اللعبة جيدا، ولكنى أعترف هذه أول مرة أستطيع أن أخدع أبى، فلم أنجح فى ذلك من قبل.

لم أخبرهم بالطبع بأنى ذاهبة إلى مدينة جوبا فى الجنوب حيث الحرب مستعرة، فقلت لهم إنى ذاهبة إلى الغرب فى دارفور فكوارث هذا البلد كثيرة بحيث يمكنك أن تختار الكارثة التى تناسبك، أوصلنى خالد إلى المطار حيث كانت مس فرانك البريطانية المشرفة على الرحلة تنتظرنى كان معها لفيف من الجنسيات المختلفة ومجموعة من السودانيين، كان العدد الاجمالى أكثر من خمسة عشر فردا، وكانت المهمة توزيع مواد إغاثة وخيام لمتشردى الحرب فى الجنوب، نظر إلىّ خالد وهو يودعنى وقال: أنا غير موافق على هذه الرحلة، ولكنى بقيت صامتا حتى لا تزيد المشاكل بينك وبين أبى.

قلت له: لو كان هناك خطر فى المناطق التى سنذهب إليها لما وافق هؤلاء الأجانب على الذهاب إنهم حريصون على حياتهم.

قال: لن تمكثى غير إسبوعين كحد أقصى.

قلت: قد أعود بعد إسبوع واحد.

حلقت بنا طائرة روسية الصنع قديمة الطراز، كنت دائماً أتسائل لماذا تكثر حوادث الطيران فى هذا البلد، ولكن بعد أن بدأت الرحلة تغير السؤال لماذا لا تقع هذه الطائرات، وكانت الاجابة لأن الله هو الرحمن الرحيم، فليس هناك سببا منطقيا واحدا يجعلها تواصل الطيران، بعد حوالى ساعتين إنتهت رحلة الرعب ووصلنا بالسلامة إلى مدينة جوبا ولكنى قررت أن أعود بالسيارة، حتى لو إستغرقت الرحلة ثلاثة أيام بلياليها، كانت جوبا قليلة البنيان كثيرة الخضرة والأمطار، كانت الطبيعة خلابة تأثر النفوس، قضيت أول يومين ونحن نسير من قرية إلى قرية نوزع المؤن والخيام، وسألت مس فرانك عن المغزى من إختيار قرى بعينها، بينما يتم تجاهل قرى أخرى، فأجابت بأنهم يسيرون حسب خطة موضوعة سلفاً ولا يمكن تغييرها، لم أشعر بالإرتياح لردها خصوصاً إجتماعاتهم السرية التى يعقدونها ليلاً بعد العودة إلى جوبا بدون حضور السودانيين منا،

فشعرت بأنها إستخبارات حرب وليست مهمة سلام، وفى اليوم الثالث طلبت من مس فرانك زيارة قرية أدك ليوم واحد، وتفاجأت بقبولها الأمر سريعاً بل إنها خصصت سيارة بسائق لتوصيلى إلى هناك، وطلبت منى أن أرسل لها عندما أرغب فى العودة حتى ترسل إلىّ السيارة، ورغم فرحى بهذا إلا أننى أحسست بأنهم يريدون إبعادى بأى طريقة فيبدو أن أسئلتى الكثيرة لم تجد هوى فى نفوسهم، كانت أغلبية السيارات المستخدمة فى المنطقة، سيارات الدفع الرباعى أو سيارات الجيش، فالطرق الطينية الموحلة لا يمكن إجتيازها بالسيارات العادية، وفى صباح اليوم الرابع إنطلقت مع عبد الرحمن السائق بسيارة جيب مكشوفة إلى أدك، وكان الطريق ممهدا أكثر مما كنت أتوقع فقال لى عبدالرحمن أن أدك تقع فى طريق حامية عسكرية من أكبر معسكرات الجيش، ويعتبر هذا الطريق المدخل الشرقى لمدينة جوبا عاصمة الجنوب، وسألته عن العمليات العسكرية الدائرة الآن فقال إنه بعد عملية صيف العبور عام أثنين وتسعين وإكتساح الجيش للجنوب أصبحت هذه المناطق أكثر أمنا مقارنة بأيام الديمقراطية حيث كان المتمردون يحتلون أغلب المناطق، فقد كان الجيش فى أسوأ حالاته، ظللت أراقب أشجار المانقو والموز والسيارة تشق طريقها بصعوبة وسط الأوحال، كان الجو جميلاً ولكن السماء تنذر بالهطول فى أى لحظة، فهذه المناطق أمطارها طول العام، إنقضت ساعة بالتمام والكمال وبدأت القرية فى الظهور كانت عبارة عن بيوت قليلة من الطين والباقى قباب من القش وخشب الأشجار، تحيط بها أشجار المانغو والأناناس وسهول من الموز، كانت كأنها قطعة من الجنة، وكان الطريق يشقها الى نصفين، وقبل أن نجتاز نصفها كان المطعم ظاهرا فهو الوحيد الذى كانت واجهته من الطوب الأحمر يعلو الواجهة مربع من القماش مكتوب عليه بالانجليزية إستراحة جيمس أريل، توقفت السيارة أمامه مباشرة، نزلت وإتجهت إلى الإستراحة بينما ظل عبدالرحمن داخل السيارة، أطلت امرأة من داخل

الإستراحة، كانت طويلة لها عيون نافذة جميلة واسعة يزيد من صفائها لمعان بياض عينيها وجهها الأسود الناعم كالأبنوس، وإبتسامتها المرحبة جعلتنى أتيقن بأنها صاحبة المطعم فيفيان زوجة جيمس، سلمت عليها بحرارة فأحسست بأنى لست زبونة لمطعمها فسألتها: أنت فيفيان.هزت رأسها بالايجاب منتظرة منى أن أسترسل فى الحديث فقلت لها وأنا أحاول أن أكون أقرب مايكون من عينيها حتى يتسنى لى معرفة رد فعلها على ما أقوله: هالة المغربى أخت طارق المغربى. تسمرت مكانها لحظات ثم عانقتنى بحرارة، دعتنى إلى الدخول وهتفت إلى عبد الرحمن أن يأتى، كانت تتحدث العربية بطلاقة، عندما دخلت إلى الإستراحة أكتشفت أن الطوب الأحمر للواجهة فقط بينما من الداخل كانت عبارة عن حوائط من الطين معروشة بخشب الأشجار مكونة صالة كبيرة تتسع لأكثر من عشرة موائد صغيرة وفى الجانب المقابل للباب حجرة من الطين تمثل المطبخ وبها باب وشباك يفتحان على الصالة والباب الاخر يفتح على حوش داخلى، أدخلتنا فيفيان إلى الحوش مخترقين مطبخها الصغير كان بالحوش غرفتان تفتحان على بعضهما وتربطهما صالة واسعة مفتوحة من الأمام والخلف بها ورود مزروعة على جنباتها فبدت كالحديقة المظللة، بها كراسى مرصوصة عليها مساند بألوان الورود المزروعة، وكان هناك حمام فى ركن الحوش، وباب فى الحائط الخلفى للحوش يؤدى الى الحقول، وحظيرة ماشية فى الركن الأخر، وأن ظهر لى مبنى وسط الحقول لونه أبيض لم أعرف ماهو، جلسنا على كراسى الصالة، وأحضرت لنا فيفيان شراب الأناناس والمانجو، كانت تنظر إلى مبتسمة وهى تجلس أمامى فقلت لها: أريد أن أمكث معك يومين هل هذا ممكن؟.

فقالت وهى تضحك: سنة لو أردت، فهنا الأيام تتكرر لا يغيرها إلا وجود الضيوف.

إستأذن عبد الرحمن فهو يريد العودة قبل هطول الأمطار، وقال إنه سيعود بعد يومين، تلفت حولى أحاول أن أعثر على أى شىء يدل على وجود طارق، فلم أكن أستطيع أن أسأل عن طارق وأنا منتحلة شخصية أخته هالة فلو إنها كانت تعلم بوفاته كما هو مشاع ولم يأتى إلى هنا ستتشك فى شخصيتى فسألتها وأنا أحاول الوصول إلى هدفى بطريقة غير مباشرة: هل تعيشين بمفردك؟

قالت مبتسمة: مع والدى وأطفالى لقد ذهبوا لصيد الغزال، لا أعلم لماذا تأخروا حتى الآن، فان أشهر طبق لنا فى المطعم هو لحم الغزال، فكل سيارات الجيش العابرة تقف عندنا لذلك. شعرت بالخيبة فطارق ليس هنا، أين ذهب إذن، هل سأقضى بقية عمرى أبحث عن وهم، فسألتها باحباط قائلة: أعذرينى ولكن هناك سؤال أريد أن أسأله وأخاف أن أسأله، هل جيمس مات؟.

قالت بحزن: نعم.

قلت: كيف؟.

قالت: فى إحتراق مبنى فى الخرطوم.

هذا ماكنت أنتظره لا يعلم بأن من مات فى المبنى هو جيمس إلا أنا وطارق نفسه، إذن فعلا طارق أتى إلى هنا إشتعل الحماس داخلى، فيمكننى أن أسأل ما أريد، ولكن نظرنا إلى الباب الخلفى على صوت والدها وولداها مع عربة باثنين من العجلات يجرها حصان، أصغر من عربة الكارو التى تكون فى العادة على أربع عجلات، محملين العربة بثلاث غزلان كان صوت ضحكاتهم عاليا ولكن ما أن رأونى حتى صمتوا وإقتربوا والفضول يغمرهم، كان والدها ينظر إلىّ بريبة، كان جسده نحيلا طويلا وشعره الأبيض يعطى انطباعا بأنه حكيم القرية، فتبادل والدها مع فيفيان الكلام بلغة محلية لم أفهمها ثم فجأة تغيرت ملامح فيفيان، ونظرت إلى وقالت غاضبة: من أنت إن أبى يقول إنك لست هالة المغربى. تسمرت مكانى من المفاجأة، أين رأى هذا العجوز هالة حتى يعرف إذا كنت أنا

هى أم لا؟. لم يكن أمامى إلا الإصرار على أنى هالة، فترجمت له فيفيان حديثى، فثار غضبا ثم دخل إلى الغرفة ثم خرج معه شنطة حديد صغيرة، ثم أخرج كراسة رسومات من داخلها ثم أخذ يقلب صفحاته نظرت سريعاً الى محتويات الحقيبة، ولاحظت مظروف أزرق فأخذته سريعاً، وكما إعتقدت إنه من فيصل كسلا الى طارق المغربى، كانت بعض أطرافه بها أثار حريق كان طارق يحمله معه يوم إحتراق المبنى، إنتزعت فيفيان المظروف منى وأعادته إلى الحقيبة وأغلقتها، وأخذت تنظر إلىّ بغضب، ثم مد والدها كراسة رسومات إلىّ مشيراً إلى الصفحة المفتوحة، نظرت إلى الرسم وتملكتنى الدهشة فقد كانت هالة المغربى بكل قسماتها، كان الرسم بقلم الرصاص، إن طارق وصفها له بدقة متناهية لقد كان يفتقد إخته بشدة، ولكن معنى ذلك أن طارق كان يجيد اللغة المحلية فهذا العجوز لا يبدو أنه يعرف اللغة العربية ولا اللغة الانجليزية، ثم إن فيفيان تجيد العربية بطلاقة، فمن غير طارق يمكن أن يعلمها، فجيمس كانت لغته العربية ركيكة، إذن طارق كان يعيش هنا ولمدة طويلة قد تكون لسنوات، إنتبهت إلى فيفيان ووالدها وولداها ينتظرون منى أن أقول شيئا، لم يعد هناك مجال للانكار فالدليل دامغ فقلت محاولة إمتصاص الغضب من عيونهم : هذه فعلا هالة إنك تجيد الرسم بطريقة مذهلة. ترجمت فيفيان حديثى إليه، فرد عليها بطريقة مختصرة، فقالت: إنه يقول هذا ليس الموضوع، من أنت وماذا تريدين؟.

قلت: دكتورة عزة الرشيد محاضرة فى جامعة الخرطوم وجئت أبحث عن طارق المغربى فقد كان زميلى فى الدراسة.

فقالت فيفيان: وكيف علمت بأنه جاء الى هنا.

فقلت محاولة إستمالتها إلى صفى: لأنى الوحيدة التى تعلم بأن جيمس مدفون مكان طارق، وأعلم تفاصيل ما حدث لجيمس قبل وفاته. فتحدث والدها غاضبا معها.

فقالت: والدى يطلب منك الرحيل حالاً.

فقلت: إلى أين أذهب، أنت تعلمين أن سيارتى ستأتى بعد يومين.

قالت: سيارات الجيش ستعيدك إلى جوبا.

قلت وأنا أكذب: ولكننا جئنا من معسكر خارج جوبا لا أعرف حتى أسمه، صمتت والحيرة تبدو عليها ثم إلتفتت إلى أبيها وأخذت تجادله ثم قالت: يمكنك الإنتظار. ثم بدأوا فى حمل غزلانهم إلى المطبخ، وأصبحت معزولة تماما فقد كان والد فيفيان يراقبنى بصمت، بينما فيفيان تجلس فى المطبخ وأولادها يقومون بمساعدتها، خرجت وجلست فى صالة الإستراحة ولكن كان كل العساكر الذين بدأوا بالحضور، ينظرون إلى بدهشة من هذه المرأة الشمالية التى تتلفح ثوبها، فما الذى أتى بها الى هنا، تضايقت من نظراتهم، ثم دخلت إلى الحوش ثانية حيث وجدت والد فيفيان يراقبنى، خرجت من الباب الخلفى للحوش وبدأت أتمشى، إن بحثى عن طارق وضعنى فى مواقف لم أكن أتصور يوما أن أمر بها وتذكرت حارس المقبرة وهو ينظر إلى بدهشة وأنا داخل القبر، إبتسمت وقلت لنفسى إنك فعلا مجنونة ياعزة، والآن أنا موجودة فى منزل أهله لا يرحبون بى ولكنى مصرة على البقاء معهم بالقوة، أعتقد بعد كل هذا لو وجدت طارقا حيا لقتلته بنفسى، ولكنى أحس بأن طارق قريب كأنه ينظر اليّ، ولكن لماذا لم تساعدنى الأقدار هذه المرة، فلو تأخر والد فيفيان وأولادها فى الحضور لدقيقة واحدة كنت سألت فيفيان أين طارق وأخبرتنى وإنتهى الأمر فما الحكمة من هذا، أين تلك القوة التى كنت أحس بأنها تساعدنى فى الخفاء، فهى من أعطتنى شرائط ياسمين، وهى من أحضرت منى حسين إلى غرفتى فعلمت منها أن طارق تعمد وضع محفظته فى المبنى المحترق، وهو ما أدى إلى وجودى إلى هنا، إقتربت من المبنى الأبيض وسط الحقول كان به غرفتين وحولها سور جميعها مبنية بالطوب ومطلية باللون الأبيض وعندما أصبحت بمحازاة البوابة لاحظت ورود متشابكة فوق حجر من

الأسمنت بالقرب من البوابة من الخارج، أزحت اغصان الورد بيدى، كان كأنه حجر أساس المبنى، كتب عليه إفتتح المهندس جيمس أريل مدرسة أدك اليوم بحضور طارق المغربى وعباس أدم، عندما تحدثت مع عباس فى المرة الأخيرة أدمعت عيناه هل تذكر مشهد إفتتاحهم المدرسة قبل أكثر من عشرة سنوات، دخلت المدرسة كان الباب يعلوه الصدأ، أصدر صريرا عاليا، إجتزت فناءا صغيرا ثم رأيت جرسا ضخما من الحديد يتدلى منه حبل أمام الغرفة الأولى دخلتها كانت عبارة عن فصل واسع، وكل شىء مغطى بالغبار، ذهبت إلى الغرفة الثانية وكانت عبارة عن مكتب واحد ومكتبة بعرض الحائط، ثم سفرة كبيرة تتسع لأكثر من إثنى عشر كرسياً، كان واضحاً إنها كانت تستخدم كمكتب للمعلم ومكتبة للقراءة فى نفس الوقت، خرجت من المدرسة وأنا أعود أدراجى بهدوء فلم يكن هناك ما يدعو إلى الإسراع، قد يكون طارق هو المعلم فى هذه المدرسة ولكن المدرسة لا تعمل، فهى تبدو مهجورة من سنين فأين ذهب طارق، قضيت بقية اليوم وأنا جالسة فى الصالة أراقبهم وهم يراقبوننى بدون الإقتراب منى، وإستغربت لماذا يخافون منى، إن ما أسأل عنه إنتهى منذ عشرة سنوات فلماذا الخوف من الحديث، ولكن رغم كل شىء كانت فيفيان مضيافة إلى أبعد الحدود حيث كانت تحضر لى العصائر والوجبات، ولكنهم يتركونى أكل بمفردى، وفى الليل نمت مع فيفيان فى غرفة ونام أبناها فى الغرفة الأخرى مع جدهم، فما أن تغرب الشمس وبدون وجود كهرباء أو تلفون لم يكن هناك إلا أن تستمع إلى الإذاعة أو النوم، وكان حديث فيفيان صحيحاً فى رتابة الأيام فقد تكرر اليوم الثانى بنفس الطريقة فيفيان تطبخ وولداها يساعدانها فى الإستراحة وهذا العجوز يتمعن فى وجهى ويراقبنى طول الوقت، من يراه يعتقد أن هناك كنزاً من الجواهر يخاف أن أسرقه منه، ورغم أننى أحسست بأن فيفيان تريد الحديث معى لا لشىء بل لكسر الملل ولكن وجود والدها كان مانعاً كافياً، ولم أحاول الإقتراب منها، فان ما كان يشغلنى

هو البحث فى الحقيبة التى أخرجها العجوز فيبدو أن بها أشياء تخص طارق، يحتفظ بها العجوز لوحده، حتى أن فيفيان لم تدري بأن والدها قد رسم أخت طارق، أو انها رأتها منذ سنوات ولم تهتم بالأمر، فهناك الكثير من الرسومات يرسمها هذا العاطل، كما أن فيفيان تتذمر من أوامره الكثيرة، وبدأت تخترق رأسى فكرة مجنونة جديدة، كل ما أرغب فيه هو ذهاب والد فيفيان وأولادها إلى الصيد من جديد، وتكون فيفيان مشغولة فى المطبخ عندها يمكننى البحث فى محتويات طارق فهى من سترشدنى إليه، ذهبت إلى المطبخ وألقيت نظرة على ما تبقى من اللحم المملح، لم يكن كثيراً إذا غداً سيذهبون إلى الصيد، لم أستطع النوم وأنا أنتظر الصباح، ولكن الصباح كان مخيبا فقد جلس والد فيفيان فى الخارج منتظرا سيارتى، وإستعجبت من أمر هذا الرجل فهو تواق لرحيلى بطريقة غير إعتيادية، وشعرت فيفيان بقرب رحيلى فطلبت منى أن أذهب معها لقطف بعض الخضروات والثمار من الحقول، ولكنى رفضت بحجة أنى أنتظر السيارة للرحيل، وشعرت بأنها تألمت فلم تكن تريدنى أن أذهب ونحن بهذا الوضع، ولكن لم يمنعنى من الذهاب معها رغبتى فى السفر بل لأنى أريد أن أمنع السفر، فخرجت من الإستراحة وتوجهت إلى الحدود الغربية للقرية كنت أريد أن أقابل السيارة بعيدا وأخبر عبد الرحمن السائق بأن يعود أدراجه ويأتى بعد يومين أو ثلاثة، ولكن العجوز فطن إلى سلوكى الغريب وأخذ يسير خلفى، فأصبحت أسير بهدوء كأننى أتمشى ثم عدت إلى الإستراحة فعاد خلفى دخلت إلى الحوش وخرجت من الباب الخلفى وكان يتبعنى كظلى فرأيت فيفيان وسط الحقول فسرت إليها، وما أن إقتربت منها حتى سألتنى: لماذا غيرت رأيك؟.

فقلت: هناك أشخاص عندما ترينهم تعرفين بأنك يمكنك كسب صداقتهم لو وجدت الوقت لذلك وأنت منهم.

تأثرت بكلامى وقالت: صدقينى لست غاضبة منك.

قلت: سؤال واحد أريد إجابته أين ذهب طارق؟. وسأذهب بعدها.

قالت: لقد ذهب.

قلت: الى أين.

قالت مبتسمة: لقد قلت سؤال واحد. أخذت سلة الخضار وبدأت طريق العودة، كنت أسير خلفها وأنا أقول: ألا يمكن أن تقدرى بأنى قدمت من الخرطوم من أجل ذلك وسأعود اليوم بدون معرفة شىء. قبل أن ترد كان العجوز قد إقترب منا وهو ينظر الى بنته بغضب، تابعنا العودة والصمت سيد الموقف، جلست فى الصالة أنتظر حضور عبد الرحمن ولكنه لم يأتى، وحتى المساء لم يأتى، وشعرت بالفرح لأن مس فرانك تريدنى بعيدا منعت عبد الرحمن من الحضور، كان العجوز غاضبا لعدم حضور سيارتى، ثم فى المساء بدأ بالشجار مع فيفيان التى كانت تصيح فى وجهه، لم أتدخل بل ذهبت مباشرة الى سريري، رغم أنى لا أعلم اللغة التى يتحدثونها ولكنى كنت أعلم محتواها فهو يريدنى أن أغادر بأى سيارة ولكن فيفيان أصرت على حضور سيارتى، وفعلاً هذا ما أكدته لى فيفيان فى الصباح، وبدأ واضحاً أن العجوز لا يريد الذهاب إلى الصيد ويتركنى مع فيفيان، ولكن فيفيان جعلت إبنيها يجهزون العربة، وأخيراً إضطر والدها الى الذهاب للصيد فلم يعد هناك ما يقدمونه للزبائن، بعد أن أعطى فيفيان الوصايا العشر بعدم الحديث إلىّ، وبدأت تنفيذ خطتى باخبار فيفيان بأنى أريد أن أنام قليلاً حتى تحضر سيارتى، وبعد نصف ساعة تأكدت من انهماكها فى تنظيف الاستراحة، تسللت الى الغرفة المجاورة وفتحت الحقيبة، أول ما أثار إهتمامى جرائد مطوية بعناية، كانت عبارة عن خمس جرائد فى فترات زمنية متباعدة فى فترة الثمانينات، تصفحتها سريعاً لم أجد خبر يثير الإهتمام، فأرجعتها ثم وجدت صندوق صغير من القطيفة فتحته ووجدت به دبلتين، مازال محتفظا بها، أه لو تعلم منى كم أحبها طارق، ثم كراسة الرسومات، تصفحتها كانت هناك رسوم لفيصل وعباس

وجيمس وشخصيات لم أعرفها، ثم كان التمييز بصورة منى وبها دمعة على خدها كانت قمة فى الروعة، منى كما يراها حبيبها، من كثرة خطوطها أدركت أن طارق جلس مع هذا العجوز وقتا طويلا فى هذه اللوحة، كان هناك مصحف وكتاب فى شعر المعلقات وكتاب عن تاريخ الخرطوم، ثم فتحت قصيدة فيصل الموجودة فى المغلف الأزرق وقرأتها وهى تقول: إهداء من فيصل إلى طارق

ضد العسكر ليس إلا...
بأى لون وأى حزب وأى ملة
لأن حكم الفرد ظلم ..
لأن حكم الفرد زلة ..
لأن العدل فى الجمع سنة
ضد العسكر ليس إلا..
بأى لون وأى حزب وأى ملة
فى الشتاء وفى كل الفصول
وعند الشروق وعند الإفول
ومنذ ولادة الطفل الرضيع
الحرية يا خلق فطرة
لا نقول يا شعب جود
أتعب الجلاد من سلخ الجلود
أو نقول ياشعب ناضل
سنعيدها غرس المشاتل
بل نقول ياشعب إقرأ
بل نقول ياشعب إقرأ
ضد العسكر ليس إلا..

بأى لون وأى حزب وأى ملة.

كان هذا الظرف هو الشىء الوحيد الذى جاء مع طارق من الخرطوم، ودبلة منى لابد انه كان يلبسها فى أصبعه مع دبلته، لو علمت منى بأن طارق لم يخلع دبلتها أبدا ولكن لماذا لا يلبسها الآن هل توفى وهم يحتفظون بأشيائه من باب الذكرى، ولكن إذا كان قد مات فلماذا يخافون منى، فاذا كان حيا فخوفهم مشروع فقد أتى هاربا من الخرطوم ويريدون حمايته من أى غريب ولكن ألا يعلمون أن الإنتفاضة أسقطت النظام ولا خوف على طارق، هذا شىء محير فعلا . أغلقت الشنطة وأعدتها مكانها وعندما عدت إلى غرفة فيفيان كنت أسأل نفسى لماذا إحتفظ طارق بهذه الجرائد لم يكن بها خبر يثير الإهتمام، والآن ما العمل بحثى فى الشنطة لم يجب على تساؤلاتى بل زادها، بدأ اليأس والغضب يتسربان إلى نفسى فقد وصلت إلى طريق مسدود، ولا شىء يمكننى فعله، ولكن عندما لا تجد ما تفعله فهى إشارة من القدر بأن عليك الإنتظار، سأحاول أن أتقرب إلى فيفيان أكثر، ذهبت إليها وبدأت أساعدها فى تقطيع الخضار، وغسيل الأوانى وبدأت أحكى لها تاريخ حياتى وهى تستمع باهتمام، وحكيت لها عن سبب عداوتى مع طارق، وبدأت تضحك وهى تقول أن طارق لم يروى لها شيئا عن الخرطوم غير أحداث وفاة جيمس ولكنه لم يكن يحب حتى التطرق الى حياته الماضية فسألتها:

ماذا قال لك عن وفاة جيمس .

قالت: لقد أخبرنى بأنه طلب من جيمس الإنسحاب من الإنقلاب الذى كانوا يعدون له ولكن جيمس رفض ثم تشاجرا، فأخفى جيمس كل شىء متعلق بالأجهزة الخاصة بالإتصالات مما إضطر طارق إلى قبول إشتراكه، وأخبرنى أن الإنقلاب تسربت أخباره فتم تصفية الجميع، ولكنه عثر على عباس حيا وطلب منه الهروب، ولكن عندما ذهب إلى جيمس وجده محترقاً بالكامل، ولكنى علمت بأن

هناك شيئاً حدث عندما أتت سيارات الجيش إلى هنا ووضعنا تحت الرقابة لمدة ستة أشهر حتى إندلعت أحداث الإنتفاضة وسقط العسكر.

قلت: ثم جاء طارق بعد ذلك؟.

قالت: لقد أخبرنى بأنه جاء إلى هنا مباشرة، ولكنه وجد سيارات الجيش ثم ذهب إلى غرب السودان حيث عاش مع راعى للماشية، حتى سمع بسقوط النظام ثم أتى إلى هنا حيث قام بالتدريس وإدارة المدرسة، وأصبح يساعدنى فى زراعة الخضروات، و يذهب إلى الصيد مع والدى، ولكنه كان حزيناً وقد طلبنا منه العودة إلى الخرطوم فقد كان واضحاً بأنه يفتقد أهله وحياته ولكنه رفض وشعرت بأنه كان يمارس عقوبة على نفسه بالبقاء هنا فقد كان يشعر بمسوؤليته فى وفاة جيمس رغم أنى أخبرته بأن جيمس هو من إختار هذا الطريق.

قلت: لم يخبرك بأن من قام بالإبلاغ عن الإنقلاب والده.

نظرت الىّ بدهشة وقالت: هذا يفسر لى لماذا كان يشعر بالذنب لما حدث، ثم بدأت تبكى بحرقة، نظرت إليها لماذا كل هذا البكاء هل كانت تعشقه هى الأخرى وسألتها: لماذا ذهب من هنا. بقيت صامتة وهى تمسح دموعها ظللت ألح عليها ولكنها رفضت الحديث، شعرت بالغضب وقلت وأنا أمسك بكتفيها وأهزها بقوة: أخبرينى أين ذهب وسأذهب على الفور.

فصرخت: لو علمت لن تذهبى أرجوك لا أريد مزيداً من المشاكل.

لم أفهم ماذا تعنى، وسمعت صوت سيارات جيش كثيرة وقفت بالخارج ولكنى لم أهتم فقد كانت كلمة واحدة من فيفيان تنهى لى هذه القصة فواصلت هز كتفيها وأنا أسألها أين ذهب طارق؟. ولكنى توقفت عندما رأيت نظرة الرعب فى عينيها وهى تنظر خلفى، كانت مجموعة من العساكر دخلوا إلى الاستراحة، وقال أحدهم وهو يقف عند باب المطبخ: فيفيان، سيادة المقدم يريد سؤالك عن المرأة الشمالية التى تقيم معك، ثم سكت بعد أن وقع بصره علىّ، نظرت الى فيفيان ولكنها لم

تكن تنظر الى العسكرى ولكن بصرها تخطاه إلى شيء خلفه، كان الخوف فى عينيها فالتفت الى الخلف وجدت سيادة المقدم بدأ الدخول إلى الإستراحة كان يلبس نظارة شمسية ولباسه العسكرى مرصعا بالنياشين، فرض هيبة على المكان، ولكن ما أن أنزل نظارته من عينيه حتى أدركت أن الأقدار لم تبقينى فى هذا المكان عبثا، صحت وأنا مذهولة: ياسر عبدالحميد؟..

ولكن تصرف ياسر لم يكن مرحباً أبداً، فما أن رأنى حتى إستشاط غضبا وهو يصيح وقد برزت عروقة فى وجهه: عزة الرشيد ماذا تفعلين هنا، جئت تبحثين عن طارق بعد أن قالوا لك بأنه مات، وأنا حى والكل يعلم بأنى حى ولا أحد يفكر حتى أن يتصل بى.

لم يترك لى فرصة الرد فقد أمر الجنود بتحطيم المكان والقبض علىّ، وما هى إلا لحظات كنت جالسة فى المقعد الخلفى لسيارة جيب مكشوفة تابعة للجيش ويداى مقيدتان أمامى بقيود حديدية، كانت فيفيان واقفة فى عرض الشارع وهى تنظر تارة إلى إستراحتها التى سويت بالأرض، ثم تنظر إلى تارة أخرى، ثم أخذت سيارات الجيش بالتحرك باتجاه جوبا، ولكننا توقفنا فى عدة قري فى الطريق فالعثور على كان خارج المهمات التى خرجوا لها، وما أن وصلنا عاصمة الجنوب قبل غروب الشمس، توجه الموكب إلى معسكر للجيش، ثم أدخلت مبنى جانبى مكون من غرفتين، أحدى الغرف مكتب واسع، والأخرى زنزانة يفتح بابها على غرفة المكتب، أدخلنى العسكرى الى الزنزانة، كان النور يأتيها من شباك صغير به قضيبان يفتح على الخارج وفتحة صغيرة فى باب الحديد تدخل قليل من الضوء من غرفة المكتب، جلست فى ركن الزنزانة لم أكن خائفة، لأنى أعلم بأن مايفعله ياسر من إحساسه بالجرح من تصرفى، فالعتاب على قدر العشم، وشعرت بتأنيب الضمير فعلا لقد نسيت ياسر تماما على الرغم من أن علاقتى معه قديمة، منذ أن تعرفت علي منى أو منذ أن وعينا على الدنيا ثم يأتى

ويجدنى أبحث عن غريمه شيء مهين فعلا ، انه يشعر بأنه فقد الكل بسبب طارق، طارق الذى إنتصر عليه وحصل على منى حسين إبنة عمه، فكان قراره الهروب إلى الجنوب منذ أكثر من عشرة سنوات، كان يتوجب على السؤال عنه حتى ولو بمكالمة تلفونية، فقد كنت حليفة ياسر وعدوة طارق والآن دارت الأيام، وأصبحت حياتى كلها تدور فى ما فعله طارق، أهيم خلفه كأنه من بقية أهلى، هشام كان محقا لقد فقدت عزة الأولى، أصبحت شخصية ثانية مرمية فى زنزانة فى أقصى الجنوب، ماذا تريدين يا عزة، وماذا تفعلين هنا، غلبنى التفكير فنمت على الأرض، عندما إستيقظت كان الظلام حالكاً فى الخارج، ولكن غرفة المكتب مضاءة، نظرت الى ساعتى كانت قد تجاوزت الثالثة صباحاً، ثم سمعت صوت بكاء خافت، وقفت وإتجهت إلى الأمام ونظرت من فتحة الباب، وشعرت بقلبى ينفطر وأنا أرى ياسر يجلس على المكتب بلباسه العسكرى وقبعته موضوعة أمامه على المكتب، كان رأسه بين يديه ويبكى كأنما يرثى حاله فقد كنت أنا من جعلته يشعر بأن طارق هزمه، كنت أريد أن أقول له أى شيء يخفف هذا الألم النازف من سنين، ولكن الموقف لم يكن يحتمل الحديث، فعدت وجلست مكانى وبدأت الدموع تسيل على خدى، منذ أن عدت الى السودان وأنا أبكى كل من أقابلهم وأصبحت مثل طارق كما قال عباس يسبب الألم لكل من حوله، بعد فترة ليست قليلة سمعت الباب يفتح، ثم جاء عسكرى وأمسكنى من يدى وأخرجنى الى المكتب حيث كان ياسر جالساً وأقعدنى فى كرسى مقابل لمكتب سيادة المقدم، فقال له ياسر: فك الحديد. أطلق العسكرى سراحي من القيود الحديدية وخرج، ثم جلسنا لمدة دقيقة ننظر الى بعض، كان وجه ياسر قد تغير، أصبح قاسياً جافاً ولكن عينيه كانت هى الحزن نفسه، ثم قال بصوت خافت كأنما يحدث نفسه: عزة الرشيد لماذا لم تقتنعى مثل بقية خلق الله بأن طارق إنتحر فى الخرطوم.

قلت: أنت تعلم مثل طارق لا ينتحر، ولكن صدفة غريبة أن تتقابلا ثانية فى الجنوب.

قال: ليست صدفة غريبة، لقد قابلته بعد خمس سنوات من حضوره إلى الجنوب، عندما حضرت الى هنا كان من ضمن مهامنا فى الإستخبارات العسكرية مراقبة أى شمالى قادم الى الجنوب، لأنه إذا لم يكن تاجراً، فاما أن يكون شيوعياً متعاوناً مع التمرد أو تاجر سلاح، وكان لى صديق إسمه هاشم معى فى الجيش، كان مسوؤلاً عن مراقبة قرية أدك للبحث عن جيمس أريل، وذلك بعد أن جاءت إخبارية من الخرطوم بالقبض على جيمس حياً أوميتاً لضلوعه فى محاولة إنقلابية، وكنت عندما نكون متحركين إلى المعسكرات الشرقية أزوره فى قرية أدك، هذه هى القصة التى جعلتنى أزور المكان لأول مرة وكان ذلك فى عام خمسة وثمانين، ثم قامت الإنتفاضة وجاء عهد الديمقراطية التى كانت وبالا علينا فقد تعرض الجيش لهزائم متتالية، نتيجة لصراع السياسيين على السلطة، وأصبح المتمردون يحتلون أغلب المناطق فى الجنوب، وأصبحنا كالنساء نحتمى بالمدن الكبرى، وعندما غرقت الخرطوم عام ثمانية وثمانين تحت الأمطار وسيول كان إيذانا بأن الحكومة غارقة لا محال، وفعلا فى عام تسعة وثمانين أمسك الجيش بزمام الأمور، وبدأت الحياة تدب فى الجيش من جديد، ثم جاءتنا إخبارية فى عام تسعين بأن هناك شمالى يعيش فى قرية ادك بصورة دائمة، وكنا مجموعة من الضباط المكلفين بهذه التحريات فتطوعت لهذه المهمة لعلمى بالمكان جيداً خصوصاً بأنه يذكرنى بصديقى هاشم الذى قتل قبل عامين فى إشتباك مع المتمردين، قدت السيارة الى أدك بنفسى كان معى عسكرى واحد، وتخيلى المشهد عندما دخلت الإستراحة وجدت فيفيان وسألتها عن الشمالى الذى يقيم معها، فقالت بأنه زوجها، وإنه يعمل فى المدرسة خلف الإستراحة، إستغربت أن يأتى شمالى ويتزوج من جنوبية أرملة بأطفالها ويقيم معها هنا، فاذا كان يريد الزواج

من هنا لماذا لم يتزوج فتاة لم يسبق لها الزواج، كما أن الخوف الذى كان واضحاً على وجهها جعلنى أشعر بأنى أمام شىء مريب فأنا أعلم بأن زوجها جيمس مفقود فى محاولة إنقلابية، فذهبت وخلفى العسكرى إلى المدرسة وفتحت باب الفصل، نظر اليّ الطلبة ولكن المعلم كان يكتب على السبورة وما أن إلتفت ورآنى أصابت الدهشة كلانا سقطت قطعة التباشير من يده وأخرجت مسدسى فى الحال، لو سألونى وقتها ماذا تتمنى فى هذا العالم لما تمنيت غير هذا المشهد، طارق المغربى بشحمه ولحمه هنا أمامى، غريمى من حطم أحلامى بين يدى، أذكر أخر مشهد بيننا عندما إنهالوا علىّ بالضرب بالقرب من السكن الداخلى للجامعة، وحتى بعد أن تركونى جثة هامدة ملقى على الأرض وشرعوا بركوب السيارة للهروب عاد طارق وركلنى فى بطنى وقال لى الدم بالدم، الآن ستعرف ماهو الدم يا طارق، إبتسمت وأنا أصوب مسدسى نحوه، أنزل نظارته بيديه فلاحظت بأنه يلبس دبلتين بيده مثلى فأدركت بأنه خسر منى حسين، فشعرت بالراحة لم أخسر لوحدى، أمرت العسكرى أن يضع القيد على يديه، كنت أظنه سيقاوم ولكنه كان مستسلما تماما، سار أمامنا وخلفه العسكرى ثم أنا ومن خلفى الأطفال، كان الفضول يقتلنى ماذا جعل طارق المغربى يترك منى حسين ويأتى الى هنا، عندما وصلنا أمام الإستراحة وجدنا سكان القرية متجمهرين وفيفيان تصرخ بأن نترك زوجها فأمرت العسكرى بتجهيز سلاحه الرشاش الذى كان معلقاً على كتفه، كنت على إستعداد لقتل أى أحد يفكر أن يأخذ منى هذا الصيد الثمين، وأمسكت طارق وأجلسته فى المقعد الأمامى بجوار العسكرى وجلست فى المقعد الخلفى وأنا مصوب مسدسى إلى رأس طارق فتراجع الجميع عن السيارة وإتجهنا إلى جوبا، وأنا أشعر بأنى أسعد صياد على وجه الأرض.

ما أن وصلت إلى هذا المكتب حتى أمرت العسكرى بوضعه فى الزنزانة وبخلع ملابسه حتى نبدأ بسلخ جلده بسياطنا، ولكن العسكرى عاد وأخبرنى بأن

السجين جلده مسلوخ أصلا، فدخلت إلى الزنزانة كان طارق واقف صامتا وهو بسرواله الداخلى فقط، ورأيت جسده به آثار حريق قديم أو ماشابه، وأثار الأمر فضولى فسألته عن سبب هذه العلامات على جسده ولكنه ظل صامتا فصفعته وبدأت بضربه ولكنه رفض الحديث، فقررت تأجيل تعذيبه حتى أجمع معلومات عنه فيبدو أن هناك أمراً خطيراً حدث ولا أعلم عنه شيئاً، وإتصلت بزملاء لى فى الخرطوم للتحرى عن طارق المغربى، وبعد أسبوع واحد فقط تجمعت لدى معلومات لم أكن أحلم بها، فطارق مثبت بأنه توفى فى حريق مبنى فى الخرطوم، فأدركت على الفور بأن من مات هو جيمس وطارق كان مشاركاً فى هذا الإنقلاب وإنه أتى هاربا، إذن أصبح هذا السجين ملكى فلو قتلته اليوم لن يسأل عليه أحد، وبدأت معه رحلة عذابه، ظل مسجوناً هنا لمدة شهرين حتى إنهارت صحته، فأطلقت سراحه حتى يستعيد عافيته وعينت له رقابة فى أدك، ولكنه لم يحاول الهروب، فقد كان منشغلاً بمدرسته وزراعته وصمته، ثم أصبحت كل ما أعود إلى جوبا بعد كل مهمة، أرسل فى طلبه، ولكن مع مرور الوقت شعرت بأنه يستلذ العذاب أو إنه يطلب الموت، ثم لغيت الرقابة عليه فى أدك منتظرا أن يهرب، ولكنه لم يحاول، مما جعلنى أقل متعة وأنا أضربه، وبدأت أشعر بأنى أضرب شخصاً ميتا، إستمر هذا الوضع حتى بدأنا الإستعداد لعملية صيف العبور، وجاءتنا الأوامر فجاءة بالتحرك فى مهمة تستغرق يومين، وكنت قد أمرت العساكر باحضاره من أدك، فطلبت منهم أن يضعوه فى الزنزانه حتى أعود، وعندما عدت سألت عنه العسكرى إن كان قد قدم له شيئا للأكل، فقال العسكرى بأن السجين رفض الأكل وطلب كوب ماء فقط، دخلت الزنزانة ووجدته جالسا فى ركن الزنزانة يبتسم بسخرية وهو ينظر إلى النافذة كان كوب الماء الزجاجى فارغ نصفه، و ضوء الشمس ساقطا على وجهه، كانت احدى رجلية ممددة على الأرض والرجل الأخرى مثنية حيث كان يسند يده التى تمسك بنظارته على

ركبته، ولكنى عندما إقتربت منه لم يتحرك، ركلته بحذائى على رجله حتى ينظر اليّ، ولكنه مال على جنبه وسقط ميتا، تحسست جلده كان دافئا لقد مات قبل وصولى بلحظات. أخرج ياسرعلبة سجائره وبدأ فى إشعال سيجارة، كنت أنظر إليه ودموعى تسيل بصمت فسألته: مات فى هذه الزنزانة؟.

قال وهو ينفخ الدخان من فمه: فى نفس الركن الذى كنت تنامين فيه الآن.

قلت: هل شعرت بالسعادة بموته.

قال: السعادة كلمة ملغية من قاموسى، ولكن منذ أن رأيته بالجنوب تبدل شعورى بالهزيمة الى نصر، إلى أن قابلتك، أشعرتنى بالهزيمة مجدداً، فالإنسان ما هو إلا ذكرى فى نفوس الأخرين، ونجح طارق ميتا فى إحضارك إلى هنا، فيما فشلت في ذلك حياً، ولكنى وقت وفاته سألت نفسى هل كان ممكناً أن نكون أصدقاء لو تقابلنا فى ظروف أخرى.

قلت وأنا أغالب البكاء: أين دفن؟.

قال: أخذوه العساكر إلى فيفيان، حيث إختارت أن تدفنه فى الحقل الواقع خلف المدرسة.

لم يكن لدى رغبة فى الحديث فقلت لياسر: هل يمكننى الذهاب.

فقال: طبعا... الى الخرطوم؟.

قلت: أجل ولكن على العودة الى أدك أولاً.

قال: أليس لديك تعليق على ما سمعتيه.

قلت: أنت تحمل طارق مسوؤلية فشل علاقتك بمنى حسين، ولكنك خسرتها لأنك اعتبرتها ملكية خاصة، وهو السبب نفسه الذى جعل طارق يخسرها، عندما بدأ يفكر بنفس الطريقة.

أمر ياسر العسكرى باعادتى الى أدك، عندما خرجت من مكتب ياسر كانت خيوط الفجر قد لاحت ولكنه كان فجراً حزيناً، مات طارق المغربى فى سجن

غريمه، كل ما إنتهيت إليه أن طارق لم يتوفى منذ أكثر من عشر سنوات من عودتى إلى السودان، بل مات قبل عام من العودة، يا لفرحتى بهذا الإنجاز، ماذا كنت تأملين ياعزة، أن تجدينه حيا ويهلل لك لبحثك عنه، ركبت السيارة الجيب فى المقعد الخلفى، وما أن تخطينا بوابة المعسكر حتى رأيت فيفيان جالسة بالقرب من البوابة، طلبت من السائق التوقف، تركت فيفيان إستراحتها المحطمة، وأطفالها وجاءت تبحث عنى، كانت تعلم المكان الذى سيأخذنى إليه سيادة المقدم، كم مرة إنتظرت زوجها طارق هنا، جعلوها أرملة مرتين، ومازالت تزرع وتقلع، وتحافظ على أجمل إبتسامة رأيتها فى حياتى، نزلت من السيارة، التى كانت قد تخطتها بمسافة فعدت إليها جرياً، وحضنتها، كنت أبكى على كتفها بحرقة، لم أعرف هل بكائى عزاء لها أم لى، قلت لها: لماذا لم تخبرينى بأن طارق مات؟.

قالت وهى تحاول أن تمنع دموعها من النزول: لا أريد مشاكل مع الجيش، فأبى يقول بأنك إذا علمت بوفاته ستخلقين مشاكل مع الجيش أو تأخذين إبن طارق فهو يعتقد بأنك قريبة طارق وقد جئت لأخذ الطفل منا إلى الخرطوم.

أدركت الآن ماهو الكنز الذى يخاف عليه هذا العجوز، لماذا لم الاحظ أن عمر إبنها الصغير يدل على إنه ولد بعد وفاة جيمس، ولكننى لم أتخيل أن يتزوج طارق من هنا، إنطلقت بنا السيارة، كنت أمسك بيد فيفيان فى المقعد الخلفى، لا أعلم لماذا أشعر بأنها الأقرب إلى قلبى، ظل الصمت يحكمنا طوال الطريق فالأحزان تفرض نوعا من الرهبة والإجلال، عندما وصلنا أدك كان الحال يغنى عن السؤال وكانت الأمطار قد بدأت فى إنزال رزازها، الإستراحة مدمرة تماما وبسببي، دخلنا الحوش الخلفى كان والدها وأولادها ينظرون إلينا بصمت، أمسكت بيد إبن فيفيان الصغير وأنا جالسة على أمشاط قدمى، والعجوز يراقبنى بخوف، منذ حضرت إلى هنا وأنا أشعر بأن طارق ينظر إلىّ، لم يكن طارق ولكنه إبنه له

نفس عيون أبيه، كان فى حوالى الثامنة من العمر أصغر من أخيه بعامين أوثلاثة فلست خبيرة بأعمار الأطفال، سألته: ما إسمك.

نظر الى جده كأنما يستأذنه وقال :أدم.

فعلا لابد أن يسمى طارق إبنه أدم فهو الأول، أراد أن يبدأ هنا من جديد، ولكن الماضى كان ثقيلا على كاهله فلم يستطع الصمود، طلبت من إبن جيمس أن يقترب منى إقترب بحذر وهو ينظر إلى جده فقلت له: ما إسمك.

فقال: جوزيف جيمس أريل. نفس ملامح جيمس، أخذتهم فى حضنى احسست بأنى مسوؤلة عنهم كفيفيان تماماً نظرت إلى الاستراحة المدمرة، لابد أن أبنيها أنا فأنا من حطمتها، أمسكت فيفيان بيدى وسحبتنى إلى الحقل، حاولت أن أسحب يدى منها ولكنها كانت مصرة أن تجعلنى أتيقن موت طارق، كنت أقاومها فلا أريد أن أرى قبره الان، ظللت أبحث عنه كل هذه المدة، والان لا أريد مواجهة الحقيقة، كانت فيفيان حازمة وهى تجرنى خلفها بالقوة، كانت يدها بقوة يد المزارع وكنت كالطفلة مسحوبة سحبا خلفها، تجاوزنا المدرسة ورأيت أشجار نخيل فى منتصف الحقل، وإستغربت إن ينمو النخيل هنا وما أن إقتربنا منها حتى بدأ لى القبر وحيدا وقفت أمامه وفيفيان خلفى تراقبنى كان المطر يزداد فأخفيت دموعى بين رزازه، كنت أحاول التماسك فلا أريد أن أكون ضعيفة أمامها، جثوت على ركبتى، ألم يكن بامكانك يا طارق الإنتظار قليلا، الآن أدركت أن منى حسين محقة، لقد كرهتك حيا وأحببتك ميتا، وما أسوأ أن تعشق ذكرى، أدخلت يدى داخل تراب القبر كأننى أريد أن أخرجه منه، لابد أن تسمعنى لم يأتى غيري للبحث عنك، أتسمعنى ياطارق، أجل أنا أحببتك وأنت هارب من العسكر لتحتمى بفريد النمر، كمن يستجير من الرمضاء بالنار، أحببتك وأنت ملقى فى المخزن تضرب بالسياط كالعبيد، أحببتك وأنت تقتحم النار لتنقذ صديقك، لقد أعطيت كل ما عندك، ولم تجنى غير الألم، لم تكن فاشلا لكن الفشل أرادك، ألا يمكن أن يعود

الزمان قليلا، والله العظيم أحبك، أسمعنى ياطارق لابد أن يسمع الموتى ما يقال، أخذت أصرخ أنا عزة الرشيد ياطارق وأنا متمرغة فى التراب الذى حولته الأمطار الى طين، بدأت أشعر بقبضة من الوجع فى قلبى ثم وجهى يرتطم بالطين وشعرت بفيفيان تحاول أن ترفعنى ولكنى فقدت الوعى فلم أعد أحتمل الوجع.

إستيقظت فى غرفة فيفيان، كانت فيفيان تجلس بجوارى، وكان الليل قد خيم على المكان، أعطتنى ماء شربته وأحسست أن روحى بدأت بالرجوع الى جسدى، سألتها: كم مضى من الوقت وأنا هنا.

قالت وهى تضحك: منذ الصباح حتى الآن، لقد غابت الشمس منذ قليل. أعطتنى حبة وقالت: أحضرنا لك طبيبا من جوبا وقال يجب أن تأخذى هذه الحبوب يومياً.

شعرت بأنى أصبحت عبئا على فيفيان، فقلت لها: من بنى المدرسة؟ .

قالت: عباس وطارق وجيمس.

قلت: من أين أتوا بالطوب الأحمر.

قالت: صنعوه بأنفسهم، وما تبقى منه بعد إكمال المدرسة إستخدموه فى بناء واجهة الإستراحة.

قلت: غدا سنبدأ فى بناء الإستراحة من جديد،

ابتسمت لى وهى تقول : ألا تيأسين أبدا، نامى الآن فغدًا يوماً آخر.

منذ الصباح بدأنا فى تحضير الطين وتخميره، كانت فيفيان تخبرنا بالخطوات اللازمة فقد قامت بصناعته مع جيمس وطارق وعباس عند بناء المدرسة، بدأنا العمل نحن الخمسة ولكن بعد قليل انضم لنا أهل القرية، ولم يمضى إسبوع واحد إلا كان الطوب جاهزا، ثم بدأنا أعمال البناء، أكملنا الإستراحة وبنينا مطبخ كبير لفيفيان، ولكنى شعرت بأنى أخرجت من قبر طارق حزناً وصمتاً إستقر فى جسدى كأننى تسلمت إرث طارق، ورفعنا فوق الإستراحة اللافتة الخشبية التى

صنعها والد فيفيان مكتوب عليها استراحة جيمس أريل، وبدأت فيفيان فى توزيع الوجبات مجاناً فرحاً بالإستراحة الجديدة، ولكن ما أن غربت الشمس حتى كنا فى سبات عميق فقد كان يوم الإفتتاح مرهقا، وفى الصباح بينما كنا نشرب الشاى فاجأنى والد فيفيان بلوحة لى وأنا أحمل الطوب كانت اللوحة رائعة، لقد رسمنى أجمل من الواقع، ولكنى قلت محاولة أن أغيظه: أنا أجمل من اللوحة. ترجمت له فيفيان تعليقى فأخذ يضحك، فتذكرت شنطة طارق فقلت له: هل يمكننى رؤية محتوياتها دخل غرفته وأحضر الشنطة، أخرجت الجرائد وبدأت أتصفحها بهدوء هذه المرة، ولكن لم يكن هناك أى خبر يثير الإهتمام، فسألت فيفيان: هل جمع طارق هذه الجرائد؟.

قالت: نعم وقد كان حريصاً عليها جدا وكنت أرى دموعه كل مرة يتصفحها تحت أشجار النخيل التى زرعها بنفسه، ولكنى لم أعرف لماذا، وقد سألته ولكنه رفض الإجابة.

إستغربت فلا شىء يمكن أن يكون له علاقة بطارق، ثم بدأت أقرأ فى الإعلانات وفجأة إستوقفنى ما كنت أبحث عنه، إعلان مكتوب فى الجرائد الخمسة، "السمندل والدتك فى إنتظارك"، والدة طارق هى الوحيدة التى راهنت بأنه حى، يا لقلبك ياطارق، ألم يكن بامكانك أن تراها ليوم واحد فقط، ولكنى أدركت الآن إنك كما فقد زملائك حياتهم قررت أن تفقد حياتك الماضية مثلهم، وإلتزمت بذلك رغم نداء أمك، لم أرى فى حياتى إلتزاما بهذه القسوة، لم أرى جلدا للذات كما فعلت، أخذت أبكى، خطفت فيفيان منى الجرائد وهى تسألنى: ماذا وجدت؟. قلت لها وأنا أشير إلى الإعلان: انها والدته كانت تسميه السمندل. بدأت دموع فيفيان تنزل على خدها، فجأة سمعنا تصفيقا فى الخارج كان هناك من يريد الدخول إلى الحوش حيث كنا نجلس، خرجت فيفيان وثم عادت وهى تنظر إلى بحزن ثم ظهر خلفها عبد الرحمن السائق وهو يعتذر عن التأخير بسبب مس فرانك، وقف والد

فيفيان غاضبا وأمسك بيدى طالباً منى البقاء، قبل أن أقوم من الكرسى قفز أدم وجوزيف فى حضنى لمنعى من الذهاب، وقفت وقلت لعبد الرحمن بحزم: يمكنك العودة بدونى.

قال محتجاً: مس فرانك لا يمكنها العودة للخرطوم بدونك.

قلت وأنا أبتسم: قل لها أن تحجز راتبى. ذهب عبدالرحمن وهو غير مصدق، نظرت إلىّ فيفيان بدهشة، فقلت لها: طارق قال الفشل له إلتزامات، وأنا أقول البحث عن الحقيقة أيضا له التزامات.

قالت: لا أفهم.

قلت: تعالى معى.

أمسكت جوزيف وأدم كل بيد وخرجت بهم الى المدرسة وفيفيان ووالدها يسيرون خلفى، وعندما أصبحنا داخل المدرسة، أمسكت بحبل الجرس فقرعته كان صوته مدويا، وما هى إلا لحظات حتى تجمع أطفال القرية وقلت لفيفيان وأنا أبتسم: عزة الرشيد مدرستكم الجديدة. أخذت فيفيان تضحك وهى تشرح لوالدها ما أقول، أدخلت الأطفال الفصل وأنا أقول لفيفيان: إذا لم تعجبنا وجبة الغداء فسنأتى بطباخ غيرك، أمسكت فيفيان بيد والدها وهى تطلب منه مساعدتها فى المطبخ فقد خسرت مساعديها الإثنين فى يوم واحد.

تكررت الأيام التالية بنفس النسق، فيفيان تدير الأستراحة، وأنا أدير المدرسة والعجوز يذهب إلى الصيد كل ثلاثة أو أربعة أيام، وفى هذا اليوم يذهب معه جوزيف أو أدم، كان لدى من الوقت الكثير، فقد كان رأى فيفيان أن أدرس اللغات فقط فهى تريد أن يفهم ابناؤها العالم ويفهمهم العالم، ولكنى لم أغير شيئا فقد وجدت المنهج موجودا كما تركه طارق، وأصبحت أساعدها فى الإستراحة عندما أفرغ من المدرسة خصوصا يوم الخميس والجمعة حيث لا أعمل فى المدرسة، وأحياناً أذهب معها للزراعة، ولكنى اليوم بعد إنتهاء الدراسة كنت مصممة على

كتابة رسالة إلى أبى، فقد كنت أتهرب من كتابتها، فجلست على مكتبى والأولاد يراجعون أمامى، لم أعرف كيف أخبره بأنى قررت البقاء فى الجنوب، لم أستطع كتابة كلمة واحدة فقد كنت أشعر بردة فعل هذا القرار عليهم، ثم بدأت كتابة رسالة إلى فدوى أخبرها بوجود إبن طارق فى الجنوب لتخبر عائلة المغربى، وتخيلت حاج المغربى وفدوى تخبره بوجود إبن طارق بالجنوب فلابد أن يخفف هذا الخبر إحساسه بالندم تجاه طارق، ولكنى مزقت الرسالة فلا أريد أن أسبب مزيداً من المشاكل لفيفيان، ثم حاولت أن أكتب إلى منى حسين أخبرها بأن طارق توفى بالجنوب ولكنى تذكرت حسن عبد الله وعذابه فى الغربة من أجلها، فما الفائدة من إخبارها وطارق توفى فى جميع الأحوال، وكانت المحصلة أننى لم أستطع كتابة رسالة واحدة، فقررت أن أترك الأمور تجرى كما سيرتها الأقدار فلن أتدخل فقد إنتهت القصة بأحزانها، والتى دفعت أنا فقط ثمنها، ياليتنى سمعت كلام هشام وتركت الأمر برمته، فقد فقدت عزة الأولى وسكنت روحى أحزاناً لم أعهدها من قبل، وضعت كتبى داخل الدرج وأمرت الأطفال بالإنصراف، ثم قمت باغلاق أبواب المدرسة، وسرت بهدوء إلى البيت وبجوارى أدم ممسكا بيدى فقد ذهب اليوم جوزيف مع جده إلى الصيد، عندما دخلت الحوش وجدنا فيفيان تنتظرنا جالسة فى الصالة أمام غرفتها، أمرت إبنها بالإستحمام، وما أن ذهب أخبرتنى بأن أدم سيكمل الثامنة يوم الخميس القادم وهى تريد أن تحتفل بهذه المناسبة، شعرت بأنها تريد أن تشيع جوا من الفرح فى المكان، ليس من أجل إبنها فقط بل من أجلى فلم تقيم حفل عيد ميلاد من قبل، تحمست للفكرة وقلت لها: سنفاجىء أدم بأجمل حفل عيد ميلاد، بدأت أفكر فى الهدية التى يجب أن أحضرها فذهبت يوم الخميس صباحا إلى جوبا ومعى فيفيان بعد أن تركنا والدها يهتم بأمر الإستراحة حتى نعود، وأخذت فيغيان فى الشراء كل شىء من السوق وقمت بشراء مولد كهربائى بكل النقود التى أحضرتها معى من الخرطوم فلم

أصرف منها شيئا فمن يعيش مع فيفيان لا يحتاج لشراء شيء، وذهلت فيفيان من هذه الهدية، واخذت تضحك طوال طريق العودة وهى تكاد تطير من الفرح ووتتخيل منظر الإستراحة مضاءة ليلا، ومع تشغيل الكهرباء وقت المغربية، إضاءت أنوار الزينة الإستراحة والشارع، الذى حوله أهالى القرية ومعهم جوزيف لإلى كرنفال من الرقصات الشعبية فلم يكن عيد ميلاد أدم يمكن أن يكون أجمل مما رأينا مع إن أدم نفسه غلبه النعاس ونام على أحد كراسى الإستراحة ولكن فيفيان ووالدها، قاموا بتوزيع الطعام على أهل القرية التى لم ينام أهلها حتى توقف المولد عن العمل بسبب لإنقطاع الوقود فلم نحضر معنا وقودا كافيا بل إننا لم نكن نعرف مايحتاج إليه المولد من الوقود، كانت الساعة تجاوزت الثانية صباحاً عندما خلدنا أنا وفيفيان إلى النوم، همست فى إذنى قبل أن تنام: لن أنسى لك هذا اليوم ما حييت. ولم أستطع أن أرد عليها فقد غلبنى النعاس، لم أدرى كم ساعة إستقرقنا فى النوم، حتى إستيقظنا فجأة على صوت فى الخارج خرجت فيفيان لترى ما يحدث فقد كان صوت والدها عالياً، وأتت سريعا وهى تقول خائفة : العسكر يطلبونك.

قلت وأنا لا أستطيع أن أفتح عينى: ماذا يريدون؟.

قالت: لا أعلم .. ولكنهم يطلبون منك الحضور سريعاً.

خرجت وأنا أتلفح ثوبى ومعى فيفيان وجدت عسكريا ينتظرنى على باب الإستراحة والأخر جالس فى السيارة ووالد فيفيان يحمل بندقية الصيد متحفزا، فقلت له: ماذا تريد؟.

قال: سيادة المقدم يطلبك.

قلت: لماذا لا يحضر هو؟.

نظر إلى بحزن: لا يستطيع فهو مصاب. شعرت أن الأمر خطير ركبت السيارة مع فيفيان فى المقعد الخلفى وكنت أنتظر من السائق أن يتجه إلى جوبا ولكنه

إنحرف بالسيارة وإتجه إلى المدرسة ثم تخطاها باتجاه قبر طارق حيث كانت هناك سيارة أخرى ومجموعة من العساكر يتجمعون أمام السيارة التى كان نورها مضاء، عندما إقتربنا رأيت ياسر راقدا على الأرض وبجواره جالس عسكرى يحاول الضغط على بطنه لوقف النزيف، عندما جلست بقربه أدركت أن إصابته بالغة فقد كان ينازع فى الروح والدماء تغطى جسمه، ووجهه يتصبب عرقا، عندما رأنى حاول أن يرفع يده المغطاة بدمه، كان قابضا عليها بقوة، فتحتها ووجدت دبلتين، قال بصوت خافت: قولى لبنت عمى لن يحبك أحد مثلى. بدأت دموعى تنزل وأنا أقول: ياسر حاول أن تصمد، هز رأسه بأن لا فائدة، بدأت أمسح العرق من جبينه بثوبى وقلت: لماذا إخترت أن تدفن هنا.

قال بصوت متقطع : الجنود يدفنون مكان المعركة.

أخذ شهيقا وأسلم الروح ورأسه بين يدى، أخذت أصرخ ياسر.. ياسر، أمسك بى العسكرى وأبعدنى عن الجثة وبدأ زملائه يحفرون قبره بجوارطارق، كان جسمى يرتعد فلم أرى أحدا يموت أمامى من قبل، وأخذت أنظر إلى فيفيان وهى تثور مطالبة بعدم دفنه هنا أمسك بها العساكر، وأبعدوها الى الإستراحة بينما كنت أنظر إلى حفرة القبر وهى تتسع، ثم يحملون ياسر داخلها بعد أن صلوا عليه صلاة الجنازة، وما أن أكملوا الدفن قرأوا الفاتحة على قبره، وصافحونى للعزاء وركبوا السيارتين وذهبوا، كان الأمر سريعا فقد تعودوا أن يدفنوا بعضهم كل يوم، كان كالحلم ولكن رؤية القبرين أمامى تؤكد حقيقة ما حدث، بدأت خيوط الفجر تضىء وهواء بارد بدأ يهز أغصان النخيل، كنت واقفة وحيدة وأنا أسأل نفسى كم فجر سيمر على حتى أخرج هذا الحزن منى؟.

مرت الأيام التالية وقمت بارسال رسالة الى أبى أخبره بقرار بقائى فى الجنوب، ولم أزر القبرين غير مرة واحدة حيث أقمت شواهد على القبور "المرحوم طارق المغربى توفى عام أثنين وتسعون" "المرحوم ياسر عبد الحميد توفى عام

أربعة وتسعون "، وتعمدت الإندماج مع الأطفال والزراعة، فبهما تكبر مساحة الفرح ويتقلص الحزن بداخلى، ولكنى لاحظت أن فيفيان تخفى عنى شيئا فقد بدأت تختفى من الإستراحة هى ووالدها، وبعد عدة أيام إنكشف المستور فقد عدت من المدرسة ووجدت كمية من الطوب الأحمر وأكياس الأسمنت فى الحوش، وفيفيان تضحك وتقول لى: سأبنى لك غرفة وحمام خاص بك يابنت الرياض.

قلت مبتسمة فلم أسمع هذا التعبير منذ أيام الجامعة: أين صنعت هذا الطوب.

قالت: فى الحقول وقد ساعدنا أهل القرية فهم جميعا يحبونك لقد أصبحت أغار منك فقد كنت بنتهم المدللة

قلت وأنا أضحك: أنت تريدين التخلص من شخيرى ليلاً.

قالت والدموع فى عينيها وهى تمسك بيدى: أصبحت لا أتخيل المكان بدونك.

مرت الأيام التالية وقد بدأت حوائط غرفتى تظهر من باطن الأرض، وقد زودت ساعات عملى بفتح فصل لتعليم الكبار، الذين كان تعليمهم أصعب من الأطفال، فقد كان الأطفال يتقبلون أى معلومة بينما الكبار يجادلون فى كل شىء، وبينما أنا منهمكة فى تدريس اللغة العربية للاطفال، فجأة فتح الباب بعنف، نظرت إلى الباب وجدت أبى ينظر إلى بغضب، وقفت جامدة من المفاجأة، كان خالد واقف خلفه وهو يبتسم، أحسست بأن أبى سيفرغ غضبه ويبدأ باهانتى أمام تلاميذى، فحملت كتبى وطلبت منه الحديث فى الخارج، خرجت من المدرسة وأبى وخالد يسيرون خلفى، كنت خائفة منه لم أعلم أين أذهب بهما فلا أريد أن يسمع شجارنا أحد، ولكنى إتجهت إلى القبور كأنى أستنجد بالموتى وقفت أمام قبر طارق وياسر وبدأت أقرأ الفاتحة حتى أستطيع أن أمتص غضب والدى، وقف والدى و خالد يقرأون الفاتحة ثم شرعا فى قراءة المكتوب على الشواهد، وساد الصمت فترة، حاول خالد أن يكسر حاجز الصمت فهو يعلم أن المعركة لم تبدأ بعد وقال: مبروك أخيرا وجدت طارق.

قلت بحزم: ليس مهما أن أجده الأهم ماذا بعد أن وجدته.

قال أبى ساخراً: بعد أن وجدته تحرسى قبره. ثم أضاف: أعطيتك حرية كافية لتفعلى ما تريدين، والآن حان وقت العودة، ستعودين معنا وستتزوجين من نختاره لك وهذه هى نهاية القصة.

قلت بتحدى: أتظن إنها قصة ألف ليلة وليلة، نتسامرها ليلا وننساها صباحاً، من يرقد فى هذه القبر كان بامكانه أن يتزوج ويخلف كالبهائم، ولكنه عاش بهدف ومات من أجله، أنظر الى هذه المدرسة، وهذه الحقول، هذا مجتمع كامل أنا مسؤولة عنه الآن ، أترك كل هذا من أجل ماذا؟.

قال: لم أتى الى هنا للمناقشة، بل لأخذك معنا إذا شئت أم أبيت.

قلت بعناد: وأنا لن أذهب. فليس هناك قوة فى الأرض تجبرنى على فعل مالا أريد.

صاح والدى: خالد قيدها. تسمر خالد مكانه وهو ينظر إلىّ مرة ثم إلى أبيه مرة أخرى فصرخ فيه ثانية: قلت لك قيدها. أخرج خالد الحزام من بنطلونه فصرخت فيه متوسلة: لا ياخالد. أدمعت عيناه ولكنه بدأ تنفيذ إرادة أبيه فصفعته على وجهه وأنا أقول: ستندم ياخالد، يجب أن تقول لا. ولكن خالد ووالدى هجما علىّ وسقطت على القبر وسقطت الكتب من يدى والهواء يتصفحها، كنت أقاوم محاولة تقييدى بكل قوة وأنا أتعارك معهم وغطى الغبار المكان، ولكن النتيجة كانت واضحة، فأمسكا بيدى خلف ظهرى ووجهى مغروزا فى التراب، وقيدانى ثم أمسكا بأعلى ساعدى ورفعونى من الأرض وهما يسحبانى كما تسحب النعاج، وشعرت كأننى طارق ملقى فى المخزن مضروبا بالسياط ما أسوأ الإحساس بالقهر، وإتجهنا إلى الإستراحة، حيث كانت سيارات الجيش تملأ المكان، وكان أهل القرية جميعهم ينظرون صامتين، فلم يعتادوا على رؤيتى بمثل هذه الذلة، كأننى بنت فى العاشرة من عمرها سيعاقبها والدها على ذنب إغترفته، نظرت إلى فيفيان

كانت دموعها تنزل فى صمت وهى تمسك أولادها من اللحاق بى، قلت لها: سأعود أكملى الغرفة. إبتسمت لي كأنني أعانى من الهذيان، فحالي يقول بأني لا أملك أي قرار، أجلسني خالد بقربه في المقعد الخلفي، وجلس والدي بقرب السائق، وتحرك موكب السيارات، هل كان إعتقالي يحتاج إلى كل هذه الحشود، كنت أنظر إلى فيفيان والدموع تملأ عيني والسيارة تبتعد خارجة من أدك، بدأت أنظر إلى السماء ثم إلى الحقول، يا أشجار المانقو والأناناس وسهول الموز والباباى، أيتها الشمس المختفية، يا قطرات المطر النازل، يا أحرار العالم، لن أتزوج عماد، فالشرع يعطيني حق الرفض والقبول، سأتزوج من يأتي بي إلى هنا، فقط من يأتي بي إلى فيفيان،أجل هذا هو مهري، فمن يقدرعلى مهري؟، من يمهرني السلام ؟.. يا ترى ..من يمهرني السلام ؟.

إنتهـــت

■ ولد الكاتب بمدينة شندى ، وأكمل مراحل تعليمه بالخرطوم.

■ وتخرج من جامعة عجمان بالامارات العربية المتحدة من قسم هندسة الأجهزة الطبية .

■ حصل على زمالة IEE البريطانية فى ٢٠٠١

■عمل كمهندس أجهزة طبية فى عدة شركات بالأمارات حتى عاد الى السودان عام ٢٠٠٣ .

■ يعمل حالياً بالسودان ممثلاً لشركات طبية عالمية.

■ له تحت الطبع كتاب " اجادة الحياة ". وكتاب " فن ترويض الشعوب "

■ للمراسلة nelsadik@hotmail.com